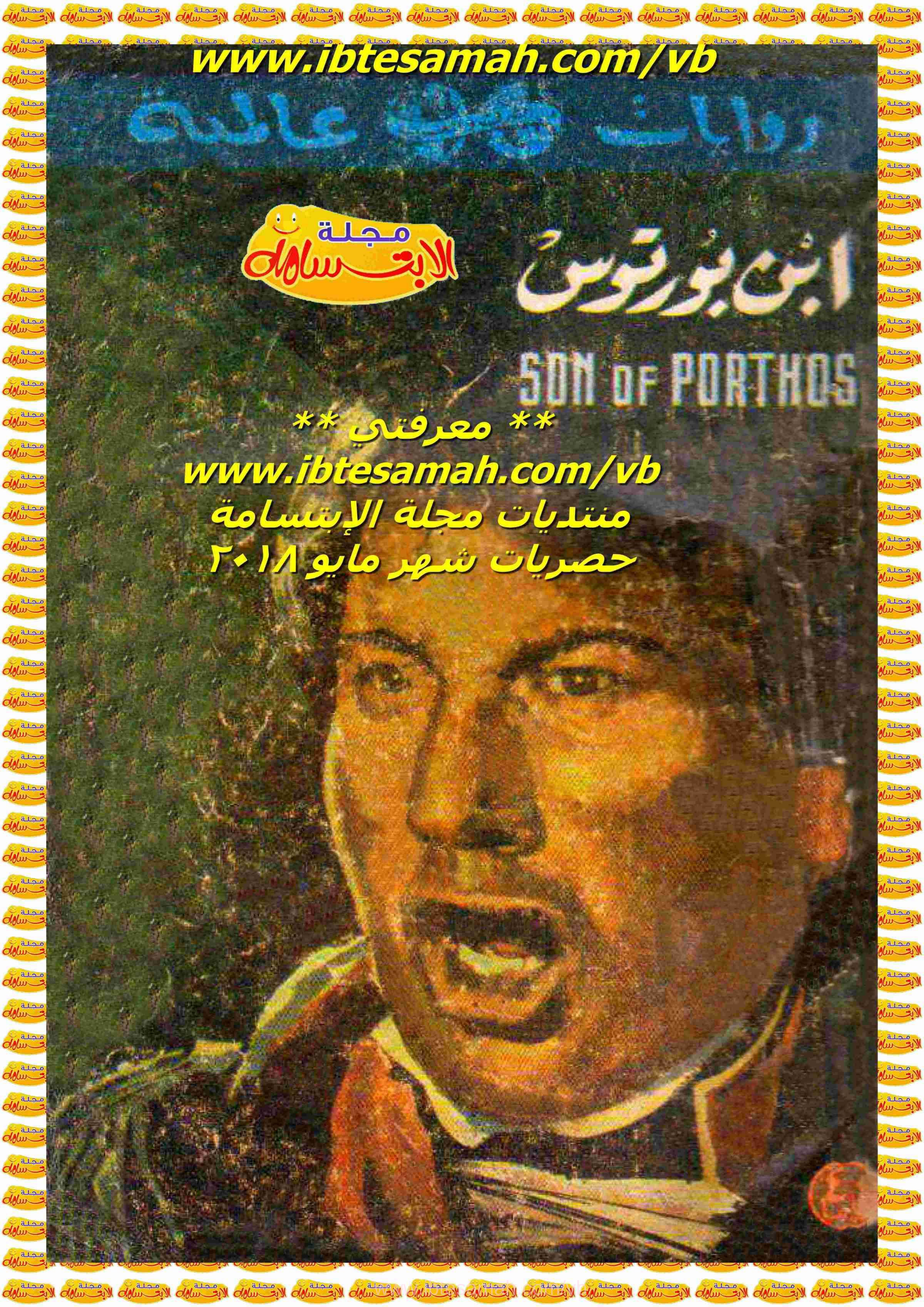


روايات عالمية
ابن بورتوس
SON OF PORTHOS



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر مايو 2018 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات عالمية

ابن بورتوس

رواية تاريخية حافلة بأعمال البطولة ودسائس البلاط الفرنسي

بطلها (أراميس) آخر الفرسان الثلاثة

بقلم الروائي الفرنسي المشهور

اسكندر ديماس الكبير

الفصل الاول

كانت شمس منتصف الصيف تغمر بضوئها الوهاج ذلك الوادى الهادىء الجميل ، وادى نهر اللوار ، بالقرب من صومور، فى شهر يوليو من عام ١٦٧٨ .

وكانت المركبة المسافرة من نانت الى باريس تجرها ستة جياد ، ولكنها كانت تسير ببطء شديد ، بسبب الحرارة والغبار ، وطبيعة أرض الطريق المتعاقبة الوهاد والمرتفعات ، ورغم أن ركابها من الذكور كانوا قد خففوا حملها بهبوطهم وسيرهم بجانبها، فلم يبق فيها الا سيدة يغالبها النعاس وتغالبه .

أما هؤلاء الركاب الخمسة فكانوا يتألفون من : مسجل عقود من نانت ، وتاجر للوازم السفن ، وتاجرين من تجار السردين من نانت أيضا ، ومزارع شاب من أهل الطبقة المتوسطة من ميناء لوكماريا فى جزيرة (بل ـ ايل) ذات الشهرة الخالدة بالحوادث والوقائع التى سجلت فى صفحات تاريخ (الرجل ذو القناع الحديدى) .

وكان المزارع الشاب عملاقا مفتول الساعدين يميل لونه الى السمرة من أثر لفحات الشمس ، وتتألف ثيابه من ذلك الخليط من الالوان الزهية التى امتاز بها أبناء مقاطعة بريتانيا ، ويتدلى الى جانبه ذلك الشعار الذى كان يميز النبلاء فى هذا العصر ، وهو السيف ، ولكن سيف صاحبنا هذا كان طويلا هائل الحجم بحيث لا يكاد يتناسب مع شباب حامله لولا ما وهبه الله من طول غير عادى وعضلات ناطقة بقوته وفتوته

وعلى الرغم من جمال المناظر الطبيعية المحيطة بالمسافرين ، فقد كانوا فى شغل شاغل عنها بما يتصبب على جبينهم من عرق ، وان لم يمنعهم ذلك من التحدث فى أسعار السوق والضرائب وما اليها من الشئون المالية ، بينما راح فتى (بل ـ ايل) يختلس نظرتا خاطفة أحيانا وطويلة أحيانا أخرى الى الراكبة التى كان النوم يداعب جفونها .

وفجأة اهتزت المركبة اهتزازا عنيفا ذعرت له الراكبة ففتحت عينيها وحينئذ أدار الفتى وجهه بسرعة خشية أن يضبط وهو يحملق فيها ، ولم يكد ينظر الى الفضاء حتى استوقف سائق المركبة ، الذى كان هو أيضا سائرا على قدميه بجوار الجياد ، وأشار الشاب الي نحو نصف (دستة) من الفرسان ظهروا فجأة على مسافة بعيدة وقال :

ـ ما هذا وما عسى آن تكون هذه الجماعة ؟
وكان أربعة من أولئك الفرسان ممسكين بغداراتهم مشرعة استعدادا لاطلاقها ، بينما لم يكن الخامس المتقدم عليهم وكأنه قائدهم يحمل شيئا في يده ، ولكن أشعة الشمس كانت تنعكس على قفل قراب المسدس المعلق في منطقته ، وغمد السيف المتأرجح على فخذه .
وصفوة القول لم يكن منظر هـذه الجماعة ممـا يدعو الى الاطمئنان ، وخاصة في هذا العهد الذى كانت الطرق الرئيسـية تخضع فيه لاشد قطاع الطريق بأسا وقوة
وتجهم وجه (باكدرو) ، سائق المركبة ، واخفى ابتسـامة مغتصبة تحت ستار كثيف من البراءة المصطنعة ، وقال :
ـ هذه فصيلة من فرقة الهجوم الملكية
فردد السائل هاتفا في غضب : فرقة الهجوم الملكية ؟ اسم عجيب حقا وان كان يبـدو أنه منطبق على الواقع ! .. ولـكن لا خوف على كل حال ، فان عددنا مساو لعددهم ، خمسة لخمسة
وكان الاربعة الاخرون قد تجمعوا حول السائق ومحـدثه الشاب ، فما أن سمعوا آخر عبارة في كلام هذا الاخير حتى هبوا معربين عن عدم موافقتهم .
وقال مسجل العقود : ولكننا لا نحمل سلاحا !
وقال تاجر السردين : ونحن فضلا عن ذلك تجار محترمون ولا نحب الاشتباك في عراك مع أولئك الصعاليك .
وقال تاجر أدوات السفن : آه لو كنا قريبين من الميناء لاطلقت عمالي والبحارة على هؤلاء الاوغاد فذبحوهم عن بكرة أبيهم .
وتكلم مسجل العقود مرة اخرى قائلا : ما دمت تعرفهم ياسيد باكدرو ، فلابد انك تعرف ايضا كيف سيكون سلوكهم حيالنا و ..
فقاطعه الفتى الريفي النبيل : لا تزعج نفسك كثيرا بالسؤال عن سلوكهم ، فها هم قد اقتربوا منا .
وكان فرسان عصابة الهجوم الملكية قد أصبحوا على بعـد بضعة عشر مترا من المركبة ، فاعطاهم قائدهم اشارة الوقوف . وتقدم هو حتى دنا من الركاب الذين كانت فرائصهم ترتعد ولا تكاد تقوى على حملهم وقال :
ـ أيها السادة ، اسمحوا لخادمكم المطيع المخلص ان يقـدم نفسه اليكم حيث أنني لا اجد بينكم من يعرفني ليتولى ذلك عني
وهنـا أحنى هامته حتى كاد رأسـه يلمس معرفـة جواده واستطرد :

ـ فانتم ترون امامكم الفارس كوندور دي كوردبف ، الكولونيل فى خدمة جلالة الملك . وفرقتي هذه ـ أو فصيلتى على الاصح ـ وقوامها فى الوقت الحاضر أولئك الفرسان الابطال الاربعة الذين ترونهم فى انتظارى هناك ، وهم : الملازم محطم الاقفال ، والجاويش ممزق القلوب ، والاونباشي منظف الجيوب ، والنفر خاطف الحقائب ..

وسكت الفارس هنيهة وهو يتفرس فى وجوه مسجل العقود وتاجرى السمك وتاجر أدوات السفن الذين بدت عليهم آثار الارتياع لمجرد سماعهم هذه الاسماء العجيبة .. ثم أردف :

ـ ونحن الآن نقوم بالطواف لجمع مجندين جدد ، ولا ينقصنا الا اعداد الملابس والاسلحة لهم . ولذلك حصلنا على اذن من عمدة صومور بأن نتولى شرف حراسة السادة المسافرين فى هذه المنطقة حتى يصلوا آمنين الى حيث يقصدون ..

فارسل الاربعة المذعورون تنهدات الارتيـاح ، ولكن قائد الفرسان ما لبث أن استطرد :

ـ وذلك لقاء اجر تافه

فرددوا جميعا بأصوات متتابعة : حقا !.. وكم تريد ؟

فاجاب زعيم قطاع الطريق : انى اترك تحديد الرقم أيهـا السادة لكرمكم ومقدرة كل منكم طبقا لمكانته فى المجتمع .

ثم التفت الى السائق قائلا : هيا وعجل بكتابك يا فنسنت واقرأ على اسماء هؤلاء السادة واذكر مع كل اسم ما هو مكتوب قرينه فى السجل .

فتناول سائق المركبة كتيبا صغيرا من جيبه وبدأ يقرأ :

ـ مسيو ليبينو ، مسجل عقود من نانت ..

فقال كوندور وهو يتصنع الابتسام : هذا حسن .. فـان حضرات السادة المسجلين هم أعرف الناس بحاجات الجنود وحملة السيوف وخاصة من كان منهم فى خدمة الملك .. وأراهن أن السيد المحترم سينتهز هذه الفرصة ليساهم بمائة جنيه يتبرع بها لرجالى الشجعان .

ثم تناول قبعته من فوق رأسه وبسط بها يده الى المسجل الذى نم عن نفسه بما بدا عليه من تذمر وما أرسله من أنـين ، وقال :

ـ هيا يا سيدى المسجل ، شرفنى بالمبلغ الزهيد المطلوب

وبعد أن دفع المسجل ما هو مطلوب منه بوضعه فى قبعـة الزعيم ، استأنف السائق قراءته :

ـ سيمون بريبه ، تاجر أدوات سفن من نانت .
قال الزعيم : مائة جنيه ، اذ لا يسعنى وضع تاجر محترم فى مكانة أقل من مكانة حامل القلم
ودفع التاجر المبلغ صاغرا وقرأ السائق :
ـ يوفينس جرينكوبيير تروجوف ، تاجرا سردين من كراوزيك
فقاطعه الزعيم : خمسون جنيها من كل منهما . فان لتجارة السمك سوقا رائجة فى هذا الموسم .
وحذا التاجران حذو زميليهما السابقين ورفع السائق كتابه أمام عينيه وقرأ :
ـ الوجيه جويل من لوكماريا .
فقاطعه اللص : وجيه ؟ أين هو هذا الوجيه ؟
فأجاب الشاب صاحب الثياب الملونة : هو أنا

وكان جويل كما قلنا عملاقا ذا عضلات تدعو الى الاعجاب فى تناسقها مع ارتفاع قامته . حتى ليمكنك ان تتخيله كشمشون أو هرقل فى حداثته . ولكن وجهه مع ذلك لم يكن يبدو عليه شىء من تلك القوة الكامنة فى نفسه التى يستطيع أن يسحق بها حجرا أو يحمل جملا بين ذراعيه
وكان قد وقف طيلة الحوار الذى دار بين رفاقه وبين زعيم اللصوص متكئا على عجلة المركبة لا يأتى بحركة رغم ما كان يعتمل فى نفسه من دهشة مما يجرى امامه

وقد صعده اللص هنيهة ثم قال : وحق ابليس ان هذا الفتى يكفيه قليل من المران والتدريب ليكون ساعدى الايمن بدلا من ملازمى محطم الاقفال ، مهما تكن من غيرة قد يثيرها عملى هذا بين رجالى .
ولما لم يجبه جويل أردف : ماذا تقول فى هذا يا فتى ؟ أفاهم أنت ما أقول ؟
ـ نعم ، فهمته تماما .
ـ وهل أنت موافق ؟
ـ كلا ، لانى لا اريد أن أموت بحبل المشنقة .
فعض كورديف على شاربه وقال بصوت أجش :
ـ هذه روح دعابة لا بأس بها . وانما سأمهلك خمس دقائق لتخبرنى برأيك النهائى ، فاما أن تقبل الخدمة تحت رايتى ، واما ان تدفع لى نقدا ثمن رفضك
والتفت الى سائق المركبة وقال :
ـ حسنا : هل لديك فى القائمة احد غير هؤلاء ؟

ـ نعم . لدى الليدى أورورا دى ترمبلاى .
ـ حقا ! .. لابد اذن ان تكون هذه السيدة العجوز من أفراد تلك الاسرة التى أخرجت لنا يوما ما محافظا لسجن الباستيل؟ واين هذه الارملة المحترمة ؟
فأجابه صوت حلو رقيق من داخل المركبة : هأنذا !
وفتحت السيدة باب المركبة وقفزت منه بنشاط فوق الارض الرملية على جانب الطريق
وكان يلوح عليها أنها لم تكن قد جاوزت العشرين ربيعا . ذات قد رشيق وملامح نبيلة جديرة بثياب سيدات البلاط أكثر من ثوب الحداد الذى كانت ترتديه . وقد عقدت شعرها الكستنائى المائل الى السواد على شكل تاج فوق رأسها تلألأت من خلاله بعض خيوط ذهبية حين أنعكست اشعة الشمس عليها ، ولها عينان بيضاويتان لامعتان تنطلق منهما بين الحين والحين أسهم تنفذ الى اعماق من يقع عليه بصرها . اما ابتسامتها الجميلة فكانت مما تضطرب له القلوب والافئدة . وقد سارت بخطوات ثابتة دون أن يبدو عليها أى أثر للخوف او التردد حتى بلغت مكان قبعة كورديف التى كانت قد ملأتها تقريبا تبرعات الركاب الاربعة ، فألقت فى القبعة كيّسا مملوءا بالنقود وقالت :

ـ هو ذا نصف ما احمله من النقود ، اذ النصف الاخر ليس ملكي وانما هو مال اليتيمين اللذين اسافر الى باريس خصيصا للمطالبة بحقوقهما فبحسبك ان تأخذ ما يخصني ، واتوسل اليك الا تكون أقسى على ذينك اليتيمين من الدهر ذاته .
فارسل الكولونيل ضحكة جافة وقال : يا لك من محامية قديرة ومدافعة جميلة !.. وما اسعد هذينَ اليتمين اذ تنهض فتاة مثلك بارعة الحديث رائعة الجمال للدفاع عنهما ، الا انى لواثق من أنك ستكسبين لهما القضية كل الكسب . لانه ما من قاض يستطيع ان يرفض لمثلك طلبا ..
فقاطعته مغضبة : ما هذا الكلام يا سيدى ، وماذا عساك تريد من ورائه ؟
ـ لا شيء سوى أنك لن تكونى بحاجة الى نقود كما تزعمين لكسب قضيتك .. وحبذا لو تكرمت على بهذا الخاتم البديع الذى تحلين به أصبعك لانى أريد ان اهديه الى شقيقتى بمناسبة زواجها ، وخاصة اذ هو على مقاسها كأنه مصنوع خصيصا لها .
فأجابته وهى ترتعد : يا لك من نذل . جبان ، الانه لا يوجد معى رجل يدافع عنى تريد ان تسلبنى كل شيء ؟

وغطت وجهها بيديها كما لو كانت توشك أن تبكى . فهبط اللص من فوق جواده وتقدم خطوة نحوها وهو يقول :

ـ سأوفر عليك عناء خلع الخاتم من اصبعك ، ولكنى سآخذ قبلة ثمنا لهذا العناء

وحينئذ دوى صوت كالرعد : خسئت أيها الوغد ! تالله لن تأخذن الا جزاء وقاحتك

وفجأة شعر اللص بقبضة حديدية تطبق على وسطه وترفعه الى الهواء كما لو كان طفلا

وصاح الشقى وهو يكاد يختنق : الى ! الى !

وخفض رفاقه الاربعة غداراتهم مصوبين اياها الى فتى لوكماريا الذى كان له فضل انقاذ الفتاة بتدخله فى اللحظة المناسبة ... ولكن جويل كان ممسكا بقائد فرقة الهجوم الملكية بحيث جعل من جسده درعا يتقى به ما يصوب اليه من رصاص رفاقه ، وقال الفتى فى هدوء :

ـ هيا ، اطلقوا النار اذا شئتم ، فلن تفعلوا اكثر من ان تملأوا جسد زعيمكم بالرصاص .

فصاح كوردبف مذعورا : لا ، لا .. لا تطلقوا النـــار بحق السماء !

فرفع الفرسان فوهات غداراتهم الى أعلا ، ولكن ابن لوكماريا لم يخفض درعه ، واستطرد محتفظا بهدوئه :

ـ دعونا من هذا ايها الرفاق ، وتعالوا نتفق على ما فيـــه فائدتكم وفائدتنا .. انى أرجح ان غداراتكم ليس فى كل منهـــا اكثر من طلقة واحدة . فما رأيكم اذا عرضت عليكم شراءها

فتصايح ثلاثة منهم ساخرين ، وقال رابعهم وهو الملازم محطم الاقفال :

ـ كم تدفع ثمنا للواحدة ؟

ـ أدفع ثمنا لها جميعا ما وضعه رفاقى فى هذه القبعة

فتبادل أربعتهم النظرات مشدوهين وأردف الفتى :

ـ هيا يا رفاق ، كل ما أطلبه منكم هو أن تفرغوا غداراتكم فى هذا السرب من الطيور المحلق هنالك ، فابادر بتسليمكم الغنيمة

ـ خذ النقود

واعلموا انه لو بدرت منكم اية بادرة تدل على المقاومة فسأخلع من فورى عنق زعيمكم

وفى تلك الاثناء كان كوردبف يتلوى فى يد جويل وقد فر لونه واختفت مظاهر الشجاعة الكاذبة التى كان يتشدق بها

وتشاور اللصوص فيما بينهم ، ثم قال الملازم محطم الاقفال لقد اتفقنا .
وأعطى اشارة لرفاقه فاطلقوا غداراتهم فى الهواء .. وحينئذ دفع جويل القبعة بطرف حذائه وقال :
ـ خذ النقود
فتقدم الملازم محطم الاقفال وقفز هابطا من فوق صهوة جواده والتقط القبعة .. ثم عاد الى الجواد وامتطاه بنفس السرعة التى هبط بها ، وبدلا من أن ينضم الى رفاقه لكز الجواد بمهمازه فى خاصرته فانطلق يعدو به هاربا فى اتجاه اخر

واخذ رفاقه الثلاثة : الجاويش ممزق القلوب ، والاونباشى منظف الجيوب .. والنفر خاطف الحقائب ، يتصايحون بأصوات مختلطة : « ويل للسارق ! .. يا له من خائن ! .. اوه ، اوقفوا اللص » .. ثم انطلقوا فى اثره ..
وعندئذ تخلت قبضة جويل عن وسط الكولونل كوردبف وأوقفه على قدميه وهو لا يزال يتلوى من الالم
ثم أخرج الشاب سيفه الطويل من غمده وقال :
ـ هيا يا قائد قطاع الرقاب ، تناول سيفك لتدافع عن نفسك
وحينئذ ناداه صوت من خلفه قائلا :
ـ يا مسيو جويل ، لى رجاء عندك ، فهل تجيبنى اليه ؟

والتفت جويل وراءه حيث كانت الحسناء هى التى تقدمت اليه بهذا الرجاء .. وصعد الدم الى وجهه حين التقت نظراتهما ورأى فى عينيها علائم الشكر .. فرفع قبعته واجاب :
ـ أؤكد لك يا انسة انه يسرنى كل السرور ان أجيبك الى ما قد تطلبينه الى اذا وسعنى ذلك
وتوردت وجنتا الفتاة بدورها ، وأشارت بيدها الى قائد عصابة الهجوم الملكية وقالت :
ـ اصنع معروفا ودعه يذهب .
فهز البطل رأسه وقال : هذا الوغد قد أهانك يا سيدتى ، ولابد من ذبحه تحت قدميك .
فقاطعه كوردبف : هل اطمعك فى انك أخذتنى على غرة ؟ .
ووضع يده على مقبض سيفه ، وانما فى بطء وبغير حماسة تذكر لان خصمه كان ملقيا باله اليه
وعادت اورورا تتوسل : أرجوك الا تقاتله ، وخاصة بعد أن وعدتنى بالاستماع الى رجائى !
ولكن الطفل كان عنيدا كسائر بنى قومه فقال :

ـ لو ان الامر كان مقصورا على وحدى لهان وتركته وشأنه .. أما وقد أهان النذل سيدة ـ وقد علمنى استاذى ان الرجل النبيل لا مندوحة له من امتشاق الحسام اذا ما أهينت أمامه سيدة ـ فلابد من غسل هذه الاهانة ، وغسلها لا يكون الا بالدم

ولكن الفتاة لم تكف عن توسلاتها .. وقالت مستطردة : انت رجل نبيل يا سيدى ، واسمح لى أن اقدم اليك نفسى ، فأنا يولندهنريت أوروا ، ابنة البارون لويس مكسيميليان دى‌ترمبلاى الذى كان مستشارا فخريا ومديرا لدائرة السجلات العسكرية ومحافظا لاقليم انجو حيث نحن موجودون الآن .. فباسم أبى وبالنيابة عن نفسى ، بل وباسم محكمة الشرف أمنعك عن مبارزة الكابتن اللص الذى لا يمت الى النبلاء بصلة .

فنظر جويل نظرة شذراء الى زعيم اللصوص ! ثم أعاد سيفه الى غمده وقال :

ـ لا بأس !. هيا اذهب أيها الجبان ، واشكر السيدة التى انقذتك من يدى .

وكان قاطع الطريق قد امتطى جواده فى تلك الاثناء ، ولم يلق المسافرون الاربعة بالا اليه لانهم كانوا متجهين بانظارهم الى حيث طارت نقودهم مع الملازم محطم الاقفال الذى لم يستطع رفاقه الثلاثة اللحاق به .

وكذلك كان السائق باكدرو منهمكا فى البحث فى التراب عسى أن يكون هناك شىء من النقود قد سقط فيه .

وحينئذ أمسك كوردبف بمقود الجواد بين اسنانه ، واخرج غدارتيه من منطقته وصوبهما الى جويل واورورا وهو يقول :

ـ وهكذا تحسبان اننى تحت رحمتكما أيها الفران !.. ولكنى لن ارحمكما .

واطلق الغدارتين فى وقت واحد . ولكن الفتى الباسل كان أسرع منه اذ عجل بالوقوف أمام الفتاة ليحول دون اصابتها . وانبثقت الدماء للتو من جبهته ، وصرخت اورورا صرخة ذعر، وهتف اللص ثملا بخمرة الغضب والنصر :

ـ وداعا ياهرقل !.. اماانت ياحسنائى العزيزةفلن يكون هذا اخر لقاء بيننا

وهمز جواده فانطلق به كالسهم مثيرا وراءه سحابةمن‌الغبار حجبته عن العيان .. واخيرا انقشع الغبار عن منظر مؤثر حيث كان جويل مستندا الى صدر السائق باكدرو والدم ينزف من موضع الاصابة فوق حاجبه ، ولكنه ظل واقفا على قدميه وقد

رفض كل مساعدة من رفاقه المسافرين ، والتفت الى الفتاة التى كانت رؤية الدم قد اثرت عليها فبهت لونها واغمضت عينيهاوكادت تسقط على الارض مغشيا عليها لولا ان تداركها ساعدا البطل الجريح وتحول اليها بوجهه ناسيا نفسه وهو يقول :

ـ أفيقى يا انسة ! . تكلمي بحق السماء ! هل أصابك سوء ؟

ولكن الفتاة لم تجب ، وراح جسدها يرتعد بشدة وجعلت ترسل انينا خافتا متواصلا ازعج سائر رفاقها المسافرين وسائق السيارة نفسة فخفوا جميعا لنجدتها .

وفيما هم كذلك سمعوا اصوات عجلات مركبة قادمة على الطريق فقال مسجل العقود :

ـ ياحبذالو كان فى هذة المركبة طبيب !

ورفعوا جميعا اعينهم الى السماء او الى الجهة الاخرى ليروا من عساه قد ارسلته العناية الالهية اليهم فى هذه اللحظة العصيبة

الفصل الثانى

كانت المركبة القادمة تبعد ربع فرسخ عن المركبة المنكوبة فى الوقت الذى وقع فيه هذا الحادث . وكانت تجرها أربعة جياد كرام من جيادالبريد ، ويسير الى جانبهاستة من الفرسان المسلحين بالسيوف والفدارات ..

وفى داخلها على المقعد الخلفى جلس سيد نبيل عجوز قد تهدل الشعر المستعار على كتفية وارتفع شارباه المفتولان يقف عليهما الصقر . وارتدى تلك السترة الطويلة التى تشبة العباءة ، وهى لباس نبلاء عهد لويس الثالث عشر

وجلس فى المقعد المقابل له رجل آخر عجوز أيضا ، ولكن على الرغم من حسن هندامه وما كان يتكلفه من الظهور بمظاهر السادة النبلاء ، لم يكن من العسير ادراك حقيقته . فهو التابع القديم لهذا النبيل الجالس قبالته

وفى الوقت الذى نبدأ فيه بتقديم هذا السيد وتابعه الى قرائنا . كان التابع اما سابحا فى نعاس أو فى تفكير عميق حين ناداه سيده :

بازان !

ففتح الآخر عينيه وغمغم :

ـ هل ناديتنى يا صاحب النيافة ؟

فقال الاول باسما : يلوح لى انك نسيت يا عزيزى بازان انه قد مضت عشرون سنة كاملة منذ انفصام لقب « النيافة » عنى

بتجردى من منصب أسقف فانيه . ولكن دعنا من هذا الان ، فانى الاحظ أن المركبة سائرة ببطء شديد ، على الرغم من أن موعدنا قد حان . فقل للسائق أن يستحث جياده

فأجاب بازان : نحن الآن نسير على طريق ملتوية ووعرة ، فلو أننا دفعنا الجياد للاسراع وسقط أحدها ، فقد لا تتحمل سموك الصدمة التى تصيبك فى هذه السن !

فهز « سموه » كتفيه وقال :

ـ تكلم عن نفسك يا مسيو بازان ، فأنت حقيقة فى الخامسة والسبعين ، بينما أنا لا أزال فى الثامنة والثلاثين تقولها مرتين .. بيد أني أحذرك أيضا من اطلاق لقب « صاحب السمو » على ونحن فى الطريق . فأنا هنا لست الدوق دالميدا . لانى لا أريد أن يعرفنى أحد قبل أن نصل الى باريس ، وعليك اذن أن تنادينى بلقبى القديم الذى لم يبق أحد ممن يذكرونه على قيد الحياة ، وهو الشيفاليه دربلاى

فضرب التابع كفا بكف وقال : يا للسماء ! . ولعلك تنوى يا سيدى أن تعاود سيرتك الاولى عندما كنت فارسا من فرسان لويس الثالث عشر فتتمنطق بالسيف والخنجر ، وتنزل الى الميدان لمبارزة كل من يعترض طريقك ! ؟

وابتسم النبيل العجوز ابتسامة مريرة وقال : كلا ، لن يبلغ الامر الى ما تصف يا عزيزى بازان ، فلقد ذهب اراميس ولن يعود ، اذ هو قد مات بموت رفاقه بل أصدقائه بل اخوته الثلاثة .. طواه التراب كما طوى اتوس وبورتوس ودارتانيان . انه ليحز فى قلبى أن احدا منهم لم يعقب ولذا حتى كنت أزامله لنعيد ذكرى الفروسية الغابرة . الا بالله لا تهج هذه الذكرى يا بازان ، وحسبك أن تذكر اننى فى الطريق .. لست الا فارس دربلاى

***

وما هى الا لحظات حتى تصاعد الغبار الذى كانت تثيره مركبة الفارس دربلاى حول المركبة المنكوبة وركابها الذين كانوا واقفين فى شبه حلقة حول الفتاة الفاقدة الرشد وهى بين ذراعى منقذها

وصاح الفرسان المحيطون بمركبة دربلاى طالبين افساح الطريق ، فأجابهم جويل بصوت داو :

ـ قف هناك كائنا من كنت ، وليتقدم من يستطيع منكم لمساعدتنا ، فان هذه السيدة مغمى عليها

فهتف العجوز النبيل : سيدة مغمى عليها ! .. قف أيها

السائق ! . لحظة يا سيدى . اننى قادم اليك
ووقفت المركبة وهبط منها النبيل برشاقة لا تتفق معسنه ، واقترب من الفتى الشجاع . وما أن رآه حتى هتف :
أنت مصاب بجرح ؟
ـ أنا ! . كلا ، لا شيء . انه خدش بسيط . وانما أرجوك أن تعنى بالسيدة
والقى العجوز النبيل نظرة على الوجه الجميل الباهت . ولم يستطع اخفاء اعجابه بها . فكأنما عاد اليه الشباب بحيويته ، وحرارته . ولكنه قال بعد أن فحصها :
ـ اطمئن يا سيدى ، فلا خطر عليها .. كل ما فى الامر انها الآن تحت تأثير صدمة عصبية تعترى النساء عادة كلما شهدن منظرا عنيفا ، وأستطيع أن أؤكد لكم انى سأعيد اليها رشدها دون عناء .
ثم رفع صوته مناديا : ستيبان ، بيدريلو .. احضرا عباءة .. وانت يا بازان آتنى حقيبة السفر الطبية .
وسرعان ما جاءه رجاله بما طلب ، فبسطت العباءة على الارض ومدد جويل الفتاة فوقها ، وأخرج دربلاى سكينا ذهبية وقنينة صغيرة من الحقيبة ، وانحنى فوق الآنسة ترمبلاى ، وأدلج السكين برفق بين فكيها ، ثم سكب من القنينة نقطة أو نقطتين ، فبدأت وجنتاها سراعا تستعيدان لونهما ! . وهبطت الرعشة والتنهدات الطويلة مع الانين المتواصل الذى كانت ترسله
ونهض المتطبب العجوز قائلا : لقد زال الخطر تماما ولن تلبث حتى تفيق
ثم وقف دربلاى يستمع الى الاسباب التى أدت الى هذا الحادث حتى اذا استوعبها تماما التفت الى جويل وقال :
ـ انى أهنئك أيها الفتى الشجاع على نجاتك من رصاص ذلك الوغد ولكن هل لى أن أسألك عما اذا كانت هذه الفتاة هى شقيقتك ، أم تراها خطيبتك ؟
فأجابه جويل : لا هذه ولا تلك لسوء الحظ .. فانى لم أعرفها قبل رحلتنا هذه
ـ وهل تعلم الى أين هى ذاهبة ؟
ـ أحسبها قاصدة الى باريس مثلنا
ـ ألا يوجد لها قريب بين سائر رفاقك ؟
فأجابوا جميعا بالنفى . وعندئذ التفت الفارس العجوز الى السائق باكدرو وسأله :

ـ احسبك ستستبدل جيادك للمرحلة التالية فى صومور ؟

ـ نعم ، فى خان « السمكة الذهبية » فى شارع سان جان

ـ وكم من الزمن ستستغرق للوصول الى هناك ؟

ـ ساعتان على الاقل

ـ حسنا ، سأحمل السيدة اذن معى فى مركبتى حيث اسبقكم الى هناك بساعة أو نحوها ، وبذلك يتسنى لها من الراحة فى السفر ومن عناية خادمات الخان ما يرد عليها صحتها كاملة موفورة

فانحنى السائق كما لو كان يريد ان يجيب بالايجاب شاكرا ، وأشار دربلاى بيده الى اثنين من أتباعه ليحملا الفتاة الى مركبته وقال لهما :

ـ مدداها على مقعدى ، وسأجلس أنا مع بازان فى المقعد المقابل

وكان التابعان على وشك تنفيذ أمر مولاهما . واذا بجويل يتقدم خطوة ليحول بينهما وبين السيدة التى كانت لا تزال فوق العباءة مستسلمة للنوم وقال : ولكن ..

فحدجه النبيل العجوز بنظرة شامخة أوقفته دون الاسترسال فى احتجاجه ، وقال دربلاى فى هدوء :

ـ ما أظننى أيها الصديق الشاب بحاجة الى سؤالك بأى حق تتدخل معترضا على هذا العمل الانسانى ؟..

فطأطأ الفتى رأسه حياء ، ودنا منه العجوز النبيل ، بينما تقدم التابعان ليحملا الفتاة بينهما ، وقال :

ـ لا حاجة بك الى الكلام ، فانى أكتفى بما يعبر عنه وجهك من أسف ، وأعفو عنك بقلب صادق لنسيانك أن السيدة ستكون آمنة فى رعاية شرفى ..

***

وبعد نصف ساعة وقفت مركبة دربلاى أمام فندق « السمكة الذهبية » وتقدم صاحب الفندق وزوجته وابنتاهما وسائر الخدم لاستقبال الضيف القادم تحيط به كل تلك الضجة .

وكانت الفتاة قد أفاقت تماما من الصدمة ، لكنها كانت فى حالة من الضعف لا تستطيع معها أن تحفظ توازنها ، فهبط دربلاى من المركبة بنشاط ومد اليها يده فهبطت بدورها معتمدة عليها وسارت بجانبه وهى تقول :

ـ حقا يا سيدى لا أدرى كيف أشكر ..

فقاطعها قائلا : خلى عنك يا سيدتى .. ان طبيبك فوق العادة ينهاك عن أن تنهكى قواك بالكلام ..

ثم التفت الى ابنتى صاحب الخان والخادمة المرافقة لهما وقال :

ـ خذنها الى الغرفة المحجوزة لى ، وسيذهب معكن تابعى ليرى ما قد تحتجن اليه ..

وختم حديثه قائلا لاورورا : اذهبى يا مريضتى الحسناء .. وخذى قسطك من الراحة والهدوء ، وسأبعث اليك لأخبرك متى ينبغى لك ان تستأنفى السفر ، وحينئذ تستطيعين أن تشكرينى على هذه الخدمة التى ما كان لأى رجل غيرى الا أن يقوم بها مثلى أو خيرا منى ..

فلم تزد أورورا على أن منحته ابتسامة شكر ، ثم سارت متكئة على ذراع زوجة صاحب الخان ، وسارتا تتبعهما البنتان والخادمة ، ومن خلفهن بازان متبرما بالمهمة التى عهد بها اليه ..

وما ان ابتعدت هذه الجماعة حتى لمح العجوز النبيل رجلا جالسا على مقعد حجرى بقرب الباب وقد نهض منحنيا بالتحية ، فاستقبله دربلاى فى دهشة قائلا :

ـ آه .. أنت هنا اذن يا مسيو بزلوريه .. حقا انى لسعيد برؤيتك ..

فأجاب الآخر مكررا التحية : انا صاحب الحظ الأوفر ياسيدى بعد اذ وفقت الى هذه المصادفة السعيدة التى أتاحت لى مقابلة...

فقاطعه العجوز النبيل : الفارس دربلاى ..

فأومأ بزلوريه علامة على انه قد فهم رغبة محدثه فى التنكر وراء هذا الاسم القديم ..

وسارا سويا الى الردهة فجلسا الى مائدة أعدها لهما صاحب الخان الذى تركهما ليعد لهما الطعام اللائق بمكانتهما الظاهرة رغم ما أسبلاه على نفسيهما من تنكر ..

وبدا دربلاى الحديث عند ما أصبحا وحدهما فقال :

ـ لقد أحسنت صنعا بحضورك لمقابلتى هنا مذ كانت عودتى الى فرنسا يجب كتمانها على الملك والبلاط وقتا ما .. فهل جئتنى بأخبار هامة ؟..

فتجهم وجه بزلوريه وهو يجيب : يحزننى يا سيدى الفارس ان انعى اليك وفاة عشيقة الملك ، ولكن هذا هو النبأ الذى عهد الى الأب لاشيز بنقله اليكم ..

فهتف دربلاى : المدموازيل فونتانيه ماتت ؟..

ـ هذه هي الحقيقة مع الأسف الشديد يا مولاى ..

ـ ماتت ولما تكمل العشرين ربيعا .. هـذا نبأ مزعج ، ولا أكاد أصدقه ..

ـ لقد كلفنى الأب المحترم أن أروى لنيافتكم تفاصيل هـذا الحادث الغامض ..

فعقد دربلاى حاجبيه وقال : هى قد ماتت بحادث غامض اذن؟

ـ ان الغموض الذى اكتنف موت هذه الفتاة التعيسة ياسيدى سيظل سرا مستغلقا أبد الدهر .

ولم يطق دربلاى صبرا فقال : كف عن هذا اللغو الآن وقص على تفاصيل الحادث بحذافيره !.

قال بزلوريه ببطء : لقد ارتكبت لافالير الجديدة ثلاثة أخطاء : فهى أهانت أولا مدام دى مونتسبان بأن فاخرتها بما أحرزته عليها من انتصار بكسب قلب الملك منها وهى التى لا تترك ثأرهـا .. والغلطة الثانية انها ضمت الى خدمتها غلاما جاء اليها من حاشية خصيمتها المنبوذة .. والثالثة قبولها من يد هذا الغلام ذات مساء كانت تشعر فيه بالحرارة والعطش فنجانا من اللبن شربتـه الى آخره ، جرعة واحدة ..

وكان اراميس ممن لا ينقادون للعواطف ، بل كان قلبه مغلقـا دونها ، كشأن أولئك العجائز الذين طالما عابثوا الجنس اللطيف. وكانت لهم معه صولات وجولات .. ولذلك أصغى ، دون أن تطرف له عين ، الى قصة الفاجعة التى حلت بعشيقـة الملك ، وقال فى هدوئه المعتـاد :

ـ صدقنى انه أمر خطير جدا أن نوجه تهمة عائمة مثل هـذه الى شخص معين ..

ـ لقد تحدث الرأى العام بهذه التهمة فى همس بلغ جميـع الآذان .. وأمر الملك مسيو لارين قوميسير البوليس ورجال مكتبه ليحققوا فى قضايا التسميم التى روعت العاصمة فى الايام الاخيرة.

ـ وما كانت نتيجة هذا التحقيق ؟..

ـ ثبت منه أن مدام مونتسبان حاولت التخلص من غريمتها بثياب وقفاز موبوءة بالميكروبات زودها بها اثنان من الشريرين ، هما خادم يدعى رومانى ، وكاتب عند تاجر حرير يدعى برتران . ثم استعانت بتاجرين آخرين من تجار السموم ، أحدهما هو المجرم العائد فيلاستر ، والثانية هى المرأة لافوازان ، وهذه الاخيرة قدمت اليها نوعا من السم لا يترك وراءه أى أثر ..

فقاطعه دربلاى : أليست لافوازان هذه هى التى أدينت ونفذ فيها الحكم بالاعدام ؟..

ـ هى بعينها يا سيدى .. وقد امر الملك بأن تؤخذ أقوالها فى التحقيق على أوراق منفصلة عن السـجلات الرسمية .. وبذلك استطاع جلالته أن يعدم هذه الاوراق دون أن يصل علمها الى المحكمة وهو عين ما اتبع فى اعترافات لافيلاستر .. أما رومانى وبرتران فلم تؤخذ أقوالهما .. ثم توسـط الوزير « لوفوا » فى الجمع بين الملك وعشيقته المنبوذة وبقليل من البكاء والاستعطاف استعـادت مكانتها وسابق خطوتها عند جلالته ..

فسكت أراميس ـ مدبر المؤامرات الأعظم ـ هنيهة متأمـلا ثم قال :

ـ وهكذا استعادت مونتسبان نفوذها ؟..

وأردف بزلوريه : الى حد أن عرض عليها سفـيرا هولنـدا والنمسا التوسط فى عقد الصلح بين دولتيهما وبين فرنسا .

فأجفل دربلاى وردد : الصلح ..! وهل ينتظر اذن ابرام هذا الصـلح ؟..

ـ هذا هو المنتظر فعلا .. وقد تقـرر مبدئيا أن يجتمـع السفراء المفوضون فى «نيموجين» لوضع شروطه ..

فهتف دربلاى : هذا عجيب .. وماذا يكون الحال مع اسبانيا التى أنا ممثلها ، وقد اندمجت فى التحالف ضد لويس الرابع عشر بناء على توسل امبراطور النمسا وأمير الأورانج .. فكيف لا تحاط اسبانيا بنبأ هذا المؤتمر ؟..

فأجاب بزلوريه : ان اسبانيا لن تدعى للاشتراك فى هذا الصلح الذى ستستعيد به هولندا قسما من أراضيهـا التى احتلتهـا الجيوش الفرنسية . كما ستسترد النمسا مدينة فيليبسبرج ، وذلك مقابل اقليم برجنديا الذى تسولى عليه فرنسا من اسبانيا وكذلك ...

فقاطعه دربلاى بمرارة : كفى . كفى .. انى ولو اننى فرنسى المولد ، فان اسبانيا هى وطنى الثانى . ولن أسمح بأن يلحق أمى الثانية أى سوء .. ولكن حدثنى ، كيف عرفت كل هذه المعلومات ؟

ـ من خادمة المركيزة مونتسبان ، المدموازيل ديزوليه ، وهى فتاة مخلصة لنا ، وقد حصلت لنا ، أعنى للأب لاشيز ، على صور الخطابات التى تبودلت فى هذا الشأن بين سفيرى النمسا وهولندا وبين سيدتها ..

فهتف دربلاى متهكما : فلتحى الكتابة ..

ثم استطرد متوعدا وقد تملكه الزهو : ألا فلتلعبي أيتها العشيقة أو الدمية الملكية ما شاء لك طالعك المشؤوم أن تلعبي .. ولكن مادمت أنا قد علمت بما تدبرينه في الخفاء أيتها الحية الرقطاء .. فاعلمي انك الى الفشل صائرة ، ولن يعجزني أمرك وأنا الذى قاومت ريشيليو ، وأسقطت مازاران من قمة مجده ، ودبرت بمفردى اخراج شقيق الملك التوأم من السجن ووضعت مكانه عشيق لافالير وفونتانيه وعشيقك أيضا ، ولولا ذلك للفيلسوف الاخرق فوكيه ، لنجحت تلك الخطة ، ولكنه الان يلقى جزاء عظمته الجوفاء فى السجن .. آه .. صدقنى يابزلوريه ان رجلا قام بمثل هذه الاعمال لن يسمح لامرأة مثل مونتسبان بأن تحطم مساعيه وآماله ..

وصمت الثائر القديم ، أسقف فانيه سابقا ، ليلتقط أنفاسه بعد ما استعاده من ذكريات الشباب ، ثم أردف فى هدوء :

ـ لقد كانت فونتانيه المسكينة آلة طيعة فى يدنا ، وأفدنا من افتقارها الى الذكاء أكثر بمراحل مما يمكن أن نفيده من ذكاء عشرات من أمثال مونتسبان .. فلا مفر لنا من استبدال تلك الآلة التى تعطلت بآلة اخرى صالحة للاستعمال ، ولابد لنا من أن نهزم المركيزة بسلاحها ، فنقدم الى الملك امرأة تفوق مفاتنها مفاتن مونتسبان ..

ـ لقد فكر الأب لاشيز ، وفكرت أنا معه فى هذا الامر ، ولكننا تبينا ان تحقيقه ليس سهلا كالتفكير فيه ، فان حسان البلاط قد حاولن مرارا عدة الوصول الى قلب الملك المستهتر ، فلم تستطع اكثرهن مهارة وفتنة ان تنال الحظوة لاكثر من أيام معدودات ..

فقاطعه المدبر الأعظم : ولذلك لن أذهب أنا الى البلاط للبحث عن هذه العشيقة المطلوبة ..

وهنا دخل صاحب الخان معلنا انتهاءه من اعداد الطعام ، وسألهما عما اذا كانا يريدان تناوله فى قاعة المائدة حيث ينتظر وصول مركبة نانت ـ باريس بركابها بعد لحظة فيجتمعون معهما فى قاعة واحدة.. فأجابه دربلاى أنه لايمانع فى وجوده هو وصديقه فى غرفة واحدة مع أولئك الركاب الذين قابلهم فى الطريق .

وبعد بضع دقائق دوى رنين الأجراس ووقع حوافر الجياد وقرقعة العجلات معلنة اقتراب المركبة التى أخرها عن موعدها قطاع الطريق ..

واخيرا وصلت مركبة البريد ورابطت أمام خان « السمكة

الذهبية » ونفذ ركابها الى ردهة الخان ، وكان آخر من دخل منهم هو البطل الريفى ، الذى اضطره جرحه ان يذهب الى المطبخ أولا ليضمده بالماء والملح ..

ووقف جويل على عتبة الردهة مجيلا ببصره فى انحائها حتى اذا رأى دربلاى سار اليه رأسا وسأله :

ـ هل لك أن تخبرنى ياسيدى متى أستطيع أن أرى المدموازيل ترمبلاى ؟..

فأجابه الفارس : ان السيدة نائمة الآن طلبا للراحة .. وبوسعى أن أقرر أنها ستصبح بعد قليل قادرة على استئناف السفر ..

وقال الفتى وعلى وجهه دلائل الاعتزاز :

ـ انى اشكرك من كل قلبى يا سيدى ، وأرجوك ان تقبل اعتذارى الكلى عن .. عن .. فكرة سيئة خطرت لى ..

فابتسم الدوق ابتسامة رقيقة وقال : انا أعلم انك ظننتنى قد هربت منك مع رفيقتك فى السفر ..

فخفض جويل بصره وأردف العجوز النبيل : ولكنى أعرف أيضا أن لك عذرك من شبابك ، ولو أنه كان يكفيك بنظرة الى شعرى الأبيض أن تطرد من ذهنك تلك الافكار السوداء ..

وعاد الفتى فاعتذر مرة أخرى عن سوء ظنه بأنه قادم حديثا من الريف ، ولم تتهذب حواشيه بعد ، ثم استأذن وعاد فاشترك مع رفاقه المسافرين فى تناول الطعام ، بينما جلس دربلاى وبزلوريه يتناولان طعامهما كذلك فى صمت بليغ .

وبعد الانتهاء من الطعام ، وفيما كان دربلاى يصدر أمره باعداد مركبته للرحيل ، تقدم اليه تابعه بازان قائلا :

ـ ان المدموازيل ترمبلاى ترغب فى تقديم شكرها الى الفارس

ودخلت اوورورا فى أثره وهى لا تزال باهتة يعروها الاضطراب وتقدمت نحو دربلاى وقالت :

ـ لقد علمت يا سيدى انك على وشك الرحيل ، وما كان لى أن أتركك تذهب دون أن أشكرك من أعماق قلبى على ما أنا مدينة لك به من رعاية وعناية دون معرفة سابقة .

فنهض الدوق فى احترام لرد تحيتها وقال :انك تؤدين أضعافا مضاعفة ثمنا لما قدمته اليك من خدمة تافهة ، وأرجو مخلصا أن يكون قد زال تماما ما تشعرين به من ألم ..

ـ شكرا لله ولك يا سيدى ، كما أشكر لهذا الشاب النبيل ما قام به فى سبيل الدفاع عنى ..

وأشارت بيدها الى جويل الذى كان يقف على مقربة منهما

فهبطت عليه العبارة الاخيرة هبوط البلسم الشافى على الجرح .. واضطرب عقله وحار فى البحث عن عبارة أنيقة يجيب بها ، ولكن الله لم يفتح عليه الا بهذه الكلمات البسيطة :

ـ أنا الذي أشكرك يا سيدتى ..!

وبينما كانت أورورا تتكلم ، كان أراميس ينظر اليها باهتمام ظاهر .. حتى اذا شعرت بنظراته أحست بشيء من القلق ، فانحنت محيية وهمت بالتراجع ولكنه استوقفها قائلا :

ـ اسمحى لى يا آنسة بالاستفهام عن شيء واحد .. فان اسمك الذى سمعته الان ليس مجهولا لدى ، فهل هناك صلة قرابة بينك وبين المركيز دى ترمبلاى محافظ الباستيل السابق سلف مسيو بيزمو ؟..

ـ أنا ابنة أخيه يا سيدى ..

ـ آه .. انى اعرف هذا الرجل النبيل حق المعرفة وأذكر انه كان قد تزوج من أجنبية على ما أعتقد ..

ـ نعم يا سدى .. وهى سيدة مجرية .. وأرملة القاضي « بست » ..

ـ واذا لم يخطيء ظنى فانها جاءته بثروة طيبة كبائنة «دوطة» لزواجهما ..

فابتسمت أورورا فى مرارة وأجابت : صدقت يا سيدى .. وميراث عمى هذا هو الذى يدفعنى للسفر الى باريس ..

ـ وكيف ذلك ؟..

ـ لقد مات عمى هذا منذ ثمانية عشر شهرا دون ان يعقب ولدا ودون ان يكتب وصيته لاحد .. وكانت زوجته قد سبقته الى القبر ، وكان الواجب أن يؤول ميراث عمى الى أخى واختى والى باعتبارنا ورثته الشرعيين ، وكان أن نازعنا فيه ولدان لزوجته من زوجها الاول ، اذ هما يدعيان بأن والدتهما قد دفعت البائنة الى عمى ليستفيد منها شخصيا أثناء حياته دون ان تورث عنه .. والامر معروض الان على القضاء ، وانا مسافرة الى باريس لهذا الغرض .

فغمغم الفارس : يا لها من مهمة شاقة ! .

ـ لا حيلة لى فى هذا يا سيدى ، ولو أن الامر كان متعلقا بى وحدى ما اهتممت ولا تجشمت ما أنا بسبيله من مشاق ، ولكن هناك أخى وأختى وهما أصغر منى ، وقد مات أبوانا ولم يترك لنا الا اسما شريفا ولولا أخواى لفعلت كما تفعل بنات النبلاء الفقيرات ، وذهبت الى الدير .

ـ كيف بالله يخطر لك أن تحبسى هذا الشباب والاهاب الغض فى دير ..

فلم تلتفت الى هذا الاطراء واستطردت :

ـ ولكن لم يكن هناك من يرعى أخوى غيرى ، فحزمت أمرى وجمعت كل ما لدينا من نقود وضعتها فى كيسين ، أحدهما وهو الأصغر لحسن الحظ ، هو الذى خصصته لنفقات سفرى وقد استلبه منى قطاع الطريق ، والآخر لا يزال معى بفضل شجاعة هذا النبيل ودفاعه عنى « وأشارت الى جويل » وهو يحتوى على مصاريف المدرسة الداخلية التى تركت فيها أخوى انتظارا لنتيجة هذه القضية التى أرجو أن تنتهى لمصلحتنا ..

فقال الفارس :

ـ اننى غنى يا آنسة ، وكم يكون جميلا منك أن ..

فحدجته بنظرة براقة من عينيها الواسعتين وخفضت حاجبيها وبان الغضب على وجهها وقالت :

ـ سيدى ، أرجو ألا يكون قد جال بفكرك اننى متسولة ..

ثم تمالكت نفسها بسرعة واردفت :

ـ معذرة .. فلقد نسيت أننى مدينة لك ، ولكن الخصاصة ترهف الحس .. وان لى فى باريس لقريبة سترحب بى وتحلنى محل ولدها ولا ترفض ان تقاسمنى كل مالها عند الحاجة ..

وبدت على أراميس خلال فترة الصمت التالية مظاهر الأبوة الحنون ثم قال :

ـ سيدتى النبيلة .. أنا الذى أسأل العفو عن اهانة لم أتعمدها ، ولى العذر عن تلك بسنى التى تجعلنى منك فى منزلة الوالد .. ومع ذلك فلك أن تعتبرى هذا العرض منى كأن لم يكن .. ولكن .. لعلك لا ترفضين أيضا ما لا غضاضة فى قبوله ، وهو الاعتماد على عضد النبلاء فى قضيتك لاستخلاص حقوق أخويك الصغيرين .. فهل تعرفين أحدا من هؤلاء فى باريس ليساعدك على كسب القضية ؟..

فهزت الفتاة رأسها بحزن وقالت :

ـ وا أسفاه يا سيدى ، هذه أول مرة أذهب فيها الى باريس ولا أعرف فيها أحد مطلقا سوى قريبتى التى تعيش فى شبه عزلة وليس لى ما أعتمد عليه فى كسب القضية الا العدالة والحق والعون من الله ..

ـ أنا أيضا مثلك أحب الاعتماد على الله والحق والعدالة .. ولكنك لو كنت ذات تجارب فى الحياة لعلمت أن أحكام القضاء ليست دائما من املاء الحق والعدالة ، بل كثيرا ما ترجع الى مهارة المحامين

والوسطاء الذين يعرفون كيف يستخدمون وسائلهم .
فتنهدت الفتاة وقالت : ان الله رحيم بعباده الفقراء ..
ـ حسـنا يا ابنتى .. اذ خطر لك يوما أن تلتجئى الى .. واعوزتك الظروف الى خدماتى .. فثقى أنى أكون سعيدا بذلك. وانتهز هذه الفرصة لأقدم اليك صديقى مسيو بزلوريه من رجال البلاط ، ولا أشك فى أنه يشاطرنى السرور بخدمتك ..
فقال بزلوريه : نعم ، انه ليسرنى حقـا أن أقوم بأى خـدمة للآنسـة ..
وعند ذلك تقدم صاحب الخان معلنا وقوف مركبـة الفارس فى انتظار تشريفه ..
وجاء من خلفه السائق باكدرو مناديا ركابه ليأخذوا مقاعدهم فى المركبة استعدادا للرحيل ..
فانحنى الفارس وانحنى بزلوريه بتحية الوداع وقال الاول :
ـ أرجو أن أراك فى فرصـة أخرى يا ابنتى وأملى الا تقولى بعد الآن انك بغير أصدقاء ، ويا حبذا هذا اليوم الذى يستطيع فيه هؤلاء الاصدقاء أن يؤدوا لك أى خدمة ..
ثم نشطت حركة مبارحة الخان الى المركبتين الواقفتين ببابه .. وانتهز جويل هذه الفرصة ليقترب من اورورا التى بسطت له كلتا يديها ، ولكنها لم تكد ترى الجرح فى جبهته حتى هتفت :
ـ أمجروح أنت ؟.. انك قد أصبت بغير شك بالطلقـة التى كانت موجهة الى أنا فألقيت بنفسك بينى وبينها لتنقـذنى .. وهأنذا لم أتقدم للسؤال عن جرحك حتى الآن .. ولكن لا تغضب يا صديقى ، فلن نفترق بعد ، وما زالت أمامنا فرصة لأزعجك طول رحلتنا بالتعبير لك عن شكرى .
وفى الوقت نفسه كان دربلاى يضع قدمه على مواطىء مركبته وهو مستند الى ذراع صديقه ، فسأله قائلا :
ـ ما رأيك فى هذه الفتاة ؟..
فأجاب الآخر وهو يلتفت ليلقى عليها نظرة أخرى وهى تصعد الى مركبتها بمساعدة جويل : هى جميلة حقا ..!
فلمعت عينا أراميس ببريق خاطف وغمغم : انها لجديرة بأن تنحنى لها الهامات كما تنحنى للنجم الصاعد الى السماء ، وكما ستنحنى لها هامات رجال البلاط وسيداته قبل مضى وقت طويل .. فان هذه الريفية النبيلة الساذجة لا مثيل لها فى باريس ، وهى المرأة التى أراها أجدر من سواهـا بأن تخلف مونتسبان وتحقق لنا أغراضنا ..

الفصل الثالث

نعود الآن فى لمحة خاطفة الى العصر الذى كان فيه فوكيه وزيرا للمالية وهو فى قمة مجده ، حين اشترى من أسرة « ريترز » تلك الجزيرة المربعة « بل ــ ايل » التى يبلغ طولها ستة فراسخ وعرضها مثل ذلك .. وما كادت تؤول اليه ملكيتها حتى أوفد اليها صديقهالفارس أراميس ليتولى تحصينها بحيثيجعلها منيعة عزيزة الجانب على الغزاة والقرصان ، كما كانت عادة أهل الثراء والمروءة من رجال العصور الوسطى ..

وكان أراميس قد اختار من بين أصدقائه الفرسان الثلاثة ذلك الفارس العملاق الطيب القلب ، بورتوس ، واقتسما العمل فيما بينهما ، الأول يهيىء الجنود من أهل تلك الجزيرة الريفيين ويدربهم ، والثانى يشرف على اقامة الاستحكامات بما تتطلبه من نقل صخور عظيمة من مواضعها ، وهو عمل يستطيع بورتوس أن يبرز فيه لما له من قوة هرقلية ، ومن ثم اشتهر أمره بين أهالى الجزيرة اللذين اطلقوا عليه لقب « الباشمهندس » .

وجعل بورتوس يذرع الجزيرة ويرتاد شواطئها وهو موضع الاعجاب من أهلها أينما سار .. الى أن اتفق يوما ان كان مارا بالقرب من أحد الحقول واذا بصيحة نسائية مدوية تدل على الضيق .. وتلتمس الغوث .. فانطلق بورتوس صوب مصدر الصوت فوجد ستة من البحارة سكارى وبينهم فتاة يريدون الا أن يحملوها على مشاركتهم فى الشراب وهى ترفض بشدة ، فانقض عليهم بورتوس وألقاهم صرعى ببضع لكمات من ساعديه الحديديين ، ورافق الفتاة العائدة من الحقل الى دارها دون أن يخطر لأحد من هؤلاء السكارى أن يلاحق الفتاة بمضايقاته .

ولم يكن بورتوس من شبان باريس الذين يجيدون معاكسة السيدات .. فراح يجاذبها الحديث بمثل صراحتها الريفية وبدأ بأن ذكر لها اسمه ومركزه فى الحياة الاجتماعية ، فقال لها انه بارون فى الوقت الحاضر.. ولكنه يؤمل أن يحظى قريبا بتناول الطعام على مائدة الملك .. وانه ينتظر بعد ذلك أن ينعم عليه برتبة دوق ..

وكان البارون دى فالون .. اى بورتوس .. أعزب كما يعرف قراء قصص الفرسان والرجل ذو القناع الحديدى .. فلم تجد الفتاة الريفية الساذجة مانعا من أن تبادله الحب .. وخاصة بعد ما شهدت من قوته التى تجعله يلعب بالرجال كالدمى ..

بل وكانت كورنتين ليبرن ، وهو اسم الفتاة ، فى حاجة حتى

الى من هو أقل شأنا وقوة من بورتوس ، فهى أجمل فتاة فى الجزيرة وقد مات أبواها منذ عام تقريبا ، بعد أن سبقته أمها الى القبر ، ولم يكن لها من يعنى بأمرها من بعدهما الا قسيس الجزيرة .. ولعل مما زاد فى حرج هذه الفتاة الجميلة اليتيمة أن أباها ترك لها حقلا خصبا يدر عليها من الاخلاف ما يثير مطامع الشبان وأطماحهم ، فكانوا يلتفون حولها عند ما تذهب الى السوق لتبيع ما يفيض على حاجتها من نتاج حقلها وحظيرتها ويصطفون لها وهى خارجة من الكنيسة يوم الاحد ، ليستجلوا طلعتها وخاصة لانها كانت ترتدى فى هذا اليوم أفخر ثيابها وتنتعل حذاءها ذا الطوق « توكة » الفضى ..

ولكنها لم تكن تحفل بأحد من أولئك الشبان كما لم تعن بأن تختار لها من بينهم خطيبا ، فهى قد نشأت فى بيئة ريفية بعيدة عن الاختلاط الجنسى ، وكانت هذه العوامل ايضا مما شجع كورنتين على مبادلة بورتوس الحب ، بل ذلك الحب النقى الذى لم يلبث حتى تحول الى عبادة مما جعل هذا البطل الفازى .. رغم ثرثرته وانطلاق لسانه شأن الناس الطيبين ، يكتم سر معرفته اياها وعلاقته بها عن أراميس .

وعند ما افترقا ، بعد ان انتهى هو وصديقه من مهمة تحصين الجزيرة ، وعدها بورتوس بأنه سيعود ثانية اليها .. ولكن قراء رواية « الرجل ذو القناع الحديدى » يذكرون كيف أن بورتوس عاد الى الجزيرة بصحبة أراميس فارين من انتقام الملك لويس الرابع عشر ، وكيف أنهما ما كادا يهبطان الى الجزيرة حتى أرسل اليهما الملك اسطولا وجيشا عظيما ، فدبر اراميس امر فرارهما بواسطة كهف ما لبث الجنود حتى هاجموهما فيه ، فوقف بورتوس مختفيا فى ظلمة الكهف وكأنه ملاك الموت لا يكاد جندى يدنو منه حتى يخطف روحه ، وتمكن بورتوس خلال التشاور بين الامدادات القادمة للجنود من أن يفتح ثغرة فى آخر الكهف تؤدى الى البحر ، أخرج منها أراميس زورقه بينما وقف بورتوس ليلقى برميل البارود على نحو ثمانين من الجنود الذين اقتحموا الكهف وبذلك يكون هذا البطل قد قتل وحده نحو مائة وعشرة جنود ! ولكنه عندما عاد أدراجه مسرعا .. وانفذ قدما من خلال الثغرة ليلحق بزميله أراميس ، اذا بالصخور تنهال فوقه من أثر قوة انفجار برميل البارود ، فكانت هذه الخطوة هى نهاية بورتوس الذى دفن حيا بين تلك الصخور التى شاد له الله منها قبرا على مقاسه ..

فى تلك الاثناء كانت كورنتين توشك أن تصبح أما ، فبادرت بالذهاب الى قريبة لها تقيم فى احدى القرى الواقعة على مصب نهر اللوار حيث وضعت طفلا ذكرا

وبعد ان استتب الامر فى الجزيرة للملك ، عادت الفتاة من مهجرها ولكن بعد أن فقدت ابتسامتها الفتية ، وأصبحت وجنتاها باهتتين ، وتعلمت عيناها البكاء . بيد أنها كانت رغم ذلك تشعر بالسعادة حين تلقى نظرة وهى فى يأسها على طفلها جويل ، فترى فى وجهه صورة أبيه

وكذلك أحبت كورنتين طفلها الى درجة العبادة ، ولم تعبأ فى سبيل العناية به بما كانت تلقاه من أهل لوكماريا — وهو اسم المنطقة التى تقطنها فى (بل — ايل) — من نظرات الاحتقار والتهامس بالازدراء ممن كن يحسدنها من الفتيات الفقيرات والدميمات ، وممن كانوا يفشلون فى محاولة لفت نظرها من الشبان

غير ان قسيس الجزيرة لم يمالىء اهل ابرشيته فى نبذ الفتاة ، بل راح الاب « كرافيل » يواسى الام الخاطئة ويهون من زلتها حتى لقد رضى عن طيب خاطر أن يشرف على تعليم جويل بنفسه ، فعلمه القراءة والحساب وقليلا من اللاتينية وهو لا يزال يجرى ويلعب ويسابق الارانب ويتسلق الاشجار ليداعب صغار الطير فى أوكارها

وما أن بلغ جويل السادسة من عمره حتى كان يلوح عليه كأنه فى العاشرة ، فلم يجد الاب الرفيق كرافيل بدا من البدء بتدريبه على حمل السلاح واستعماله ، فجاءه أول الامر ببندقية صغيرة للصيد ، ثم ما لبث أن وضع فى يده خنجرا صغيرا توسل به الى تلقينه فنون القتال بالسيف والشيش . ولم تبخل عليه والدته الغنية بثمن جواد يمتطى صهوته ويطلق العنان له كل يوم أكثر من اليوم الذى قبله حتى أصبح يسابق به كلاب الصيد المختارة التى جاءت بها أيضا .

واستمرت عبادة الام لطفلها الهرقل ، كما راح هو يجزيها حبا واحتراما عميقين ، وعاش الابن حينا من الدهر ينعم بتلك السعادة ، ولا يجرؤ حتى على سؤال أمه عمن عساه يكون أبوه ، مخافة أن يحزنها بذكراه

ولكن هذه السعادة لم تدم طويلا ، فسرعان ما انقلبت أفراح هذين البريئين اتراحا .. بسبب هذا الحادث الذى سنرويه فيما يلى :

كان فى الجزيرة متسول عجوز سكير ، وكان جويل يعطف

عليه فى بعض الاحيان ويصحبه معه فى رحلات القنص ليحمل له صيده لقاء ما يجود عليه به من مال كانت قد خصصته له أمه الثرية للاحسان

وذات يوم اجتمع بالمتسول العجوز شاب متعجرف من أبناء النبلاء فى الجزيرة ، وسقاه خمرا .. حتى اذا ثمل ، البه على جويل .. ووعده بعطاء جزيل اذا هو سبه على مسمع منه ومن رفاقه العربيدين ، الذين اجتمعوا فى حانة على طريق عودة الشاب من احدى نزهاته الرياضية .

وباع المتسول نفسه للشـيطان ، ولم يكد جويل يهـل على هؤلاء الثملين حتى ارتفعت عقيرة المتسول المخمور بأقذع أنواع السباب ، معيرا الفتى السعيد بأنه لا يعرف أباه .

وأراد جويل أن يمر على هذا اللغو مر الكرام ولاسيما وهو صادر من متسول تأبى قوانين المجتمع منازلته ، ولكن الشـاب المتعجرف أبى الا أن يندفع وراء شيطانه .. وزاد فى تحرشـه بالشاب .. وهو يرسل بين الفيـنة والفيـنة ضحكات فاجرة مدوية ، لم يستطع جويل ازاءها الا أن يتقدم اليه طالبا تحـديد موعد للمبارزة

فأجاب الشاب المغرور : اننى لا أستطيع أن أبارز شـخصا دونى ، فاذهب وآتنى بما يثبت انك نبيـل وأهل لامتشـاق الحسام ، وحينئذ نلتقى على قبر المارد

وناصر الموجودون رفيقهم المتعجرف ، ولم يسع جويل الا أن ينزل على رأى الجماعة ، وخاصة لانه متفق مع قواعد المبارزة التى تقضى بألا تجرى الا بين نبيل ونبيل

وانطلق جويل فى طريقه على غير هدى ، وويل لمن كان يعترض عدوه المجنون فى تلك اللحظة

وقادته قدماه دون أن يدرى الى تلك البقعة من الشـاطىء التى اختارها الشاب النبيل مكانا للمبارزة

وكان قبر المارد المشيد فى الصـخور قد نمت عليه وحوله الاعشاب التى لم تطأها الاقدام بسبب ما كان يتناقله اهل الجزيرة من الاساطير المتعة عن هذا القبر الذى كان يضم جسد بورتوس ، وتحيط به الصخور الاخرى السوداء والزرقاء من أثر انفجار برميل البارود بينها .

ومعذورون أهل الجزيرة فيما كانوا يؤمنون به من اساطير حول هذا القبر ، فان الشاهد الوحيد لمصرع البطل بورتوس هو

اراميس ، اذ لم يخرج جندى واحد من الكهف ليقص على الناس نبأ برميل البارود الذى دكه وزعزع صخوره

ومعذور جويل اذا جهل أن أباه النبيل لم يكن الا ذلك المارد الذى يحتويه هذا القبر الصخرى ، فان أمه كورنتين نفسها كانت تجهل هذه الحقيقة

وكانت الشمس لم تغب بعد حين جلس جويل على احدى الصخور القريبة من قبر أبيه وهو يحدق فيما حوله بنظرات ذاهلة ولا يكاد يفكر فى شىء الا انه يجب عليه ان يقتل الذى سخر منه وأهان أمه . واعتدى على ذكرى أبيه التى كان يجلها ويقدسها رغم جهله الناشىء من احترامه لامه احتراما يحول دون اقدامه على القاء السؤال الرهيب عليها بعد أن سمع من المتسول ما سمع .

وكان كل شىء حوله ساكنا هادئا لا يشوبه غير دبيب الحشرات والهوام وحفيف أجنحة الطيور المحلقة وداعا لنور النهار الموشك أن يذهب . وفيما هو ناظر فى ذهول يشبه الغيبوبة صوب قبر المارد ، اذا به يرى شبحا فى هيئة حربية ، وقد لاح عليه مظهر الغزاة الفاتحين ، جعل ينظر الى جويل بعينيه الواسعتين نظرة ملؤها الاسف ، ثم مد يده فى نبل وسحب سيفه الطويل من غمده الموشى بالذهب ، ثم وضعه فى رفق فوق صخرة تبعد نحو عشرين قدما من مكان جويل . ثم بدأ يتلاشى حتى استحال الى شبه سحابة تاهت وسط ضباب الغروب الذى بدت طلائعه

وكأنما عز على جويل أن تنقضى هذه الرؤيا سريعا .. فهب واقفا على قدميه وهتف بصوت حبيس : « أوه ! قف يا أبى ! . انتظر » .. ولكنه لم يكد يصل الى الصخرة حتى كان كل شىء قد انمحى ، ولم يجد سلاحا من أى نوع فوقها ، بل كان الذى وجده فرع شجرة جافا . وهو الذى خيل اليه أنه رمح طويل !

وعلى الرغم من ذلك . ظل جويل محملقا نحو الموضع الذى توارى فيه الشبح . وقد انطبعت صورة هذا الشبح فى مخيلته بما كان فوق رأسه من قبعة تعلوها ريشات عالية مزق الرصاص أطراف بعضها

ولم يتلق جوابا على ندائه الا صياح الطيور البحرية المرفرفة على مقربة منه ..

وفيما هو واقف مستغرق فى ذهوله وشروده . اذا به يشعر

بوخز شيء مدبب فى قدمه ، فرفعها ونظر تحتها فرأى شيئا لامعا قد تناثر الصدأ بين لمعانه . فتناول فرع الشجرة الجاف وحفر به حول هذا الشيء اللامع المدبب فوجده سيفا ، وأمكنه أن يدرك من طول هذا السيف وثقله انه لا يمكن الا ان يكون سيف مارد كالذى روت الاساطير أن عظامه مدفونة تحت تلك الصخرة

ولثم جويل السيف باحترام وناجى نفسه : هذا هدية أبى ، واننى أقبل هذه الهدية ، وأقسم بشرف هذا السيف اننى لن أستخدمه الا فيما يوافق عليه أبى ، واننى لن أرده الى غمده الا بعد أن أنتقم له ممن أهان ذكراه

وعاد الى منزله ودخله وهو لا يزال باهت الوجه متجهم الاسارير .. وعيناه يتطاير منهما الشرر .. ولم يكن قد سبق لوالدته أن رأته على تلك الحال ، فاستقبلته هاتفة :

ـ يا للسماء ماذا حدث ؟

فأجاب جويل بصوت عميق مضطرب : لقد أهنت ، وسأبارز الذى تحدانى عندما استطيع أن أذكر له اسم أبى وأثبت اننى أهل لحمل السيف وتجريده ، وهذا السيف ، سيفه كما ترين ، وهو الذى أعطانيه

وراح يقص على امه قصة حلم اليقظة الذى رآه وهو جالس على صخرة بالقرب من القبر ..

وقد فر لون كورنتين حين وقعت عيناها على السيف اذ لم تكن قد نسيت بعد أن هذا السيف هو بعينه سيف حبيبها العملاق . فترنحت ، وضغطت بيدها على صدرها كما لو كان السيف قد اخترق قلبها

وكان جويل يحب أمه ويحترمها كما كان لا يستطيع أن يحب ويحترم قديسا . فما أن رأى ما تعانيه المسكينة حتى ركع أمامها على ركبته وسألها فى لهفة :

ـ أماه ! .. ماذا حدث ؟ .. هل اسأت اليك يا أمى ؟ .. وهل سبقت لك رؤية هذا السيف ؟؟

فأجابت فى هدوء وقد حبست دموعها : نعم ، وستعلم الآن ما لا ينبغى أن تظل جاهله ، فانى قابلت أولا ...

فوضع يده على فمها ليمنعها من الاسترسال وقال

ـ كلا ، بل ستلزمين الصمت ، فانى لا أريد أن أعرف شيئا ، ولن أتبارز مع غريمى المغرور ، ولكنى سأضربه وعصبته بهراوة

ضربا مبرحا الموت لهم خير منه ، ولكنى ارجوك يا أماه الا تتكلمى الا اذا شئت أن تنطقى بالعفو عما سببته لك من ألم

ومن تلك اللحظة بدأ التحول فى حياة الام وابنها . فقد ازداد عبوسها وتضاءل نشاطها ، وتركت له أمر العناية بالحقل ، وقبعت هى فى غرفتها لا تبرحها ، وكثيرا ما كانت تناجى نفسها وهى فى ذهولها قائلة : « هانذا قد نلت جزائى من يد ابنى »

وكذلك تحول جويل فصار لا يرى الا بهيئة جدية وهو يطيل التفكير والتأمل ، ولم ينتقم لا بالسيف ولا بالهراوة من الشاب النبيل الذى أهانه ولا من غيره لان احدا لم يجرؤ على تكرار معابة أبويه على مسمع منه لما كان يبدو فى نظراته من تهديد حين يرتاب فيما تتحرك به شفتا أى شخص فى الجزيرة

ووقعت كورنتين أخيرا فريسة المرض ، ولازمت فراشها أياما بطولها وجويل ساهر على خدمتها ولا يكاد يبرح غرفتها الا ليلبى لها طلبا او ليصدر امرا سريعا الى عمال الحقل

وذات يوم دعته للجلوس بجانب سريرها وغمغمت قائلة :

— اننى لا أتألم عندما تكون بجانبى ، فلا يساورك القلق والاضطراب من أجلى ، ونحن اذا افترقنا قريبا فانما نفترق الى لقاء . ذلك بأنى أرجو ان يغفر الله لى زلتى ويهبنى مكانا فى السماء لاصلى لك وأدعوه سبحانه أن يوفقك ويساعدك فى المهمة التى سأعهد بها اليك .. لقد أكد لى أبوك ، والرجل النبيل .. لا يكذب المرأة التى يحبها ، انه لم يحب امرأة غيرى ، وانه لم يكن له من يرث ثروته ولقبه وشهرته ، فيجب عليك أنت يا بنى أن تقيم الدليل على أن روح ابيك قد انتقلت اليك لتحيا فى جسدك ثم عليك ان تبحث لتعرف ماذا كان يشغل فى هذه الدنيا التى أعتقد انه لم يعد من أهلها ، وهذا هو السبب فى أننى كشفت لك عن سر حياتى الذى أفقدنى مكانتى بين جيراننا ورمانى بهذا الحزن القاتل .. نعم ، انالواجب يقضى على بأن أحيطك علما بخطيئتى ..

فقاطعها جويل فى رفق وحنان : أماه ، أكرر لك اننى لا أريد أن أعرف شيئا، فلا تحدثينىعن شىء اللهمالا يكون حديثكمؤكدا لى أن هذا ليس الوداع الأخير .

فشكرته بنظرة مفعمة بالحب وقالت : شكرا لك يابنى ، فأنك لم تحاول منذ ذلك الحادث المشؤوم سؤالى عن أى شىء وان الله سبحانه ليبارك الابن الذى يعامل أمه باحترام . ولكن

هذا لم يمنعك من البحث لمعرفة نفسك من يوم مولدك كما اخبرني بذلك الاب كرافيل وانت لا يسعك ان تنكر ذلك لانك لا تستطيع أن تكذب .

فرفع جويل رأسه فى كبرياء واستطردت أمه : هاأنذا اسمع خطوات الاب المحترم اذ هو قادم الينا .. اننى حدثته بكل شيء وستجده يا بنى موافقا على ما أريدك أن تفعله

ثم توقفت عن الكلام لتنصت الى صوت لم تتبينه أذناه ، ولكن لم يطل بها الامر ، فقد رفعت عينيها والقت على ولدها نظرة الوداع حاملة فى ثنايا اقصى ما تتمناه الام المحتضرة وهى تجود بأنفاسها الاخيرة ، وارتفع من خارج الغرفة صوت رنين الجرس الذى يحمله الراهب وقد جاء بعد أن انتهى كل شيء

وبعد أن أدى القسيس مراسيمه تحادث مع جويل فأبلغه موافقته التامة على النهوض بتنفيذ وصية أمه ، وفى اليوم التالى سلمه اعترافا مكتوبا بخطها ضمنته كل ما تعرفه عن أبيه ليساعده فى الاستدلال عليه وأرفقت باعترافها صورة رسمتها بيدها المضطربة من ذاكرتها التى ظلت حتى الموت محتفظة بهيئة أبى ابنها

ولم يطق جويل صبرا على الاقامة بعد اذ علم من الاعتراف المكتوب أن البحث عن أبيه انما يكون فى باريس ، فباع الحقل وذهب الى الاب كرافيل وقال :

ــ أسألك يا أبتى أن تذكرنى فى صلواتك حيث انى منطلق الى باريس لتنفيذ وصية أمى .

فأجابه القسيس :

ــ اذهب يا بنى رافقتك السلامة ، فانى واثق انك فتى جدير بالنجاح رغم ما ستصادفه فى طريقك من متاعب .. ومما يزيد فى طمأنينتى انى أراك تحمل السيف الذى كان يحمله « الباشمهندس » .. وقد انتهى الى أخيرا ان « الباشمهندس » لم يكن سوى البطل بورتوس الذى وقف وحده فى وجه جنود الملك .

ثم سرد عليه القس قصة الكهف كما وقعت ، وكان نبؤها قد ترامى اليه فى الايام الاخيرة .

وما أن فرغ منها حتى تناول السيف من يد جويل وراح يقلبه بين كفيه .. واذا به يجد العبارة التالية منقوشة فى مكان مستور من مقبضه وهى « الفرد للمجموع ، والمجموع للفرد » .

ثم أعاد السيف الى جويل وهو يقول :
ـ هذا شعار حسن .. واذكر انى رأيت على سيف آخر شعارا جاء فيه : « لا تشحذنى بلا سبب ، ولا تعدنى الى غمدى بلا شرف » .. فاوصيك يا بنى أن تضع هذين الشعارين نصب عينيك ، ولا تنس أن تباشر دائما التمرينات التى علمتك اياها ، فان الكمال ليس له حد ولا غاية .

الفصل الرابع

تلك هى القصة التى أفضى بها بطلنا الى المدموازيل دى ترمبلاى والمركبة سائرة بهما وبرفاقهما الى باريس وقد ختمها بقوله :
ـ ان البلاط موجود فى باريس أو فى جوارها ، والمكان الذى يجتمع فيه النبلاء هو البلاط ، وما دام قد ثبت لى أن أبى كان نبيلا ، فسأعرف من هناك اذا كان لا يزال حيا .. أو يخبرنى أصدقاؤه عن مكانه ومصيره ، وقد عرفت من أسماء هؤلاء الاصدقاء .. اتوس ، وأراميس ، ودارتانيان .. أما أبى فاسمه بورتوس ..
فهزت اورورا رأسها وقالت :
ـ انها أسماء عجيبة حقا ، ولابد انها مستعارة للشهرة ، ومن ثم كان أمامك سر غامض أتمنى لك النجاح فى استجلائه .
وهكذا قضيا يومهما فى هذا الحديث الخاص وتوثقت بينهما الالفة .. حتى اذا جن الليل نامت فى ركن العربة وسهر هو على حراستها ولم تستيقظ هى من غفوتها حتى بزغت شمس اليوم التالى ففتحت عينيها ووجدت جويل رابضا أمامها كالكلب الامين وعيناه لا تتحولان عنها ، فتلونت وجنتاها بلون الورد وقالت :
ـ أو هكذا كنت تحملق فى وجهى وأنا نائمة يا جويل ؟ .

فاستحيا هو بدوره ولم يحر جوابا ، ورفع يده الى جبينه ليستجمع شتاته ، فقلقل الضماد عن الجرح ، وحينئذ تحول بتفكيره ليستنبط عذرا كى يخلو الى نفسه ويصلح الضماد .. ولكن اورورا أدركت ما يجول بخاطره فعرضت عليه أن تساعده على ذلك ، ولم تنتظر رده بالموافقة بل بادرت بحل الضماد وربطه من جديد ..
وقرأت فى عينيه مرة اخرى حيرته فى البحث عن عبارة يشكرها بها فقالت : اننى لا أفعل غير الاوجب ، فان هذا الجرح

قد اصابك بسببى ، والحمد لله أن جاءت الاصابة خفيفة ، وقد كان يمكن أن تكون خطيرة فى مثل هذا الموضع .

فتمتم الفتي : كم كان يسرنى لو أرقت دمى كله من أجلك .

وأجابت اورورا باسمة : انك تتألم كثيرا من أجلى ..

وكانت الفتاة قد انتهت من اصلاح الضماد والمركبة سائرة على مرتفعات سان كلو ، فأشار السائق باكدرو بسوطه الى برجي كنيسة نوتردام اللتين كانت تنعكس عليهما اشعة الشمس الذهبية الغاربة ..

وبعد هنيهة دخلت المركبة مدينة باريس ورابطت فى موقف عربات البريد المعروف الان باسم بوابة سانت اونور ، وسارع الركاب الى فتح بابها هابطين منها وهم يتنفسون الصعداء ، ويرسلون تنهدات الارتياح ..

وتقدمت خادم عجوز الى باب المركبة وهتف :

ـ مدموازيل دى ترمبلاى .. ألم تأت معكم ؟ .

فهرولت اليها الفتاة وهى تجيب :

ـ هـأنذا ..

انحنت الخادم وقالت :

ـ لقد أرسلتنى خالتك سيدتى الارملة دى لاباستبير لمقابلتك ومرافقتك الى منزلها ..

ـ هلمى بنا اذن ..

ثم التفتت الى زميلها البريتونى الذى هبط من المركبة فى أثرها وقالت :

ـ لقد حان وقت افتراقنا ..

فاضطرب ظهرا لبطن ولم يستطع النطق بكلمة ..

واستطردت وهى تبسط يدها اليه :

ـ أتمنى لك حظا سعيدا وأرجو أن نلتقى مرة أخرى .

فشعر جويل كأن الحياة تعود اليه وهو يستمع الى عبارتها الاخيرة وهتف :

ـ هل نلتقى مرة أخري حقا ؟ .

فأجابت بنبرات حلوة مفعمة بالايمان :

ـ بكل تأكيد ، فان الجبال وحدها هى التى لا تلتقى ، واننى اكاد أكون مطمئنة الى لقائنا .

وكان من أثر ما تلقنه جويل من استاذه قس لوكماريا أن يكون جوابه سريعا وناجعا .. فقال :

ـ ولكن .. كيف ومتى واين ؟.
فأجابت اورورا فى وقار :
ـ ان خالتى التى سأنزل فى بيتها تقيم فى شارع تورنيل على مقربة من السراى الملكية ، وسأذهب انا كل مســاء للصــلاة فى كنيسة سان بول ..
وفيما كانا هذان الشابان البريئان يتفقان على موعد مقابلتهما الثانية كان رجلان ملتفان فى عباءتين ، وقبعاتهما مسبلتان فوق أعينهما ، واقفين مختفيين تحت مظلة فوق واجهة حانوت مقابل

وعندما اتخذت الفتاة والخادم العجوز طريقهما صوب بوابة ســان اونور ، مال أحــد الرجلين على الاخر وهمس فى اذنــه بالاسبانية :
ـ هل لاحظت هاتين المرأتين ؟ .
ـ نعم يا سيدى الدوق ..
ـ اتبعهما اذن ، وحذار من أن تدعهما يشعران بأن هناك من يتبعهما ..
ـ فهمت يا سيدى ..
ـ وجئنى باسم الشارع ووصف المنزل الذى سيدخلانه .
ـ سمعا وطاعة يا سيدى الدوق ..
وانطلق تابع الدوق دالميدا فى أثر المرأتين بخفة وحذر يستدل منهما على أن هذه المهمة ليست بالجديدة عليه .

الفصل الخامس

فى اليوم الذى وصــلت فيه مركبة نانت الى باريس ، وقف أمام منزل فى وسط شارع « بولوا » ثلاث سيدات غطين رءوسهن ووجوههن بنسيج من الموسلين وارتدين ثيــابا من ثيــاب أهــل الطبقة الوسطى .
وكان المنزل الذى وقفت أمامه هاته النسوة يوحى منظــره بالاسرار ، وقد اشتهر بأنه مأوى وارثة ، وقال بعضهم انها ابنة المرأة لافوازان التى نفذ فيها حكم الاعدام لثبوت تهمة الاتجــار بالسموم عليها ، وكانت تباشر هذه التجارة الفتاكة تحت ستار التنجم والعرافة ..

ولكن ابنة لافوازان تعلمت من الحكم الذى نفذ فى أمهــا ألا تتاجر فى شيء من المســاحيق أو العقــاقير التى تجلب البــدانة للنحيفات أو النحافة للبدينات أو التى تؤثر على قلوب الجامدى

العواطف فتحيلها ملتهبة بنيران الحب والغرام . وانما اقتصرت ابنة لافوازان على ممارسة كشف الطالع والتنبؤ بالمستقبل فقد كان الاعتقاد بتلك الامور سائدا فى هذا العصر ، حتى لقد قيل أن الملكة وشقيق الملك كانا كثيرا ما يلجآن الى أهل الدجل عندما يحز بهما أمر ويريدان أن يستمعا الى ما يهوله عليهما هونا ما .

ولم تكد احدى هاته السيدات تطرق الباب حتى فتحه غلام أسود عليه ثياب شرقية ، ثم قاد السيدات الثلاث فى صمت الى غرفة استقبال واسعة فى الطابق الارضى غصت بالمقاعد واشار لهن بالجلوس ..

وجلست السيدات الثلاث وقد رأى على كل منهن شعور مخالف لشعور الاخرى ، فأولاهن كانت ترتعد من شدة الخوف ، وراحت الثانية تضحك ، بينما جعلت الثالثة تدور ببصرها كما يفعل من يريد أن يلاحظ ويستنتج .

أما الاولى المذعورة ، فقد كانت تبدو صغيرة السن ، بضة البشرة ، تميل قليلا الى البدانة ، ذات شعر كستنائى ، وعينين تشعان بالحياة ، وفم ساخر .. بيد أن هذه ليست بذات أهمية كما هو الحال مع الحسناء الضاحكة التى كانت حركاتها وايماءاتها وقامتها المرفوعة وأنفها الشامخ ـ كل ذلك كان يتعارض تعارضا تاما مع اعتدال ثيابها ـ وكان يبدو عليها انها فى منتصف العمر ، حية الجاذبية ، وهى ذات شعر غزير يميل لونه الى الحمرة ، وعلى الرغم من ضحكها فان آثار القلق كانت بادية عليها .

أما الزائرة الثالثة ، فقد كانت تصبح أكثر جاذبية وفتنة لو لم تتخذ لنفسها مظهر التفكير والتأمل ، فان وجهها وان لم يكن جميلا فانه مليح القسمات فى هدوء واتزان بحيث أن من يراها مرة لا يمكن أن ينساها ..

وعلى حين فجأت فتح باب من داخل غرفة الاستقبال وبرزت منه العرافة التى لم يكن أحد من زائريها يستطيع تكوين أى فكرة من حقيقة سنها ، لانها كانت تستقبلهم فى ثوب بسيط أسود موشى ، وعلى رأسها وفوق وجهها قناع فيه ثقبان لعينيها اللتين كانتا تشعان ببريق الشباب .

ووقفت هنيهة تتأمل السيدات الثلاث اللائى وقفن لدى دنوها منهن وقالت :

ـ كيف حالكن أيتها السيدات ..

ثم استطردت بعد صمت قصير :

ـ اننى أحيى فيكن الحسب والنسب والجمال والمكانة الرفيعة .. احيى فيكن الحظ الذى سيهبط على واحدة منكن فيجعلها ملكة ..

فتقدمت الحسناء الطويلة خطوة صوب العرافة وهتفت :

ـ ملكة ! . هل أصبح ملكة حقا ؟ ! .

ولم تتزحزح العرافة من موقفها اذ أجابت :

ـ اأنت التى تريدين ان تتقدمى اولا للسؤال عما ينتظرك من حظ ؟ .

ـ نعم .. اذا لم يكن لديك مانع .

ـ وأى مانع يقف حائلا دون رغبتك ما دامت مكانتك تخول لك حق التقدم على سائر بنات جنسك ! . اتبعينى اذن الى الغرفة الخاصة التى اعتدت أن أستقبل فيها الاشخاص الذين فى مثل منزلتك ..

وقادتها الى غرفة محجوبة بستار ليس فيها الا مقعدان كبيران حول منضدة فوقها مجموعة من ورق اللعب وقليل من « الودع »، ودعتها الى الجلوس قائلة :

ـ شرفينى يا سيدتى المركيزة بالجلوس فى هذا المقعد .

فسألتها الاخرى فى دهشة :

ـ وكيف استطعت معرفت لقبى ؟ .

ـ اعرفه كما أعرف اسم الزائرة العظيمة النافذة الكلمة ، السيدة اثيناى شاران مدام دى مونتسبان .

فهتفت الاخرى :

ـ خفضى صوتك . فان للجدران آذانا ، وأنت لا تجهلين بغير شك مدى الضرر الذى يلحق بى اذا عرف الناس بمجيئى لاستشارة ابنة لافوازان .

فتمتمت الساحرة :

ـ لا بأس ، سأناديك اذن بالعبقرية ، كما ينادونك فى بيئتك ، وأرجوك الان أن ترينى كفك ..

فظهر الارتياح على وجه المركيزة ومدت يدها فتناولتها العرافة وأنشأت تقول :

ـ نعم .. هى يد نبيلة وذات بأس شديد ،ولكنها جميلة ومحترمة فى الوقت نفسه .. وهى كذلك رقيقة وأكبر قليلا من المعتاد ، مما يدل على الحزم والصرامة والمقدرة على اتيان الاعمال

التى تحتاج الى جراة .. ويظهر من الخطوط اليمنى انك مولودة فى عام ١٦٤١ وبذلك بكونين الان فى السابعة والثلاثين من العمر .

ــ دعينا من هذا ..

ــ والسيدة تنحدر من أسرة اشتهر أفرادها برجاحة العقل وحدة الذهن .. وقد بدأت حياتك وصيفة للملكة ، ثم تزوجت فى عام ١٦٦٣ على ما أعتقد ، ولكن زوجك لم يلبث أن تخلى عنك .. حتى انه لاحق لاولاده أن يحملوا اسمه .

فقاطعتها المركيزة دى مونتسبان بصبر نافد :

ــ اننى لم اسألك أيتها المرأة العزيزة أن تحدثينى بما أعلمه اكثر منك .. وانما أريد أن أعرف اذا ما كنت سأصبح ملكة فرنسا ..

فرفعت المتنبئة عينيها صوب السماء كأنما لتستشير قوة أعلى .. ثم أجابت :

ــ ألا انك الآن لمتمتعة بما تصبو اليه نفسك .

وقطبت المركيزة جبينها وغمغمت :

ــ لكن لم تزل هناك عقبة .

ــ ستزول هذه العقبة .

ــ ماذا ؟ . الملكة ماريا تريزا .

ــ أيامها معدودة .. والموت ينتظرها .

ومشقت الورق وهى تتكلم ثم القت ورقة على المنضدة وجهها الى أعلا .. فاذا هى السبعة « البستونى » وقالت : « وستعيش من السنين بقدر ما فى هذه الورقة من نقط » .

ــ هل أنت واثقة ؟ .

فأشارت العرافة الى الورق بأصبع نحيلة ضئيلة قد تكون أصبع امرأة عجوز ذاوية ، كما قد تكون أصبع فتاة دون سن الحلم .. وقالت :

ــ ان الورق لا يكذب أبدا ..

فسحبت المركيزة يدها من يد العرافة وقالت ؟

ــ كفى .. فلست أريدك أن تقرئى لى اكثر من ذلك .. ولو صح ما انبأتنى به فانك ستصبحين من السعداء ، والان خذى هذا الكيس ..

والقت فوق المنضدة كيسا متضخما بالنقود .

وتحولت لمغادرة الغرفة فاستوقفتها العرافة قائلة :

ــ مهلا .. فانى أرى العامود ينثنى حتى يكاد يلمس الورق ؟

وهذا معناه انه يجب عليك أن تحذرى ولا تثقى بأقـرب الناس اليك ..

فهتفت مونتسبان :

ـ اطمئنى من هذه الناحية أيتها العرافة الطيبة القلب ، فانى قد اعتدت ان آخذ حذرى من أقرب الناس الى ، واسـألى ابنى الذى لم يبلغ بعد الثامنة من عمره ، بل اسـألى شـقيقتى مدام تيرانج .. ولكن هل يمكنك أن توضحى لى بتحديد أكثر من ذلك ؟

ـ ان الضرر يأتى من امـرأة ستتعهدينها بعطفك ورعايتك ، وستحاول احدى صديقاتك تشويه سمعتك .

ـ اشكرك على هذا التحذير الذى سأذكره دائما . ولكن ثقى ان احدا من البلاط لن يجرؤ على منـازعتى حب الملك . الذى سيظل سريره قبرا لكل من تحلم به !

ـ واخذت الحسناء المذعورة دورها مكان المركيزة . وحيتهـا العرافة بانحناءه طويلة المدى ، ثم رفضت تناول اليد الممـدودة اليها وقالت :

ـ لست بحاجة يا سيدتى الى يدك وانما كفانى ما رأيته على وجهك من علائم تجعل من اليسير على انباءك بما يخبئـه لك المستقبل من حظ مجيد .. انى ارى فى عينيك آثار الدموع ممـا يدل على انك بكيت طويلا فى الايام الاخيرة من اثر ما اصـابك من مرض وخصاصة واذلال .

فقالت الاخرى بمرارة :نعم !

واردفت العرافة : فأنت كنت طفلة بعد ، حين اضـطر والداك الى الخروج من موطنهمـا والسـفر بحـرا حيث اصبت انت على ظهر السفينة باغماء شديد يشبه الموت فأمر القبطـان بالقاءك فى البحر وكاد يتم ذلك لولا ان شعرت امك وهى تحتضنك للمرة الاخيرة بحركة ضـعيفة فى القلب فطلبت الى الطبيب اعادة فحصك وبذلك تم انقاذك .

ـ هذا صحيح ، فقد انقذتنى امى يومئذ .

ـ وبعد سنتين كنت جالسة فى حقل تشربين لبنا فاقتـربت منك حية شديدة الخطر وانقذتك امك أيضا من هذه المرة . ولم تطاردك الحية بل اكتفت بان شربت اللبن .

وهذا صحيح ايضا . ولكن لماذا تذكريننى بهذه الاشياء ؟

ـ لأبرهن لك فقط على ان العناية الالهية تظللك برعايتها دائما فاذا كنت قد ترملت وانت مازلت فى ربيع العمر وميعة الصـبا .

فلا تحزنى ولا تهمنى . لانك ستتزوجين مرة اخرى ، ولن يكون هناك من هو أعظم ممن سيختارك زوجة له الا ملك السماوات .
فهتفت الحسناء المذعورة : ماذا تقولين ؟

ـ اقول لك انك سترتفعين الى الذروة وان الغاية التى ترمى اليها هذه المرأة المتكبرة التى سبقتك الى هذه الغرفة ستكون من نصيبك انت التى سيبهر حظك العالم اجمع ويحفظ التاريخ اسمك فى سجلاته .

فهمست السائلة وقد خبا الضوء المشتعل فى عينيها : خفضى صوتك بحق السماء لئلا يسمعنا احد .

وكانت العرافة قد صمتت ورفعت عينيها الى سقف الغرفة بينما حاولت سائلتها ان تستعيد هدوءها بمجهود شاق فلم تلاحظ مرور وجه ذى عينين زرقاوين وشعر احمر ظهر فجأة فى السقف من خلال باب مسحور فيه وقد أجاب بابتسامة على حركة الاستفسار التى وجهتها اليه العرافة .

وفى هذه اللحظة رفع الستار الفاصل بين غرفة الاستقبال وغرفة التنجيم ولوحت الزائرة الثالثة بكيس نقود فى يدها وقالت:
ـ أواه ! . ألم يحن دورى بعد . والام ابقى فى الانتظار ؟
وأحنت العرافة رأسها باحترام شديد للملكة فرنسا المقبلة ورمقت القادمة بنظرة حادة وقالت :

ـ سيدتى ، ان ما أقوله لك هو هذا . فعلى الرغم من اللقب النبيل الذى تحملينه . حيث أنت الليدى هوديكور . ومع أن لك عما يحمل رتبة مارشال فرنسا . فان هذا أو ذاك لن يحول دون اقصائك عن البلاط بسبب لسانك السليط .

فكان من أثر هذه الصدمة ان عركت المرأة كيس النقود بين يديها وانسحبت خارجة مع رفيقتيها .

وما كاد الباب الخارجى يغلق وراء السيدات الثلاث حتى ارتمت العرافة فى مقعد ووقف امامها صاحب العينين الزرقاوين والوجه الاحمر وهو رجل حسن المظهر والبزة لولا ان جفنيه المتدليين كانا يدلان على دهاء صاحبهما وخبث طويته وقسوته .
وقد كان هذا الرجل هو المحرك الاعظم فى قضية السم الكبرى واشير اليه تارة باسم « الانجليزى » وتارة اخرى « بتاجر الصوف » بينما لم يكن فى الحقيقة لا هذا ولا ذاك ، وانما كان زعيم العصابة ، وقد أفلت من العقاب كسائر زعماء العصابات بينما تحل الكارثة بالاتباع والاذناب .

ورفعت العرافة نقابها فبدت فتاة جميلة والقت نظرة استفسار على الرجل وقالت :

ـ حسنا ! هل ترانى قمت بدورى على ما يرام ؟

ـ بديع جدا فى الواقع ياتيريزا لولا غلطة واحدة ، فقد كان ينبغى عليك ألا تهملى كيس النقود الذى كانت مدام هوديكور ممسكة به وكانت كلمات قليلة تلقين بها اليها كافية لحصولك عليه .. ولكن لحسن الحظ اننا فى المساء ..

ثم اتجه نحو دولاب .. ففتحه وتناول قبعة وضعها على راسه ، وحزاما يتدلى منه سيف فتمنطق به وهو مسترسل :

ـ ولن يكن بعد قد تقدم مسافة بعيدة .

وحاولت الفتاة ان تثنيه عن عزمه فهتفت : ولكن ماذا انت فاعل ؟

ـ سأفعل ما كانت تدعو اليه امك المحترمة لافوازان وما كان ينادى به أبوك نزيل الباستيل الآن ، فأسترد كيس النقود طبقا لقولهما « ما يضيعه الخنصر يجب على الابهام ان يربحه »

ثم انطلق مغادرا بيت الاسرار فى أثر سيدات البلاط الثلاث .



نعود الان الى جويل بعدان أودعته فتاة احلامه ترمبلاى سائرة فى رفقة الخادم العجوز الى دار خالتها ، فانه وقف لحظة مترددا وقد شعر بالوحدة فى هذه المدينة العظيمة ، وود لو يقع على شخص له به ولو معرفة سطحية ليرتمى فى احضانه حتى ولو كان هذا الشخص هو الشاب المتعجرف الذى أهانه فى لوكماريا .. ولكن الجوع كان قد انشب فيه مخالبه ، وتذكر انه لم يطعم شيئا منذ الصباح .. وهنا خطر له العنوان الذى ذكرت ترمبلاى انها ستقيم مع خالتها فيه ، واستقر رأيه على أن يبحث لنفسه عن مسكن ومطعم قريبين من ذلك المكان ، وهكذا كان لزاما عليه ان يجده اولا .

وذهب الى اول شخص صادفه فى الطريق فسأله عن موقع السراى الملكية ، ثم اتخذ سمته فى الاتجاه الذى وصفه له عابر السبيل .

وسار ابن بورتوس متعثرا فى سيف ابيه الطويل المتدلى الى يمينه فيجعله يشعر بشعور غامض من الهيبة يعوق خطوه السريع الذى اعتاده فى لو كماريا حيث كان يسير بغير سيف .. اضف الى ذلك جمهرة الاشياء الجديدة عليه التى كان يشاهدها فى الطريق

كلما تقدم صوب القصر ، وانظار المارة من الباريسيين الذين كانوا يقفون ليحملقوا فيه وقد استهواهم منظر ثيابه الملونة وحيرته الظاهرة ولكن البسمات كانت تفيض على شفاههم عندما كانوا يرونه كالبرج الشاهق فوق رءوسهم وكتفاه العريضتان وساعداه المفتولان على استعداد لمكافحة اى سخرية او تهكم .. غير ان ذلك كله كان من عوامل تأخره ، فلم يبلغ شارع بتى شان ويصل الى مفترق الطرق ليسأل مرة اخرى عن الطريق حتى كان ظلام المساء قد خيم فوق المدينة .

وكان أهل باريس يبكرون فى العودة الى منازلهم فى تلك الايام، وتكاد الشوارع تقفر من المارة عند حلول الظلام .

وهكذا وقف جويل لحظة يجيل بصره فى الشوارع التى يشرف عليها من موقفه فى مفترق الطرق ، فرأى على مبعدة اولئك النسوة الثلاث ، فاتجه صوبهن وهو يحسبهن ثلاث زوجات صالحات عائدات بسرعة الى بيوتهن اذ أمسى عليهن المساء .

وشعرت السيدات بالفتى الذى يلاحقهن ، فما ان رأينه يكاد يعدو نحوهن حتى اوسعن الخطى مذعورات .

ولهن الحق فى هذا الذعر ، فان باريس فى ذلك العصر لم يكن فيها ضوء بالليل ، اذا استثنينا القمر ، الا المصابيح التى كانت الحكومة تفرض على الاهالى تعليقها على ابواب بيوتهم ، بل ولم يكن الامر يقضى على كل صاحب بيت بوضع مصباح ، وانما يستطيع أصحاب كل أربعة او خمسة بيوت أن يشتركوا فى مصباح ، وبذلك لم يكن فى باريس كلها الا ستون مصباحا بينما كان عدد سكانها زهاء نصف مليون ، ومن ثم كانت الشوارع بالليل مسرحا لطوائف اللصوص والنشالين وقطاع الطرق والخطافين من السارى وغيرهم .

وبسبب هذا الضوء الضئيل لم تستطع السيدات الثلاث ان يرين ذلك الرجل المدعو والتون الذى خرج من بيت العرافة يلاحقهن بحذر اللصوص او جواسيس البوليس الذين يعرفون وجهة ضحيتهم فلا يسلكون الطريق نفسها التى سلكتها الضحية ، وانما يختارون طريقا اخرى أقصر ليأخذوها على غرة فى مكان لا تسمع فيه استغاثة ولا صياح.

وفيما كانت السيدات المذعورات يتعثرن فى اذيالهن وهن مسرعات خوفا من جويل ظهر أمامهن من الناحية الاخرى والتون، وقد استطاع هذا ان يرى جويل وهو ملح فى اللحاق بالسيدات ، فظنه هو الاخر من ابناء الليل الباحثين عن غنيمة . بينما ارادت

السيدات تجنب الحصار بين مطـــارديهما من امام ومن خلف ، فانعطفن فى أول زقاق صادفهن ، وكان لسوء حظهن مسدودا .
وغمغم والتون الذى كان يعرف اسرار هذه الطرقات جميعا : لقد وقعتن فى الفخ ايتها الحمامات الوداعات !
وفى هذه اللحظة بالذات التقى هو وجويل على مدخل الزقاق، فحملق كل منهما فى الآخر دون ان يستطيعا فى تلك الظلمة الماحقة تمييز ملامحهما او ثيابهما ، وهكذا احتفظ رفيق العرافة بظنه انه تجاه آفاق مثله . فخاطبه باسلوب الزمالة قائلا :

ــ لابد من عودتهن ووقوعهن بين ايدينا ايها الرفيـــــــق . وسنقتسم بالتساوى ما معهن ، وانى اعلم ان احداهن تحمل كيسا منتفخا .
فهتف البريتونى فى دهشة واشمئزاز : ماذا ؟ هل تحســبنى لصا ؟
وخيل للآخر أن هذا نوع من السخرية فأردف ضاحكا :

ــ ها . ها . ها . هذا حسن . لقد اتفقنا اذن ، وسنقتسم الكيس الذى حدثتك عنه ، وما قد يكون معهن غيره من جواهر أو حلى .. ها هن قادمات يا فتى !
وصاح بطلنا : خذ هذه اذن ايها الوغد
وكأنما استنكف من استخدام سيفه مع مثل هــذا النــذل الحمير ، فلكمه بيده لكمة هائلة القته متدحرجا فى الطريق .

وعادت السيدات فى تلك اللحظة وقد استقر رايهن على اختيار اهون الضررين وتسليم مطارديهما ما معهن من نقود .. فمــا كان اشد دهشتهن حين سمعن الجزء الاخير من الحــــوار الذى دار بينهما وما انتهى اليه من لكم احدهما الآخر والقائه صريعـــا على الارض بينما رفع المنتصر قبعته بالتحية لهن ثم اذ هو يدنو منهن ويقول :
ــ عفوا يا سيداتى ، هل تسمحن بارشادى الى الطريق المؤدى الى السراى الملكية ؟
وكادت السيدات الثلاث ينفجرن ضــاحكات لولا ان احداهن تمالكت نفسها وقالت :
ــ أكان اذن من اجل السؤال عن الطريق انك ..
ــ اضطررت للجرى وراءكن زهاء الساعة ، ولست بلائمــكن على ذلك .
واستطردت محدثته : انت لست بلص اذن ؟

ـ هذا هو ما ظنه ذلك الرفيق . والذى من اجله اضطررت لصفعه . ولكن خبرينى يا سيدتى ، هل مدينتكم ملأى باللصوص الى حد أن أول ما يتبادر الى الذهن عند رؤية رجل انه لص ؟ اننى غريب عن باريس،ولا ادرى ما هى الحقيقة .

ـ تقول انك غريب !

ـ نعم فقد وصلت منذ برهة قصيرة قادما على مركبة نانت من موطنى الذى لم أغادره قط فى جزيرة (بل ـ ايل) .. وعندما تجيبننى على سؤالى سأشكركن واذهب فى طريقى ..

ووضعت احداهن ـ وهى التى دعتها العرافة بالمركيزة مونتسبان ـ يدها على ذراعه وقالت :

ـ مهلا يا سيدى ، فانك فارس شجاع نبيل ..

فقاطعها قائلا : شكرا لك ! .. ولو انى لا ادرى اذا كان صفع نذل كهذا يعتبر فى مدينتكم من اعمال الشجاعة والنبل ! .. اما ان أكون فارسا فاؤكد لك يا سيدتى انه لا ينقصنى الاالجواد لاكونه

وكانت لهجته ونبرات صوته صافية خاليةمن الرياءاوالتصنع حتى اضطرت المركيزة لتغيير اسلوبها المتعالى وقالت:

ـ لى رجاء عندك يا سيدى العزيز ، فان صديقتى وانا قد ضللنا الطريق من الخوف وأصبحنا على مسافة بعيدة من بيوتنا. ونخشى ان يقع لنا حادث آخر من الحوادث السيئة الكثيرة التى تقع فى هذا الحى ، فلا تتركنا ونحن بحاجة الى شجاعتك وحمايتك حتى نصل فى امن الى بيتنا.

وقالت مدام هوديكور : اتوسل اليك الا تتركنا وحدنا

ولم تقل الثالثة شيئا حيث افصحت عيناها الواسعتان عما لم ينطق به فمها الدقيق .

وامام هذا الرجاء شد البطل حزامه ليمنع تقلب امعائه من قرص الجوع ثم قال باسلوب الرجل النبيل :

ـ سيداتى .. اننى فى خدمتكن .

وسار اربعتهم وقد اطمأنت السيدات كل الاطمئنان .. وبعد ان قطعوا شوطا من الطريق فى صمت تكلم جويل قائلا :

ـ سيداتى ، هناك مثل يقول ان جميع الطرق تؤدى الى روما، ويا حبذا لو كان عندكن هنا مثل يحاكيه فيما يتعلق بالسراى الملكية ، فهل جميع الطرق تؤدى اليها ؟

فقالت مدام هوديكور : أمن الضرورى ان تذهب الى هناك ؟

فاجاب جويل وقد صعد الدم الى وجهه : نعم ، لان لى معارف

هناك ينبغى ان أكون على مقربة منهم لكى أقدم اليهم ما قد يحتاجونه من مساعدة .
ـ وهل تسير وحدك فى هذا الليل لتقدم اليهم تلك المساعدة؟
ـ ان الرجل لا يكون وحيدا عندما يكون سيفه معه .
فهمست السمراء فى اذن الشقراء بصوت مسموع : حقا انه جواب ظريف !
واستطرد جوبل : على انه مهما يكن السيف صديقا طيبا فمما لا شك فيه ان له متاعبه كالتى سببها لى سيفى هذا من لفت الانظار الى على طول الطريق بصورة مزعجة ، وخاصة لعدم التناسق بينه وبين ثيابى ، ولو انى لا ارى ما يحول دون وجود قلب شريف تحت اى ثياب مهما كان طرازها .

وسألته السيدة الحسناء : ماذا عسى ان يكون اسمك ؟
ـ كل ما اعلمه انى أدعى جويل .. وما هو اسم السيدة يا ترى ؟
ـ اثيناى .
ـ ما اجمله .. وهو منطبق عليك تماما فى عظمته ورقته
ـ هل تظن ذلك ؟
ـ بالتأكيد .. فانه يلوح عليك انك من نبيلات البلاط الملكى

فحدجته بنظرة فاحصة حيث قد رابها منه اكتشافه حقيقتها لتعرف ما اذا كان كلامه صادرا عن علم أو هو مجرد مجاملة .. ولما اطمأنت الى انه انما يجاملها ، واعجبت بقوامه الفارع ووجهه الصريح وعينيه الصافيتين ، عند ذلك تظاهرت بالتعثر وتعلقت بذراعه وقالت :
ـ آه !. ان الطريق زلقة يا سيد جويل : والليل اسود بهيم ، فهل تسمح لى بالاستناد الى ذراعك؟
ـ بكل سرور يا سيدتى
وحست المركيزة بغريزة المرأة وهى مستندة الى ذراعه أن هناك غيرها تحتل المكان الاول فى قلب هذا الفتى .. وكانوا قد بلغوا ساحة سان ميشيل ، فقالت له وهى تحاوره :

ـ اراهن على انك جئت من باريس للبحث عن ثروة تحملها اليك عروس جميلة
ـ عروس ! .. اننى ابحث عن رجل لا عن امرأة .. ابحث عن الرجل الذى يتوقف عليه مستقبلى ومصيرى بل وحياتى كلها .
وكأنما شعر ان صراحته توشك أن تحمله الى الافضاء لهاته

الغريبات بما لا ننفى لهان نقوله لهن ، فحول الحديث الى ناحية أخرى قائلا

ـ الى اليمين أيتها السيدات . فهناك منزل مهدم . وقــد يسقط منه شيء على رءوسنا . ثم هناك تلك الكومة من التراب .

وقالت المركيزة لنفسها : ومن عساه يكون هذا الشاب ؟

وأردف جويل : الى اليسار قليلا .. حذار من تلك الحفــرة المملوءة ماء

فنظرت المركيزة الى عينيه وقالت مداعبة : يالك من بريتونى مكير ! أهكذا تضلل الكلاب عن الرائحة ؟! وهل تبــذل كل هذه العناية لتحفظ سرك دونى ؟

وظهرت عليه علائم الحزن وهو يجيب : ليس هذا السر بسرى وانما هو سر امرأة ميتة .

ـ حسنا ! احتفظ به اذن .. ولكن هب انك لم تعثــر على شخصك فماذا تنوى ان تصنع فى هذه الحالة ؟

ـ اندمج فى سلك الجندية واذهب للبحث عن مستقبلى حيث الطعن والنزال .

ـ حسنا ما تفعل . فانك مستطيع ان تشق طريقك فى الجيش الى ما تتطلع اليه من مجد . وانما يتعين عليك ان تلتمس معــونة صديق على بلوغ هذه الامانى .

ـ وكيف يكون هذا الصديق ؟

ـ شخص يحبك . أو شخص تعتمد عليه ويكون له من النفوذ ما يسمح له بتقديمك الى البلاط .

فانفجر جويل ضاحكا وقال :

ـ ان الصديقة التى تشيرين اليها يجب ان تكون طويلة البــاع بحيث تستطيع حل رباط حذائها دون ان تنحنى .. واحسب ان سماء باريس لا تمطر مثل هذه الصديقة .

ـ لن يتعذر عليك العثور عليها اذا اردت . فان نظـــراتك الجميلة وشجاعتك ..

فانطلق الفتى المستريب يترنم بتعويذة دينية . ولكنها قاطعته بسؤال صريح :

ـ قل لى يا صديقى . أليست لك خطيبة ؟

فلم يجب من فوره ولكنه عندما تكلم نم صوته عن عاطفــة ملتهبة حيث قال :

- اننا لم نرتبط برباط الخطوبة بعد . ولكن بوسعى ان اصرح بأنها فتاة احلامى
- يا للسماء !. ومنذ متى وانت على هذا الحال ؟
- أقول لك الحق يا سيدتى اننى لم اعرف ذلك الا هذا المساء فقط .
- وكيف عرفته ؟
- المسألة فى غاية البساطة .. فقد عرفته بشعورى . حيث كان نبضى يدق كما لو كنت مصابا بحمى ، واندفع الدم فى عروقى كالماء المتدفق من خزان مكسور ، وتضخم قلبى حتى ضاق عنه صدرى . والتهب جسدى كله !. ولم اشعر بمثل ذلك قط من قبل نحو غيرها من النساء .

فغمغمت المركيزة وهى فيما يشبه الذهول : لو صح ظنى فهذا هو الحب الصادق الطاهر النادر فى هذا الوجود !. ترى ماذا يجود به الرجل الذى يغمره مثل هذا الحب ؟
كل ما املكه ، وحياتى هذه التافهة .

ثم رفع قامته الى اقصاها حتى اجتمعت فى مظهره سائر امارات البطولة فى اسلافه اطوان وجسبار وبورتوس مما جعلها تحبس انفاسها من فرط الاعجاب ، ثم قطعت حبل الصمت قائلة .
- وهكذا انت مستعد للدفاع عن معبودتك ضد أى شخص كائنا من كان ؟
- نعم !
- ولو فرض ودبر احدامرا لايذائها ..
فمر لونه وعقد حاجبيه وانبعث الشرر من عينيه وقال :
- انى اقتله .. حتى ولو كنت انت ذلك الشخص .. بل انى لا اتردد لحظة فى طعن الملك نفسه لو اراد الملك سوءا باورورا ..

فهتفت وهى تنظر اليه بازدراء : أورورا ؟. ومن تكون اورورا هذه ؟
- هى السيدة التى احبها وحدها دون سواها والتى ستصبح زوجتى عندما انال ما يجعلنى جديرا بها وبمحبتها وباسمها وبمكانتها .
فانتزعت المركيزة يدها من ذراعه بحركة ادهشته وقالت :
- لقد وصلنا ، ولم تعد بنا من حاجة الى مساعدتك الكريمة
وكانوا قد وصلوا امام منزل متواضع تلوح عليه مظاهر الابتئاس والاهمال قائم خلف حديقة عالية الجدران .

وما ان طرق الباب حتى فتحه خادم عجوز قالت له المركيزة:
ـ ضع الجياد فى المركبة يا اونورين.
فأجابها الخادم فى احترام : هل تعود مولاتى الليلة الى سان جرمان ؟
ـ كلا . بل ستذهب المركبة بهذا السيد الى السراى الملكية .
ثم أومأت ببرود الى البريتونى الذى ينتقل من دهشة الى دهشة ثم قالت :
ـ اظن ان هذا الحى هو الذى تتنازل معبودتك بالاقامه فيه !

وفى هذه اللحظة ظهر غلام فى الثامنة من عمره يقفز فوق الدرج وقد بدت مخائل الذكاء على وجهه الدقيق رغم آثار الحزن الظاهرة بين ثناياه . وكانت احدى ساقيه لسوء الحظ اقصر من الاخرى ! وسار يحجل فألقى بنفسه بين ذراعى المرأة السمراء وراح يغمرها بالقبلات وهتف هتاف الفرح :
ـ اين كنت كل هذا الوقت يا أمى العزيزة ؟ .. انى لم استطع النوم مخافة ان يكون قد حدث لك حادث .
فاجابته هذه السيدة : الا ترى ايها العزيز والدتك المركيزة ؟
وتلقى الغلام هذا التقريع بثبات وحيى المركيزة مونتسبان دون ان يذهب اليها فانتهرته قائلة:
ـ لا يليق بك يا لويس ان تتأخر فى النوم الى الآن لمجرد ان مربيتك ليست معك
ثم التفتت الى السيدة السمراء وادرفت : خذيه الى غرفته يا مدام هوديكور . ولينم فى الحال .
وكان جويل واقفا مأخوذا بالدهشة والعجب مما يسمع ويرى واذا بالمركيزة تحييه تحية الوداع .. ثم مدت يدها اليه بطريقة دلت على انها تريده ان يلثمها ! وقد لثمها فعلا ولكن على اطراف اصابعها .. ومن ثم انطلقت صاعدة الدرج فى خطوات متكبرة كما لو كانت هى الملكة ! وكانت المربية توشك ان تتبعها وقد حملت الغلام لتوفر عليه صعود الدرج ، ولكنها التفتت الى الفتى الطويل الذى كان واقفا كأنه علامة تعجب وقالت :
ـ يا سيد جويل ، ها هى مركبة المركيزة مونتسبان التى ستذهب بك الى حيث تشاء .. ولقد نسيت صديقتى النبيلة ان تسدى اليك الشكر على ما قدمته الينا من خدمة ، فانا اشكرلك بالنيابة عنها . وارجو الا تنسى اذا احتجت يوما الى خدمتى ان تحضر الى هنا دون تردد وتطرق الباب وتطلب مقابلة فرانسوا دوبينيه .

الفصل السادس

كان الهواء يداعب لوحة فندق « المزمار المغربى » الذى اشتق اسمه من ظروف سعيدة وغير سعيدة أحاقت بصاحبه بونافنتير بونلارون الذى ترك الجندية ونزع سيفه ورمحه وغدارته وعلقها جميعا فى ردهة الفندق ، واستبدلها بالمغرفة والشوكة الطويلة وسكين الطاهى ورداءه الابيض الفضفاض وقبعته البيضاء المنشاة

وفى مساء هذا اليوم « الاحد » جلس بونلارون وحده فى فندقه وليس معه فيه الا « الجرسون » بيستوكيه ، وراحت تتصاعد عليهما رائحة الشواء من شريحة اللحم الضأن الوحيدة المودعة جانبا من الموقد الهائل الذى يتسع لشى عجل بأكمله .

وزمجر صاحب الفندق كعادته كلما اقفر فندقه من الرواد والزبائن :

ـ ألا سحقا لهذه الايام !. فلقد انقضى ذلك العصر الذهبى ، عصر الفروسية والبطولة ، حين كان النبلاء يقبلون على المبارزة لأتفه الاسباب أو حتى بلا سبب مطلقا ، ثم يخرجون من المبارزة ولا هم لهم الا اشباع بطونهم واحتساء الخمور الجيدة . فكانوا يملأون علينا المكان ويلقون الينا بأكياس الذهب والفضة بغير حساب .. آه !.. لقد انقضت تلك الايام وبارت تجارتنا بذلك القانون الاخرق الذى قضى بتحريم المبارزة . هيا يابيستوكيه . وهات الشواء لنأكله فقد كاد يفسد من طول مكثه فوق النار !.

فقطب بيستوكيه جبينه وقال : أشكرك ياسيدى . ولكنى لن آكل من هذا الشواء . فانى لاأحب اللحم الاسود .

ـ حسنا . اسحبه اذن من الموقدوضعه فى صفحة فوق المائدة ريثما أغلق الباب . فقد ولى النهار .

ونهض صاحب الفندق واتجه صوب الباب فلم يكد يبلغه حتى فوجىء بتحية على الاسلوب الباريسى فى ذلك العصر :

ـ طاب يومكم جميعا من صاحب هذا الفندق الى أصفر أتباعه. أرجو أن تكونوا جميعا بخير وسرور مثلى .. ولكن قل لى أولا أيها السيد من هو صاحب هذا الفندق ؟

فانحني بونلارون بالتحية وأجاب : أنا ياسيدى النبيل صاحب هذا الفندق .

وكان القادم رجلا فى الخامسة والاربعين من عمره ، على الرغم مما يلوح على محياه من علائم النشاط والحيوية وعدم الاستقرار كما لو كان لم يزل غلاما من غلمان باريس المرحين . بيد أنه كان الى

ذلك قصير القامة ضئيل الجسم ذا وجه مستدير وذقن حادة مدببة ، ويرتدى ثوبا حربيا عجيبا يخيل للرائى انه منتزع من جثة قتيل فى ميدان حرب ، ولف حول وسطه حزاما يتدلى منه خنجر وسيف . وكذلك دواة وقلم من مثل ماكان يحمله المحامون ومسجلو العقود والكتبة فى ذلك العصر .

وقد دلف هذا القزم بخفة ونشاط الى غرفة الطعام التى أشعل بيستوكيه المصباحين الضئيلين المعلقين فى سقفها ، ثم قال اذ جلس الى المائدة فبدا — وهو جالس — رجلا كاملا أكثر من مظهره وهو واقف :

— أيها السادة . ان الماثل أمامكم هو ابن شرعى من ابناء باريس يعود الى مدينته وموطنه أخيرا ، فأنا سعيد حقا اذ أعود اليها . لقد كنت معروفا مشهورا فى صدر شبابى فى المنطقة المجاورة للكنيسة ، وكانت الطيور ذاتها التى تلتقط الفتات من الارصفة المحيطة بها تعرف رينو فريكيه حق المعرفة .

ورفع قبعته وهو ينطق باسمه ، ثم أردف :

— وكنت وقتئذ شماسا ، ولكنى الآن فى طريقى الى المجد والثروة والمراتب العالية وما الى ذلك كله .. انى قادم الآن من سياحة طفت خلالها حول نصف العالم ، ولا عبرة بقصر قامتى ، فان ملك فرنسا ليس بأطول منى على الرغم من النعال العالية التى يحتذيها .

وهنا وضع أصبعه على فمه اشارة لصاحب الفندق بالصمت ثم استطرد :

— ولكن دعنا من الشئون الملكية والسياسية وما اليها ، ولأتحدث عن نفسى ولو انى أكره مثل هذا الحديث .. انى بالاختصار عائد الى البلد الذى عرفته طفلا ومعى خطاب توصية الى وزير البحرية وخمسون جنيها تكرم على بها اللورد تيرون ابن عم الوزير الذى أنقذته من الغرق فى ميناء روشيل ، وهكذا ترى أنه لا حاجة بالانسان لان يكون عملاقا لكى يكون صاحب فضل على عظماء الرجال .. وقد ركبت البحر من ميناء روشيل الى ميناء الهافر ، وركبت من هذه زورقا الى باريس ولذلك تجدنى الآن فى حاجة الى عشاء طيب وفراش وثير ، فهل تستطيع أن تقدم احد هذين الشيئين أو كليهما ؟

فأجاب صاحب الفندق بالاحترام اللائق بحامل خمسين جنيها :

— سيدى ، عندى غرفة تليق « لسموكم » كل اللياقة .

فقاطعه القزم : حسنا ، انى أقبل هذه الغرفة .

واردف بونلارون : واذا تنازل مولاى فانى أقدم له ضلعا من الضأن كنت قد احتجزته لنفسى .

وأخفى بيستوكيه بيده ابتسامة تلاعبت على شفتيه .

وهتف فريكيه : ضلع من الضأن !. هذا غاية ماأتمنى !. نعم .. سأتنازل بقبوله .. وأعدك بألا أترك لك منه الا مالايمضغ من العظم

فصاح صوت من عند الباب :

ــ رويدك قليلا !.. أرجو أن تترك لى نصيبى منه .

وحول الثلاثة وجوههم صوب الباب فلم يعانوا أية صعوبة فى رؤية المتكلم ، فقد كان العملاق جويل هو الذى ملأ فتحة الباب بجسمه الضخم الهائل ، وكان قد هبط من مركبة المركيزة مونتسبان على مقربة من هذا الفندق الذى قادته لوحته اليه .

وقبل أن يلج جويل باب الفندق وقف قليلا منصتا لثرثرة فريكيه حتى اذا سمعه يتوعد صاحب الفندق بألا يترك له شيئا من ضلع الضأن الوحيد الذى عنده ، خاف أن تفلت منه هذه الفرصة الوحيدة للطعام وهو الجائع الذى شد حزامه على بطنه ليمنع قرص الجوع من ايلامه .

ومن الحقائق المعروفة عن بعض الاغبياء من الاقزام انهم يمقتون العمالقة .. ولم يشذ فريكيه عن هذه القاعدة ، فصعد جويل بنظرة ملتهبة ، وانتهره على التدخل فى شئونه ، فأجابه البريتونى فى هدوء :

ــ لست أبغى تدخلا فى شئونك ياسيدى ، وانما أنا أسألك معروفا وما أحسبنى بحاجة الى تذكير رحالة محارب مثلك بواجبات الانسانية نحو اكرام الجار .

ــ ماذا تعنى بذلك كله ؟

ــ أعنى اننى أنا أيضا قادم من مكان بعيد للبحث عن مسكن وطعام ، وأكون سعيدا لو سمحت لى بمشاركتك فى أطايب ماتنعم به فى هذا المكان .

وحان دور صاحب الفندق للكلام ، فانحنى محييا حامل السيف الثانى .

وقال له :

ــ يسرنى أن ينال كل منكما نصيبه على السواء مادمتما تقتسمان الثمن .

ولكن الباريسى الضئيل لم يرض هذه القسمة وقال :

ـ سيدى .. لقد اخطأت فى حقك . وتصرفت تصرف البخيل الجشع باثارتى هذه المعركة بدلا من ان اكتفى بهذه الشريحة .. وقد برهنت أنت على نبل ومروءة يجعلانى اتقدم اليك متوسلا أن تقبلنى صديقا لك .

فمد له جويل يده قائلا : بكل سرور ، وهاك يدى عربونا على صداقتنا مدى الحياة والآن هلم بنا الى الطعام فان هذا النزال بين أربعة جدران يرهف الشهية بشكل عجيب ، ولنشرب هذه الكأس نخب صداقتنا الابدية .

وجلس الصديقان الجديدان الى المائدة يلتهمان اللحم المتجلد التهاما بينما راح الجاويش سابقا وصاحب الخان حاليا يروى لهما من أقاصيص المواقع الحربية والمعسكرات وميادين القتال ، ما أضفى على هذا الاجتماع روحا سامية من البهجة والانشراح .

وكان فريكيه بعد أن برم ببيئة الشمامسة قد التحق بالبحرية وشمله اللورد تيرون بعطفه وقربه اليه فاستطاع أن يلم خلال ذلك بالكثير من الفنون الحربية والبحرية ، واستنبط طريقة لبناء السفن تزيد من سرعتها ، وسنحت له الفرصة التى تحدث عنها بانقاذ أمير البحر المذكور فبعث به الى باريس عسى أن يتمكن من اقناع ولاة الامور فى وزارة البحرية باختراعه لزيادة سرعة السفن وغيره من الاختراعات الاخرى التى تتحدى المثل السائر « لا جديد تحت الشمس ! » .

وكذلك فعلت الخمر الجيدة فعلها فى جويل فحلت عقدة لسانه وانطلق يقص على صديقه الجديد تاريخ حياته من يوم ولدته أمه الى ماتعلمه على يد قسيس لوكماريا الى الحوادث التى وقعت له خلال سفره الى باريس . فكان أشد ماأعجب به فريكيه من تلك القصة هى الاسماء العجيبة لاصدقاء بورتوس ، وهم أتوس واراميس ودارتانيان ، الذين يريد ابن بورتوس أن يتخذ من البحث عنهم سلما يرتقى منه الى معرفة أبيه .

وقال فريكيه : انتظر !. انى أعرف واحدا على الاقل من أصحاب هذه الاسماء العجيبة .

ـ هل هذا ممكن ؟!. ومن هو ياترى ؟

ـ هو الكابتن دارتانيان ، فقد كان قائدا لفرقتى الفرسان الحمراء والسوداء عندما كنت انا لم أزل غلاما .. ولكن الغلام لاينسى مطلقا أولئك الذين يقرصون أذنه ثم يعطونه نقودا ، وهذا هو ماحدث لى حيث ضبطنى ممتطيا صهوة جواد مسروق من أحد رجاله . فكافأنى على ذلك بقرصه فى أذنى ، ثم ناولنى تعويضا عن

ذلك بضع قطع من النقود لاأذكر الان قيمتها . وان انس لا انسى يوم القبض على المستشار بروسيه فقد وقف ذلك البطل دارتانيان وحده فى وجه جمهور متحمس للمستشار يربو على الالفين من الانفس . فثبت لهم دارتانيان كأنه جدار حصن منيع حتى سارع اليه رجاله فتفرق الجمهور قبل أن يصدر البطل أمره باطلاق النار . وفى غمضة عين اقتاد بروسيه الى الباستيل . فلقد كان دارتانيان أشجع الشجعان . ولو شاء لكان سيد هذا العالم .. فاذا كان ابوك من اصدقاء الكابتن دارتانيان حقا . فانه يكون جديرا بالبحث عنه .

ـ حسنا ، وماذا جرى للكابتن دارتانيان . وهل هو مازال على قيد الحياة الى الآن ؟

فهز فريكيه رأسه أسفا وقال ' حقا لاأستطيع أن أجيبك بيقين عن هذا السؤال . ومع ذلك فمن السهل معرفة ذلك .

فسأله جويل بلهفة : كيف ومن ذا يمكن الاستفسار منه ؟

ـ من ثكنات فرسان الملك .

وقال صاحب الفندق سمعت ان فرقة الفرسان الملكية ذهبت للاشتراك فى الحملة على الفلاندرز . ولكن لا موجب للذهاب الى هناك فلابد أن هناك طائفة من جنود هذه الفرقة للقيام بواجب حراسة الملكة فى سان جرمان . وانى لواثق من هذا لانى قابلت الفيكونت بريجى منذ أيام . فهو من زبائنى . وهو الملازم قائد الفصيلة المتخلفة هناك .

ـ وهل تظنه يعرف الكابتن دارتانيان ؟

ـ لابد انه يعرفه ، ولا بد انه خدم تحت قيادته ، لأنه قدمضى عليه أكثر من ثلاثين سنة فى خدمة الحرس .

فهتف فريكيه ' ثلاثين سنة ولم يوضع على الرف بعد !

فابتسم بونلارون وقال بلهجة أبوية : يامسيو فريكيه .. ان مارأيته منك منذ لحظة يؤكد لى انك رجل شجاع مقدام . ولو أنك تمكنت من اصطناع الصبر والحلم لرأينا منك فى القريب العاجل لاعبا بالسيف لايقهر .. ومع ذلك . وعلى الرغم من تمتعك بقوة الشباب دونه ، فانى أنصحك ألا تشتبك مع المسيو بريجى . فانى لاأعرف أحدا . اللهم الا اذا كان جارك هذا . يجاريه فى قوة ساعده ومهارته فى لعب السيف .

فهتف فريكيه محنقا : أعملاق آخر اذن ؟ .. ولكن لماذا لم ترفعه مهارته الى أكثر من رتبة الملازم طيلة تلك الثلاثين سنة ؟

ـ هذا هو السؤال .. فقد كان ينبغى أن يصل الى رتبة الكولونيل أو الجنرال ، ولكنه مغرم بالشراب وبمغازلة الحسان ، وأنت تعرف أكثر منى ماتؤدى اليه تلك المسالك .. ومع ذلك فهو رجل نبيل ، يقترض النقود فى كبرياء كأنه هو صاحب الجميل ، ويراهن على الشراب فيكسب الرهان بعدة كؤوس لا بكأس واحدة ، ويقاتل بآخر قطعة من سيفه اذا ماكسر نصله ، وانى لأعلم انه انتصر فى ميدان الشرف عشر مرات قضى فيها جميعا على غريمه .

فقال جويل : سأذهب الى سان جرمان غدا .. فكم من الوقت يستغرق الذهاب الى هناك .

ـ نحو الساعتين اذا حصلت على جواد كريم من جياد البريد

فقال البطل الذى لم ينس مدموازيل دى ترمبلاى :

ـ حسنا ، سأستطيع اذن ان أعود لأراها لدى ذهابها الى الكنيسة فى المساء .

الفصل السابع

فى يوم من أوائل شهر يوليو ، وفى الساعة الثانية بعد الظهر ، كانت الشمس ترسل أشعتها الملتهبة فتصلى أحجار شوارع مدينة سان جرمان نارا حامية . بينما وقف أمام بوابة الحصن القديم جنديان من فرقة الفرسان وجلس أثنان آخران خاليين من النوبة على حافة الغدير وقد أدليا أقدامهما يهزانها فى الهواء .

وكانت الملكة ماريا تريزا تستمتع بغفوة بعد الظهر على الطريقة الاسبانية ، والحاشية تتبع مثلها .. وهكذا كان الحراس يتثاءبون تثاؤبا يكاد يخلع الفك ، واذا بأحد الحارسين الخاليين يقول لزميله :

ـ أنظر هناك ياسكريفو صوب حلبة التنس وقل لى ماذا تسمى هذا الشكل العجيب ؟

فنظر الآخر الى الاتجاه الذى أشار اليه زميله ثم اجاب :

ـ هو بريتونى قادم حديثا من الريف بلا أدنى شك .. ولكن لابد انه مؤمن عليه ضد الحريق اذ يجرؤ على السير فوق تلك الاحجار الكاوية دون أن تشتعل أطرافه .

وكان الشخص الذى تحدث عنه هذان الحارسان الخاليان من النوبة هو جويل بعينه ، وقد دخل المدينة بعد أن ترك جواده فى خان (شجرة السرور) ، وسار على الطريق المؤدى الى الحصن .

وأردف الحارس الاول ويدعى شامبناك : يلوح لى أنه قادم الينا

وقال سكريفو : من يدرى !!. فقد يكون قادما الينا بمهمة .

وبعد لحظة وقف البريتو أمامهما وانحنى لهما بالتحية وقال:
ـ هل تسمحان لى أيها السيدان أن أسألكما عما اذا كنتما تنتميان الى احدى فرق الفرسان الملكية ؟
ـ بلا ريب .. وثيابنا دليل على ذلك .
ـ هل لكما اذن أن تحدثانى بشيء عن الكابتن دارتانيان ؟
وكان الحارسان القائمان بالنوبة قد وقفا ينصتان الى حديث هذا الرجل الغريب مع زميليهما ، فما أن سمع أربعتهم هذا الاسم السحرى حتى قالوا بصوت واحد :
ـ الكابتن دارتانيان !. انه فخر الفرقة التى نتشرف بالانتماء اليها ، وليس فيمن قادوا الفرسان من هو أشجع منه ولا أنبل ، وكان لرجاله بمنزلة الوالد من أبنائه ، وسيظل الدهر مترنما بمغامراته وأعماله ، محتفظا له فى سجله بأنصع الصفحات .
وقد تأثر ابن بورتوس أيما تأثر بهذا الحديث وقال :
ـ أشكركم ايها السادة ، فانكم تفعموننى سرورا حيث أن الضابط الذى تتحدثون عنه كان صديقا لابى .

فقال مسيو جاسيه أحد القائمين بالنوبة : نحن نهنئك اذن لأن الكابتن قلما اتخذ صديقا الا أن يكون زميلا له فى ميدان الفروسية والشرف .
وقال السائل : كلمة أخرى اذا سمحتم ، فانكم تتحدثون عن ذكرى الكابتن كما لو كان قد مات .

فأجاب هاريكور ، وهو ثانى القائمين بالنوبة : لقد مضت عشرون سنة منذ شطب أسمه من قائمة الجيش ، وكلنا انما نعرفه بما يروى عنه من حوادث تشبه الاساطير وخاصة مما كان يقع من مصادمات بينه وبين الملك .. ولقد كان الكابتن دارتانيان أثناء الحملة التى قادها ضد الهولنديين ، وذلك بقنبلة من مدفع أصابته فى صدره ، وكان فى نفس اللحظة قد تم له الاستيلاء على موقع حصين من مواقع الهولنديين ، كما حدث فى اللحظة ذاتها أيضا أن سلمه رسول من الملك الامر الملكى بترقيته الى رتبة قائد عام الجيوش الفرنسية مصحوبا بعصا المارشالية .

فأطرق بطلنا برأسه وغمغم : ان نبأ موت هذا البطل يحز فى قلبى على الرغم من انى كنت أتوقعه .. ولكن عطفكم أيها السادة يطمعنى فى أن أوجه اليكم سؤالا اخر .. فهل اتفق لاحدكم أن يعرف شيئا عن أى من هؤلاء الرجال الثلاثة : أتوس ، وبورتوس ، وأراميس ؟

وبدا على الحراس الاربعة انهم يستعرضون ذكرياتهم ،ولكنهم أجابوا أخيرا بأنهم يسمعون لأول مرة تلك الاسماء العجيبة .
وحينئذ انحنى جويل بتحية الوداع وانشأ يقول :
ـ ليس لى ما أقوله اذن الا أن أعبر لكم عن شكرى العميق!

ولكن سكريفو كانت قد أخذته الشفقة على بطلنا فاستوقفه قائلا :
ـ مهلا ياسيدى ، فقد يكون أصحاب تلك الاسماء أو بعضهم من الفرسان الشجعان المشهورين الذين وقفوا جنبا الى جنب مع دارتانيان يدافعون عن حصن سان جرفيه فى حصار لاروشيل ضد جيش الملحدين .
وأردف هاريكور : لقد حدث ذلك قبل أكثر من عشرين عاما، وأكبرنا لايزيد على الثلاثين من العمر ، فنحن لانعرف عن تلك الحوادث الا ماتواتر الينا بالسماع ، ولكن ضابطنا الملازم بريجى هو الوحيد الذى عاصر أولئك الابطال ، فاذا أمكن حل عقدة لسانه..

فقاطعه أحد زملائه انها لاتحل الا اذا كان قد خسر نقوده على المائدة الخضراء .
وقال آخر : أو يكون قد انفقها فى الشراب .
وسأل جويل فى لهفة : وأين يمكن أن ألتقى بالمسيو بريجى ؟
فأجاب أحدهم : فى حانته المحبوبة فى شارع فاشيه .
وقال آخر أو فى عش القمار فى شارع بوتو ـ جوريه .

وهتف ثالث : الا أن يكون قد ذهب يلاحق احدى الفاجرات أو ليشتجر مع أحد المواطنين من أجل ابنته الحسناء .
وهمس الرابع . صه !. ها هو ذا الذئب قادم من وراء ذلك الجدار متلصصا ليسمع ماتقولون ويرى ماتعملون !
وكان الضابط يسير بقبعته مائلة الى جنب ، وهو دليل كما يقول عارفوه على أنه محنق فوق العادة . فقال سكريفو ناصحا جويل :
ـ خذ حذرك ولا تحدثه الان .

فأجاب جويل باسما : شكرا لك على هذه النصيحة ، بيد ان هذه لن تكون أول مرة أتصادم فيها مع وعل وأخرج سالما !
وأخيرا وصل الملازم بريجى فانتهر الحراس قائلا

ـ متى كانت الاوامر تسمح للجنود وهم يحملون السلاح بمحادثة المدنيين ؟. تالله لولا انى أعاملكم بالرأفة لأمرت بالقبض عليكم فى التو واللحظة جزاء هذا السلوك المعيب !

فأجابه شامبناك : هذا السيد يريد محادثتك ياسيدي الضابط
ـ أي سيد ؟
قال ذلك ورفع رأسه عاليا وصعد جويل بازدراء جعل الدم يصعد سريعا الى وجهه ، ولكنه تمالك نفسه وقال :
ـ انني قادم اليك يا مسيو بريجي من قبل السيد بونلارون .

ـ تعني بائع الخمر واللحم في شارع بامول ؟ ها ، ها ، اني أذكره تماما ، وأذكر اني مدين له بنحو عشرة جنيهات أو اثني عشر جنيها لأدري . فاذا كان قد بعث بك لمطالبتي بهذا المبلغ فقد كان خيرا لك وله لو لم تحضر الى هنا ، فان ذلك اللعين فيلارسو ، مدرب الكلاب الملكية ، لم يترك لي ولا سنتيما من مرتب هذا الشهر .
ـ لا أعلم شيئا ولا شأن لي مطلقا بديونك .
ـ ماذا تعلم اذن ؟ تالله انك لم تكن أبكم قبل أن أحضر فلقد رايتك من بعد تطلق لسانك الذرب مع هذا القطيع من جنودي !
وبذل جويل جهدا جبارا في كبح جماح غضبه ازاء هذا الضابط السليط وألقى عليه بكل ايجاز ما يريد الاستفسار عنه منه ، فرفع بريجي يده عابثا بشاربه واجاب مزمجرا :

ـ اتوس ، وبورتوس ، واراميس . نعم ، اني أذكرهم جميعا أما اتوس فقد كان نبيلا عظيما وحاصلا على لقب كونت وله ضيعة لا اذكر الان اين موضعها .. وأما اراميس فقد كان قسيسا يرتدي أحيانا بزة الفرسان . وأما بورتوس فقد كان عملاقا من أكلة اللحوم ذوي البطنة وبعد أن اصبح أراميس اسقفا ، ونال بورتوس لقب بارون قلبا للملك ظهر المجن وثارا عليه وكفرا بنعمته ، وقد فرا بعد ذلك الى جزيرة (بل ـ ايل) ثم عادا فهربا منها ، وكان قد صدر ضدهما حكم بالاعدام جزاء خيانتهما العظمى
وكان جويل قد التزم الصمت بينما راح الدم يغلي في عروقه وهو يستمع الى حديث الملازم بريجي ، فما ان سمع عبارته الاخيرة حتى انتفض وصاح مغضبا :
ـ بورتوس خائن !.. هذا مستحيل ، فأنت تكذب !
فزأر بريجي زئيرا ، وقد نفرت عروق جبهته ، وتحول وجهه العريض من اللون الاحمر الى البنفسجي ، ووضع يده على مقبض سيفه وحذا جويل حذوه ، ولكن شامبناك وسكريفو بادرا بالوقوف والحيلولة بينهما وقالا بصوت واحد :
ـ فكرا أيها السيدان فيما انتما بسبيله من سحب السيوف أمام السراي الملكية !

فاعاد الملازم نصله الى غمده بعد أن كان قد برز منه نصفه وتقدم خطوة صوب الفتى الذى تحداه وقال :

ـ أيها الشاب ، انك قد نطقت بكلمة تجعل سنك متساوية لسنى !

فاجاب جويل : أنا اعلم ما يترتب عليها ومستعد لتحمل اثارها

وفى تلك اللحظة دقت ساعة البرج ثلاث دقات ، وجاء حارسان اخران من الفرسان يقودهما جاويش ليحلا محل الفارسين القائمين بالنوبة فما أن تم الغيار وتبادل كلمة السرحتى التفت بريجى الى الحارسين اللذين اصبحا خاليين وقال .

ـ اذهب يا جاسيه وانت ياهريكور وأودعا اسلحتكما فى غرفة الحرس ثم الحقا بنا فى الغابه ، فسنذهب ـ هذا العريب وأنا ـ فى رياضة الى هناك .. وسيصحبنا سكريفو وشامبناك أيضا ، وليذهب كل اثنين منا معا حتى لا نلفت الانظار

وانطلق الحصمان يسيران جبا الى جنب مخترقين الغابة وقد خلع الضابط قبعته وجعل يروح بها محاولا تجفيف العرق المتصبب فوق جبينه ، بينما راح جويل يستعرض بعين خياله مناظر لوكماريا وقبر المارد والسيف المتدلى الى جانبه والمكان الذى وجده فيه ، ثم وجه أمه وهى تحتضر ولا سيما حين همست وهى تودعه : « دافع عن شرف أبيك ! »

عند ذلك هتف بريجى : لقد وصلنا والى هنا ستنتهى رحلتك

فاجابه جويل بصبر نافذ : اننى مستعد لمبارزتك الان اذا أردت

فقال بريجى متظرفا : لا تتعجل مصيرك يا ولدى ، فانه يجب علينا انتظار شهودنا ، لانى لا احب ان يقال عنى انى أذبح الاطفال

ووصل الفرسان الاربعة كل أثنين من طريق

وخاطبهم بريجى قائلا : أيها السادة ، ارجو أن يتفضل اثنان منكم بالوقوف مع هذا الفتى كشاهدين له ، بينما يقوم الاخران شاهدين الى جانبى . ولا حاجة الى القول بأن مهمة الشهود تقتصر على أن يشهدا عند الحاجة بأن المبارزة قد جرت طبقا لقواعد الشرف ، وانى لم أقتل هذا السيد الا بعد أن دعوته للاعتذار عن اهانته اياى فرفض

فأومأ الجنود بالايجاب ووقف سكريفو وشامبناك الى جانب جويل وبقى الاخران الى جانب رئيسهما

واستل جويل سيفه بينما كان الشهود الاربعة ينظرون اليه آسفين على ما يترقبونه من مصيره لوثوقهم من مهارة ضابطهم

وشدة بأسه . بيد أنهم لم يستطيعوا اخفاء دهشتهم عندما رأوا سيف بورتوس مشرعا فى يد ابنه .. وقد راح بريجى فى الوقت نفسه يفتح يده اليمنى ويقبضها ليختبر مرونة عضلاته . ويضرب بقدمه الارض ليختبر ثباتها

وقال جويل : اننى على استعداد يا سيدى

فثنى ذاك ركبته مرتين ثم قال :

ــ هل تريد أن تقول شيئا لشاهديك قبل ان نبدأ ؟

ــ كلا .

ــ انظر امامك اذن .

ــ لا حاجة بك الى هذا التحذير

وفى صمت عميق التقى السيفان وقعقع النصلان وأرسل الضابط لعنة من فيه اذ تبين له أن منازلة هذا الخصم لم تكن سهلة كما كان ينتظر ، فان جويل لم تطرف له عين ولا بدا عليه أقل ارتياع من الهجمات العنيفة التى كان خصمه يوجهها اليه. بل صمد له واقفا كالتمثال والسيف يدور فى يده بحركات الية دلت على تمكنه من هذا الفن

وعض بريجى على نواجذه فى حركات متتالية وهو يحاول النيل من خصمه والفشل ملازمه

وتحول اعجاب الشهود الى جانب جويل ولا سيما بعد ما شهدوه من علائم اليأس على ضابطهم الذى أحمرت عيناه وفاض فمه بالزبد

وبعد عدة جولات أخرى التزم فيها جويل خطة الدفاع فىحذر ويقظة تامين دب دبيب اليأس فى قلب بريجى وانهكت قواه فزلت قدمه اليسرى وسنحت الفرصة فارسل جويل سيفه بضربةهائلة فى خط مستقيم مخترقا به صدر غريمه الذى عجز عن النهوض واختنق بالدم المتدفق كالسيل من فمه وسقط السيف من يده وفيما كان يحاول وضع يديه على الجرح الفائر فى صدره سقط فوق الارض كالشجرة اجتثت من جذورها

واستند جويل الى جزع شجرة والعرق يغمر شعر رأسه ، وراح ينظر الى سيفه والدماء تقطر منه فراعه هذا المنظر وترك السيف يسقط من يده هو الاخر

وتحول بصره الى الضابط المحتضر فرأى شفتيه تتحركان فانحنى واذا به يسمعه يغمغم :

ــ انها طعنة بورتوس

ثم لفظ نفسه الاخير

وتبادل الشهود النظرات وقال احدهم :
ـ ماذا نصنع الان ؟
ـ لا شيء الا أن نبلغ حراس الغابة لينقلوا جثته الى سان جرمان واقترب شامبناك وسكريفو من جويل وقالا :
ـ خير لك أيها السيد أن تبادر بمغادرة هذا المكان فورا لان الاوامر بتحريم المبارزات صريحة لا تحتمل أدنى تهاون

وقال سكريفو نحن لم نرك مطلقا بالطبع ، وسنقول ان مسيو بريجى لابد ان يكون قد قتل من يد غريب لا نعرفه .. لكن انظر ! انى أرى شخصا قادما .. فهيا اذهب فى الحال ولا تضيع دقيقة واحدة .

وغمغم جويل ببضع كلمات على سبيل الشكر ، ثم انحنى فالتقط سيف أبيه ومسحه بقبضة من أوراق الشجر ، وأعاده الى غمده ، ثم غادر المكان بخطوات الثمل

وكان فريكيه وبونلارون فى انتظاره على العشاء ، أما هو فلم يدر كيف وصل اليهم

وهتف الباريسى مشدوها عندما انتهى جويل من سرد قصته :
ـ وحق السماء هذا ما كنت أفعله أنا لو كنت فى مكانك ، لا بل عسانى كنت قذفت ذلك العجل فى الهواء حتى يعلو على برج سان جاك فيسقط محطما مهشما .

واذ لاحظ صاحب الفندق ضعف شهية جويل الى الطعام قال على سبيل التعزية :
ـ هكذا يحدث دائما عندما يقتل المرء انسانا لاول مرة فتضطرب اعصابه وتفسد شهوته للطعام . ولكن هذا يحدث عندما يرى الجثة الاولى فقط ، ثم يصبح الامر عاديا بعد ذلك

الفصل الثامن

جلس اراميس فى مكتبه متدثرا برداء من الحرير بعد ان انتهى من قراءة الخطاب التالى ، وهو :

« سيدى اللورد .. اتشرف بان ابلغك ان الملك سيعود قريبا من ليل ـ الى (سان جرمان) ، وأنه يجب اتخاذ الاستعدادات اللازمة لذلك .. فانه يلوح أن المركيزة مطمئنة الان اكثر من اى وقت مضى الى سلطان مفاتنها ونجاح مشروعاتها الجشعة ، وقد سمعت انها مزهوة بنبوءة القيت اليها بحيث لو صحت تلك النبوءة لكان فيها انهيار امالنا وتحطيم مشروعاتنا تماما . فان

عرافة تقيم على مقربة من السراى الملكية أزجت اليها أن لويس الرابع عشر لن يلبث حتي يصبح حرا ليتزوج مرة اخرى ، وانه اذ يتزوجها سيرفعها الى أعلى المراتب فى المملكة .

« وهكذا ترى يا سيدى اللورد أنه أصبح ضروريا المبادرة باحباط سعيها ولن يكون ذلك الا حين تقدم الى البلاط الفتاة التى تكسف نجمها .

« فهل تتكرمون سموكم بالتنازل لاتخاذ الاجراءات اللازمة لاتمام هذا العمل على وجه السرعة

« وانى انتهز هذه الفرصة لأؤكد لسموكم شدة اخلاصى واحترامى التام

خادمكم
بزولوريه »

وعلى الرغم من الدفء فى ذلك المساء ، كانت تتصاعد من الموقد القائم أمام المنضدة نار متأججه ، ففرك الدوق دالميدا هذا الخطاب بين يديه ثم ألقاه الى النار التى التهمته فى لحظة .. ثم اضطجع فى مقعده واستغرق فى تفكير عميق لم يلبث بعد ان غمغم مناجيا نفسه :

ــ اقسم أن بزولوريه على حق ، ولا بد من التعجيل بالعمل

ومن ثم ضغط على زر الجرس مستدعيا خادمه وقال :

ــ انظر اذا كان ستيبان قد عاد وابعث به الى فورا

وبعد بضع دقائق كان الشخص المطلوب واقفا امام سيده وهو شاب أسبانى أنيق المظهر حاد القسمات ، فانحنى محييا سيده العجوز الذى سأله :

ــ حسنا ، ما وراءك ؟

ــ لى الشرف بأن أقدم الى سموكم البيانات التى عهدت الى بالحصول عليها

ــ حسنا جدا ، تكلم فانى مصغ اليك

ــ ان السيدة الشابة التى تبعتها تقيم مع قريبة لها عجوز يقعدها المرض عن مبارحتها منزلها القائم فى شارع تورنيل

ــ استمر

ــ والشابة تخرج كل صباح فتزور عديدا من المحامين ومسجلى العقود والقضاة والمستشارين

ــ ثم ماذا ؟

ــ وفى الامسية تذهب الى كنيسة سان بول

ـ وكيف عرفت هذا ؟
ـ سمعتها تقول لمتسولة عجوز وهى تلقى اليها بقطعة من النقود « ترقبى منى كل يوم مثل هذه القطعة فى مثل هذا الوقت » .
وصمت الدوق قليلا ثم قال :
ـ ألا تعرف رجلا مقداما جريئا بلا مبدأ يرضى أن يقوم بأى عمل يعهد به اليه لقاء أجر طيب
ثم أردف مبتسما اذ ادرك ان الخادم يوشك أن يعرض نفسه لتأدية هذه المهمة
ـ اننى لا أشك فى مهارتك ومقدرتك ، ولكن هناك أسبابا خاصة تحول دون تكليفى بهذه المهمة أى واحد من رجالى
فأجاب الاسبانى بلهفة : لقد قابلت اليوم بمحض الصدفة رفيقا قديما لى هو خير من يخدم سموك
ـ حسنا ، ومن عساه يكون رفيقك هذا وما هى مؤهلاته !
ـ هو يدعو نفسه الكابتن كورديف ، وهو صديق قديم لى ، لأننا كنا معا فى خدمة الملك .
ـ والى متى يمكن الاعتماد عليه؟
ـ الى أى وقت مادام كيس مستخدمه عامرا بالنقود وتستطيع سموك أن تحصل عليه الآن بأجر معتدل اذ هو قادم من الريف فى حال سيئة مع رفاقه الثلاثة ، حيث ذهب اربعتهم ضحية زميل خامس خانهم
ـ ماذا ؟ .. أخيانة بين اللصوص !.. حقا ان العالم صائر الى نهاية محزنة .. اذهب وجئنى بهذا الكابتن الهمام فى التو واللحظة
ـ سيكون غدا فى وقت مبكر رهن اشارة سموكم .
ـ انت رجل مخلص يا ستيبان ، فاستمر فى اظهار هذا النشاط ، وثق ان صرافى لن ينساك وسيراك دائما

وبعد أن صرف الدوق تابعه ، تناول مذكرته فخط فيها بضعة أسطر ثم استأنف تأملاته التى بدأها بمناجاة نفسه : « حقا كما كان يقول صديقى دارتانيان دائما ، ان الغاية تبرر الوسيلة ! »
وفى الصباح ، بعد تناوله الافطار على الطريقة الاسبانية ، تمت المقابلة بينه وبين صاحبنا القديم كورديف .
وكانت نتيجة هذه المقابلة ان هذا الرجل الجرىء مع اثنين من رجاله ـ ولكنهم لم يكونوا فى هذه المرة ممتطين جيادا ـ شوهدوا فى مساء هذا اليوم يحومون بجوار كنيسة سان بول

وفى داخل الكنيسة كانت بعض النسوة العجائز يستمعن الى عظة المساء . وكانت المدموازيل دى ترمبلاى راكعة امام صورة العذراء . ولو ان زميلاتها راقبنها وهى تغـادر الكنيسة . اذن لرأينها وقد دنا منها شاب . هو صديقنا جويل . ووضع يده فى يدها وهما يهبطان الدرج .

وقد ازعج كوردبف ورفيقيه اكتشـاف امر هذا الحـارس للفتاة ولكن الاوامر المعطاة لهم كانت حاسمة ، كما كانت حاجتهم الى النقود عاجلة . فاستجمعوا كل شجاعتهم وتأثروا الشابين. وعبر الشارع اثنان منهم بحيث انضما الى شخص اخر منزو فى مدخل أحد الابواب وقد التف بعباءة قاتمة باهتة . ووضع على رأسه قبعة سوداء داكنة . واسـتمر الثـالث يتعقب الشـابين السعيدين اللذين ما كانا ليشعران بما هنالك لو ان أورطةكانت فى أعقابهما

وقال كوردبف عندما التقى بزملائه : ما رأيكم ؟

فاجاب احدهم : صدقت يا كابتن . فانه هو بعينه الفـلاح البريتونى الذى التقينا به مع رفاقه على طريق صومور

وقال اخر : والفتاة هى بعينها التى كانت ضمن المسافرين فى تلك المركبة .

وقرض كوردبف على اسنانه وقال : هى اذن فرصة سعيدة نضرب فيها عصفورين بحجر . فلدينا الكمامة التى تحول دون صراخها . أما « البهلوان » فان له عندنا عشرة سيوف تبعث به فى لحظة الى الجحيم .

ثم اردف باسلوب القائد الذى ينظم جيشه للمعركة :

ـ أين الزميل خاطف الحقائب ؟

ـ يتعقب الاثنين

ـ وأين المركبة ؟

ـ بجوار الكنيسة

ـ وباقى رجالنا ؟

ـ مع المركبة

ـ هيا الى العمل اذن ، وحذار من الارتبـاك ، بل تمهـلوا وادوا العمل كما ينبغى

وكانت أورورا تواصل الذهاب فى كل مساء الى الكنيسة واستمتع جويل مرتين بمرافقتها الى بيتها ، وكان فى كل من هاتين المرتين سير بعيدا عنها ، ولـكنه فى هذه المرة كان أشجع قليـلا فسار بجانبها وهى ترمقه بنظرات باسمة ، وقال فى توسل :

— هل سنفترق سريعا الليلة أيضا ؟ وعندى لك حديث قد يطول ؟

فاجابته بلا تردد : لقد فكرت أنا ايضا فى ذلك . ولكن .. لا ادرى لماذا انا خائفة . دعنى أستند الى ذراعك

قال جويل : ما أحسبك بحاجة الى الخوف وانا معك

فأجابت : أوه . انى أعرف بالتجربة انى أستطيع الاعتماد على قوتك وشجاعتك ، ولكن هـذه الناحيـة مقفرة ، والليل يهبط بسرعة .

وفى الواقع لم يكن هناك الا أشخاص قلائل فى هذه الطريق، وكان الليل ينذر بعاصفة شديدة ، والجوملبدا بالغيوم ،فاستندت الفتاة الى ذراع صديقها ، وانطلقا متمهلين فى السير ، والـكلام يتدافع الى شفتى جويل ، ولكنه يمسكه حتى يستمع الى الصوت الذى يرهف حواسه وترقص له طربا كل جوارحه

وقالت له وهى تحاوره : لابد انك قد بدأت ابحاثك ، فارجو أن تكون قد ظهرت لك بوادر النجاح

وشعر البطل بحرج شديد ، فانه لم يكن ليجرؤ على أن يقص على سيدة مثل الحادث الذى وقع له فى سان جرمان .. ولكنه لم يكن يستطيع ايضا أن يكذب .. فأجاب على سؤالها بسؤال آخر ، وقال :

— وانت يا آنسة ، هل تبشر قضيتك بالنجاح ؟

فتنهدت وهزت رأسها وقالت :

— وا اسفاه ! اننى لا اجيد التوسل وطلب المعروف ... آه .. لو كنت وحدى ولم يكن ذانك الطفلان فى عنقى !

— اكنت تعدلين عن هذه المهمة ؟

— بكل تأكيد ، وكنت أغادر باريس فى الغد .

فردد جويل : تغادرين باريس ؟

— وماذا كنت تنتظر غير ذلك ؟.. ان ضوضاء هذه المدينة تزعجنى وانى افضل الريف وعزلته وصخوره وخضرته على الحياة المتقلبة الصاخبة هنا

وسألها الفتى المتدله بصوت مضطرب :

— وهل يسرك أن تقيمى هناك بمفردك ؟

— أحسبنى استطيع ان اعتبر نفسى أسـعد من غـيرى من النساء لو اتيح لى أن أجد الى جانبى هناك شخصا يقع عليـه اختيار قلبى

فتمتم الفتى واجما : حقا ! فانت جديرة بأن تترقبى نبيلامن العظماء الاثرياء يرفع من قدرك

ـ لا ، لا .. فانا فقيرة وكبريائى تمنعنى من قبول شيء من الرجل الذى يتزوجنى أكثر من خاتم الخطوبة

وتنهد جويل بدوره فضغطت على ذراعه وقالت :

ـ لماذا تتنهد ؟. اننى صبور ونحن مازلنا فتيين .. أفلا نستطيع ان ننتظر فى اطمئنان حتى تبارك السماء مساعينا ، أو تنجح أنت فى الحصول على مكانة لنفسك اذا لم توفق فى معرفة مكانة ابيك

فهتف جويل فرحا : يا للسماء ! . وهل أمكنك ان تحذرى ما يجول بخاطرى ؟

وكانا قد بلغا ساحة فيها مقعد تحت شجره . فجلست الفتاة على المقعد وقالت :

ـ تعال واجلس بجانبى

فاطاع واسترسلت هى قائلة :

ـ أعتقد انك تحبنى ؟

فرفع عينيه ووجدها شاخصة اليه ببصرها ، ثم خفضت عينيها من شدة تحديقه فيهما واردفت :

ـ نعم ، وأنا احبك أيضا ، ولا اشعر بحاجة الى سماع هذه الكلمة من شفتيك ، اذ يكفينى ان اصغى الى دقات قلبى

وتدفق الدم حارا فى عروق بطلنا وقال :

ـ اننى احترمك اكثر من أى شخص آخر فى هذا العالم ، وافضل الموت على رؤيتك تتزوجين غيرى

وفى فترة الصمت التى تلت ذلك سمع صوت حركة كأنه انذار بقرب العاصفة ، ولكن الحبيبين كانا فى شغل عن تقلبات الجو كما لم يلقيا بالا الى الساعات التى انقضت من الليل .. أمسك جويل باليدين الصغيرتين اللتين كانتا ترتعدان بين يديه القويتين وقال :

ـ اورورا .. اورورا .. انت حياتى وأملى الوحيد فى هذا العالم !

وقاطعته الفتاة بصيحة عالية مذعورة اذ رأت يدا تمتد من الظلمة ممسكة بغدارة ثقيلة من ناحية الماسورة وقد رفع صاحب اليد ساعده الى أعلا واهوى بمقبض الغدارة على رأس جويل فألقاه صريعا .

وكأنما كانت هذه أشارة متفقا عليها ، فأن ثلاثة رجال برزوا من الظلمة الحالكة فجأة وانقضوا على أورورا ، كما خرجت من أحد المنعطفات مركبة يجرها جودان . ودفع الاشرار الثلاثةالفتاة نحو المركبة

وجعلت تقاوم وتصيح : « الغوث !. الغوث ! »

وصنعت هذه الاستغاثة معجزة من المعجزات ، فقفز جويل منتصبا على قدميه ، واستطاع أن يتبين ما يجرى للفتاة على ضوء مصباح المركبة الخافت ، فامتشق حسامه ، واذا بأحد الاشرار الثلاثة يجرد سيفه أيضا ويشهره فى وجهه قائلا فى لهجة الامر الصارم :

ـ قف مكانك !

فهتف جويل فى دهشة : قائد فرقة الهجوم الملكية !

فاجاب كوردبف : نعم ، أنا هو ، وسأشقك بسيفى هذا تصفين اذا بدرت منك أية مقاومة

فادار جويل سيفه فى يده وقال : انك أحقر من ان اذبحك بسيفى هذا النبيل

وأهوى على رأسه ببطن سيفه فالقاه صريعا يتمرغ فى الرغام ثم قفز جويل كالثور الهائج فبلغ موضع أورورا فى ثلاث قفزات ، وكانت فى تلك اللحظة بين يدى الشريرين « قاطع الرقاب » و « منظف الجيوب » فلكم البطل بيمناه أحدهما والاخر بيده اليسرى فالقتهما اللكمتان الهائلتان صريعين غائبين عن الرشد ، ولم تكن اورورا قد مسها شىء من الضر ، فطوقت عنق منقذها بيديها وقالت :

ـ لقد انقذتنى .

ولكنها لم تلبث أن صاحت : أوه . فليساعدنا الله .. لقد ضعنا !

ذلك أنها رأت نحو « دستة » من الاشرار المسلحين وكانهم قد خرجوا من بطن الارض يتقدمون صوبهما مسرعين

واذ رآهم جويل هتف : من حظكم أيها الاوغاد اننى لست وحدى

وحمل الفتاة بساعده كما لو كانت ريشة ثم انطلق يعدو بأقصى سرعته والعصابة فى أثره . ولحسن الحظ هبت أول ريح من العاصفة المنتظرة فأثارت فى الجو غبارا عاق خطواتهم لحظة وان تك يسيرة فقد كان فيها الكفاية ليتقدم الهارب على مطارديه بمسافة معقولة

وبدا هطول الامطار

وراح جويل يعدو كالنعامة غير مفكر الا فى انقاذ فتاة احلامه التى تأبطها تحت ذراعه اليسرى فانكمشت تحته لا تبدى حراكا بينما ظل شاهرا سيفه بيمناه . وكان يسمع من خلفه صيحات مطارديه فتضاعف من سرعته وقد استعادت عضلاته مرونتها التى اعتادت مسابقة الريح بها فى بل - ايل

واشتدت العاصفة وقصف الرعد وهطلت الامطار بشدة فلم يؤثر شىء من ذلك على سرعة البريتونى الذى سبقت له رؤيةاسوأ من هذه الحال فى موطنه ، بينما كانت الحال على نقيض ذلك مع الاشرار الذين كانوا يترنحون من ثورة الطبيعة الغاضبة وفعل الخمر التى جرعوها لتزيد من شراستهم فى النضال ، فجعلوا يلهثون من فرط الاعياء وينكصون واحدا فى اثر واحد

وأخيرا انقطعت اصوات المطاردين ، فوقف جويل منزويا فى ركن من الطريق وقال :

- لقد نجونا بحمد الله يا انسة ، واعتقد انه لم يعد هناك ما نخشاه .

ولكن اورورا لم تجب ، وظلت لا تتحرك

ففص البريتونى وقال بصوت أجش : رحماك يا الهى .. هل ماتت ؟!

وتحسس نبضها فى لهفة فوجده لم يزل يدق

فتنهد تنهد الارتياح وقال : الحمد لله ، انها مغمى عليها فقط كما حدث لها فى الطريق بالقرب من صومور ولكنها بحاجة الى العناية على كل حال

ودار ببصره فلم ير شيئا من خلال الظلام الدامس ، ولكن البرق ومض على حين فجأة فرأى على ضوئه أنه كان واقفا تجاه منزل الرمادى الذى رافق اليه منذ ثلاثة أيام فقط السيدات الثلاث اللاتى انقذهن من اللص ، وخطرت بباله العبارة التى قالتها له احدى السيدات وهى تودعه :

- اذا وجدت نفسك يوما ما بحاجة الى مساعدتى فلا تتردد فى الحضور الى هنا وطلب مقابلة فرنسوا دوبينيه .

***

كانت فرنسوا جالسة تطالع فى كتاب وبيدها قلم تدون به ما يعن لها من ملاحظات على هامشه حين هبت العاصفة وهطلت الامطار وقصف الرعد . فنهضت لتلقى نظرة على الاطفال الملكيين الثلاثة المعهود اليها بهم . فلما وجدتهم نائمين نوم الطفولةالهادىء

عادت تستأنف القراءة وتناجي نفسها بين الفينة والفينة !
« ملكة !.. هذا ماقررته تلك المرأة وكررت اننى سأصبح ملكة! »
.. ولعبت على شفتيها ابتسامة الاستنكار ، على الرغم من بصيص الامل الذى كانت ترسله عيناها .

وهزت رأسها كانما لتنفض عنها التفكير فى تلك النبوءة. وفيما هى كذلك سمعت طرقا على باب المنزل الخارجى . فغمغمت :

ـ طارق فى هذه الساعة .. ترى من يكون ؟

وبعد بضع دقائق دخل عليها الخادم العجوز فسألته قائلة !

ـ ما وراءك يا اونورين !

ـ شاب بالباب يا سيدتى يريد محادثتك . وهو بعينه الشاب الذى رافقك والمركيزة الى هنا وامرت المركيزة باعداد مركبتها لتوصيله الى منزله .

ـ اوه !. ذلك الفتى الشجاع

ـ نعم . وهو يحمل سيدة جميلة جدا بين ذراعيه ويلوح انها مغمى عليها .

ونهضت المربيه واقفة وقالت : هذا عجيب !. اذهب وادخله غرفة الاستقبال على كل حال . وسأحضر اليكم سريعا

وعندما دخلت الغرفة تقدم جويل خطوة نحوها وأشار بيده الى أورورا التى كان قد مددها على أريكة وقال :

ـ أناشدك الرحمة يا سيدتى ان تساعديها !

فما أن رأت فرنسوا شعر الفتاة مهدلا على كتفيها وهو مبلل بماء المطر حتى التفتت الى تابعها وقالت :

ـ عجل يا اونورين ، وادع الى نيكول وسوزيت فورا ، وأعد السرير فى الغرفة الزرقاء واشعل فيها الموقد واتنى بحقيبتى الطبية .

واذ حضرت وصيفتاها قالت لهما

ـ احملا هذه السيدة الى الغرفة الزرقاء واخلعا ثيابها المبللة ومدداها فوق السرير

والتفتت الى جويل واردفت :

ـ انتظر أنت هنا يا سيدى . وسأعود اليك بعد ان أقوم بواجبى نحو هذه السيدة

وانقضت ساعة خيل الى جويل انها نصف قرن ثم عادت اليه السيدة وابتدرته ردا على نظرته المستفسرة

ـ لا تنزعج . فان المدموازيل دى ترمبلاى ـ وقد نطقت باسمها أثناء هذيان الحمى ـ نائمة الان . وقد اعطيتها جرعة مسكنة . ولكن لابد ان حادثا مفزعا قد وقع لها

فانطلق البطل يقص عليها الحادث كما وصفناه فى الصفحات السابقة حتى اذا وصل الى وصف المطاردة الجنونية خلال الزوبعة والمطر قالت المربية :

ـ حقا انها لمغامرة عجيبة !. واننى استطيع أن ادرك مدى ما تعانيه الفتاة ، ولكن لا تخف ، فانها ستعود الى رشدها عندما تستيقظ وتجد نفسها فى مكان هادىء ومنقذها على مقربة منها

ـ فلتسمع منك السماء يا سيدتى ، فانى لا استطيع الحياة اذا اصيبت بمكروه !

وارادت السيدة الرحيمة تحويل اتجاه الحديث فقالت :

ـ يلوح لى يامسيو جويل ان الوقت قد حان لتفكر قليلا فى نفسك فان ثيابك مبللة وموحلة ..

ـ آه !.. لم الق بالى الى انى قد اتلف هذا السجاد الثمين

فقالت محتجة : لا ، لا .. ليس السجاد هو ما افكر فيه ، ولكنك انت الذى يلزمك رداء غير هذا

ـ لا تجهدى نفسك بالتفكير فى هذا الامر يا سيدتى ، فان وقفة أمام النار وزجاجة من النبيذ وكأن شيئا من ذلك لم يحدث

فابتسمت المربية وقالت : لا تؤاخذنى على هذا النسيان ، وتكرم بأن تتبعنى فاننا نستطيع أن نتكلم عن النبيذ الذى ذكرتنى به

وسرعان ما جلس جويل فى غرفة الطعام بين الموقد المشتعل والمائدة التى كدس اونورين فوقها الوان الطعام والشراب . وقالت المربية :

ـ يلوح لى من حديثك وهيئتك انك تحب المدموازيل دى ترمبلاى حبا فائقا مخلصا ، فهل هى تبادلك هذا الحب ؟

ـ يسرنى ان اخبرك أن هذا هو ما اعتقده

فعقدت السيدة حاجبيها وقالت : اذا لم يخطىء ظنى فان هذا ليس الفصل الاول من رواية ستتخللها حوادث جسام قبل ان تبلغ خاتمتها قل لى ، هل تعرف من هو منافسك فى حبها ؟

ـ تقولين منافسى فى حبها ؟

ـ نعم ، والا فكيف تفسر محاولة احتطافها وهى الحسناء الفقيرة كما تقول ؟.. اننى اكاد اجزم بأن لك منافسا ، بل منافسا خطيرا بلا ريب واذا كانت هذه المحاولة الاولى قد فشلت . فليس معنى هذا انه قد لا ينجح فى المحاولة الثانية

فالقى جويل صدر الدجاجة من يده فى الصفحه الموضوعة امامه وقال :

ـ انت ترين اذن ان أولئك الاشقياء مأجورين من شخص آخر ؟

ـ لا شك فى هذا ، فان مثل فتاتك جديرة بأن تثير مطامع الرجال .

فلوح البطل بيده فى الهواء وقال : الويل لذلك الطامع فيها، فلا بد لى من قتله .

فسألته : هل تعرفه ؟

ـ سأبحث عنه حتى اعرفه

ـ احسب ان الاهتداء اليه ليس سهلا كما تتصور فأنه يبدو لى من تفاصيل الحادث الذى رويته لى منذ لحظة انه رجل داهية وغنى وذو نفوذ كبير ، وان تحت يده جيشا من الاشرار الذين يبيعون ارواحهم بابخس الاثمان ، بينما انت وحيد ولا من تعتمد عليه الا سيفك

وافحم جويل بهذا المنطق فازدرد كأسا من النبيذ ليرطب حلقه ، واستطردت السيدة :

ـ وفى الوقت نفسه لم يعد هناك أمان فى استمرار الفتاة فى الاقامة بمنزلها فى شارع تورنيل ، لا نذلك الغريم المجهول لابد عالم بهذا المسكن فسيبعث بعيونه وارصاده ليحوموا حوله حتى تحين الفرصة عاجلا أو آجلا بوقوع الفريسة بين أيديهم ، حيث أنك انت لا يمكن ان تكون الى جانبها دائما ، كما لا تستطيع قريبتها الطريحة الفراش مساعدتها ونجدتها عند الحاجة .

فتنهد جويل وقال : الويل لى اذن !. واحسب ان الطريقة الوحيدة فى هذه الحالة هى ان نقذف ـ هى وانا ـ بأنفسنا الى الى الماء من أقرب جسر الينا

وأخذت المربية بهذا الايمان العجيب بالحب .. وجعلت تفكر بسرعة فى مخرج لهذا الفتى الشهم من ورطته ، وكأنمالاحت لها أخيرا بارقة من أمل فقالت :

ـ هل تذكر تلك السيدة التى استندت الى ذراعك يوم انقذتنا ؟

ـ اجل ، تلك التى يطلق عليها لقب المركيزة

فقالت : المركيزة دى مونتسبان

ونظرت اليه لترى الاثر الذى أحدثه سماعه هذا الاسم ، ولكنها لم تر شيئا على وجهه فاستطردت :

ـ الا تعرف صاحبة هذا الاسم ؟
ـ نعم ! فهى سيدة جميلة رقيقة
ـ هل هذا هو كل ما تعرفه عنها ؟
ـ نعم
ـ ألم تسمع شيئا عن مكانتها فى حاشية الملك ؟
ـ هل هى من سيدات البلاط حقا ؟.. أظنها وصيفة للملكة
ـ لا تقل هذا أمامها والا اغضبتها ... ولكن قل لى ، عندما كنتما تتجاذبان الحديث فى الطريق ، ألم تذكر لها اسم صديقتك؟
فهز رأسه سلبا واظهرت هى ارتياحها وقالت :

ـ الفرصة سانحة اذن امامنا للنجاح فى حماية خطيبتك من مطاردة منافسك
ـ كيف ؟

ـ ان المركيزة مونتسبان .. هى .. هى صديقة حميمة للملك أعنى اعز اصدقائه واحبهم اليه ، والملك لا يرفض لها طلبا فاذا رضيت المركيزة بأن تشمل المدموازيل ترمبلاى برعايتها .
فقاطعها جويل : آه ! لقد فهمت ، فأنت تريدننى على أن اطلب منها ذلك فتجيبنى الى طلبى لقاء انقاذى اياها

ـ حذار من ان يخطر لك هذا الخاطر مره اخرى ، فانك تفسد الامر لو طلبت انت ذلك منها بنفسك
ـ ولم ذلك وقد عاملتنى بعطف بالغ ؟
ـ ومن اجل هذا العطف منها عليك تفسد التدبير لو انها علمت بالصلة التى بينك وبين الفتاة
فبدت عليه الحيرة وقال هذا لغز لا استطيع حله !
ـ حسنا ، لا حاجة بك لان تفهم ما دمت لا تريد ان تفهم.. ويكفى أن تعلم انه من الخير لك لو انى توليت بالنيابة عنك تقديم الفتاة الى المركيزة . وانما يجب أن تبقى الفتاة هنا ريثما تتم نقاهتها ومن ثم أصحبها انا بنفسي الى سان جرمان لتقيم مع مدام مونتسبان ، حيث تكون آمنة من مطاردها المجهول الذى لم يجرؤ على مواصلة اعتدائه عليها هناك
ـ انى لاعجز يا سيدتى عن ان افيك حقك من الشكر

وعلى الرغم من انها سمحت له يلثم يدها كما لو كانت الملكة التى تحلم بأن تكونها ، فانها عادت فسحبت يدها بهدوء ، قالت :

ـ سنفترق الان يا مسيو جويل ، اذ يجب ان أعود صديقتك والاطفال . وفضلا عن ذلك فأنت متعب ، فخذ راحتك الى الصباح طاب مساؤك

ونام جويل على مقعد مستطيل الى الصباح . ثم جاءته احدى الخادمات لتقوده الى الغرفة التى كانت فيها المدموازيل ترمبلاى وكانت الارملة سكارون ، المربية ، واقفة تحدث الفتاة قائلة :

ـ لا تتكلمى يا ابنتى ، فان اى مجهود تبذلينه الان قد يضرك واعلمى انك محاطة بأصدقائك

ثم اشارت الى منقذها الذى دخل فى هذه اللحظة سائرا على أطراف قدميه واستطردت :

ـ وها انت ترين انى لا اخدعك ، فهذا هو منقذك ، واصدقاؤك جميعا عاملون على الدفاع عنك ضد المرض وضد المؤامرات الاجراميه الاخرى التى تتهدد شرفك

وركع جويل بجانب السرير وتناول اليد وحياها بقبلة رقيقة وفيعة واجابت اورورا على هذه التحية بضغط يده فى يدها ، وودت لو تكلمت ولكن الارملة سكارون منعتها وقالت :

ـ دعينى اتوسل اليك مرة اخرى أن تلزمى الصمت والهدوء حتى يصل الطبيب الذى أرسلت فى طلبه

وحولت وجهها شطر جويل وأردفت :

ـ لقد ذهب الرسول الى سان جرمان لاستدعاء الدكتور فاجون ولابد انه الان فى طريقه الى هنا ، ولا ينبغى ان يلتقى كلاكما . فى هذا المكان

ـ هل تريدينني ان اذهب من هنا ؟

ـ نعم ، واريد ان احملك رسالة من المدموازيل ترمبلاى الى قريبتها العجوز التى تستضيفها ، فانها لابد أن تكون الان فى أشد حالات الانزعاج بسبب هذا الحادث وغياب قريبتها الشابة ، فاذهب وطمئنها واطلب منها الموافقة على ما اعتزمنا اتخاذه للمحافظة على الانسة .

وسأل جويل فى لهفة : ولكنك ستسمحين لى بأن اراها مرة أخرى أليس كذلك ؟

فدفعته برفق نحو الباب وقالت :

ـ نعم ، لك أن تعود لتراها فى أى مساء . أليس حضورك جزءا من الدواء ، وربما كان انفع من الدواء الذى سيأمر به الدكتور فاجور ؟ فاذهب الان ، فطالما انت هنا لن تغمض المريضة عينيها

الفصل التاسع

عندما بلغ جويل شارع سان انطوان لاحظ وجود حركة غير عادية فى وسطه بالقرب من السراى الملكية ، فكان الاطفال يعدون ويصيحون والمارة يقفون ويؤلفون حلقات وحلقات واصحاب الحوانيت قد خرجوا من حوانيتهم ونوافذ المنازل غاصة بسكانها وسأل جويل احد المارة عن الخبر ، فقال له ان البوليس قدالقى القبض على شخصية كبيرة فى الفندق الواقع فى شارع باميول ، وتضاربت الروايات عن المقبوض عليه فقال بعضهم انه قاتل ؟ وقال اخرون انه لص ، وغيرهم قال انه مزيف ، ووصفه غيرهؤلاء بانه محتال ، وزعم زاعمون انها قضية تسمم .

وكان موكب القوة المسلحة وبينها المعتقل يسير ببطء شديد وسط الزحام البالغ من الجمهور الذى لا يجتمع فى أى مناسبة باسرع مما يجتمع فى حوادث الاعتقال الذى يقوم به البوليس . وقد اندس جويل بين الجمهور المتدافع وشد قامته واشرأب بعنقه ليلقى نظرة على المقبوض عليه ، فلم يكد يراه حتى هتف فى دهشة :

ــ فريكيه !

ولكن القزم لم يسمع تلك الكلمة وسط العجيج ، ولم ير المتكلم لانه كان مشغولا بنفسه .

وغمرت الدهشة صاحبنا البريتونى فعاد ادراجه مسرعا قاصدا الى شارع باليول ، ولم يكد بونلارون يراه ــ وكان منهمكا فى تلك اللحظة فى حديث حار مع جمهرة من جيرانه ــ حتى تركهم وعجل بالذهاب الى جويل وابتدره قائلا

ــ يا لك من فتى أحمق !.. لماذا عدت الى هنا ؟.. هيا عجل واختف ولا تدع أحدا يراك !

ــ اختفى !.. ولماذا ؟

ــ لانهم يبحثون عنك

ــ يبحثون عنى أنا ؟!

ــ بكل تأكيد . وقد خدمتك العناية الالهية حيث قد نجحت حيلتى فى تضليل البوليس الذى اعتقل فريكيه ظنا منه أنه أنت .. ولكنه سيتبين خطأه عاجلا ويفرج عنه

فهتف جويل فريكيه يعتقل بدلا منى ؟.. ماذا تعنى بهذا وكيف يمكن ان يخطئونى به ؟

ــ سأقص عليك ما حدث بايجاز . فبينما كنت أتناول افطارى هذا الصباح رأيت ضابطا يقف على باب الفندق ومعه « نصف

دستة » من الجنود المسلحين ، فوضع اثنين منهم على الباب للحراسه ودخل الاخرون واقترب الضابط منى وسألنى عما اذا كان عندى نزيل وصل حديثا من الريف ، فاجبته بان فى فندقى اثنين بدلا من واحد . فقال لى انه يريد ذلك الذى ذهب الى سان جرمان . وحينئذ ادركت السبب الذى جاء الضابط ورجاله من أجله . فتجاهلت العلم بذهابك الى سان جرمان ولكنه عاد فطلب منى ان أدلة على مكانك . فاجبته بانك لم تحضر الى الفندق فى الليلة الماضية ، فلم يصدقنى وقال ان رقيبا من البوليس أبلغ بأنه شاهد النور طيلة الليل فى الغرفة . وتركنى وانطلق صاعدا السلم ومن خلفه رجاله الاربعة . وما هى الا لحظات حتى عادوا ومعهم المسيو فريكيه . وأقسم لقد سار القزم بينهم مرفوع الرأس لا يطرف له جفن ، ولم أشهد فى حياتى صديقا يفتدى صديقه راضيا مرضيا كما فعل هذا الرجل .. والمهم الان ان معرفة ما سيتخذه البوليس والقضاء فى هذا الخطأ الشنيع

فسأله جويل ولكن الى اين يأخذونه الان ؟

ــ علمت من احد الجنود انهم سيذهبون به الى مكتب حكمدار البوليس فى سجن شاتيليه ، وهو رجل قد قلبه من الصخر المبنى به ذلك السجن

ــ حسنا اريد ان اعرف الطريق الى هذا السجن

ــ ماذا !.. لا يمكن أن يكون غرضك ..

ــ بل لابد من مثولى بين يدى العدالة

ــ أمجنون انت ؟.. انهم يريدونك من اجل تلك المبارزة التى قتلت فيها ضابطا من فرقة الفرسان الملكية فى احدى غابات الملك نفسه !

ــ أنا لم ارتكب جرما بقتلى هذا الضابط ، وسأنتظر نتيجة محاكمتى بلا خوف .. فدعنا الان من هذا الجدل وقل لى اذا كنت تريد أن ترشدنى الى طريق شاتيليه أم لا ؟ .. فانى لا احب ان يظن فريكيه انى اريد استغلال اخلاصه ووفاءه

ــ هراء !.. فما ينبغى لك أن تضايق نفسك من أجله ، فهو يعرف كيف يخلص نفسه بسهولة

فقال جويل محتدا : هل تنصحنى ، وانت البطل القديم ، بارتكاب مثل هذه النذالة ؟

ــ بل انصحك ان تذهب الى بوابة سان اونوريه دون ان تضيع دقيقة واحدة وتبرح باريس فى التو واللحظة عائدا الى بريتانيا حيث يستحيل العثور عليك

ـ لا أصدق انك جاد فى هذه النصيحة .. ولو كنت تعنى ما تقول لكان فى ذلك اهانة لي لا ينجيك من تبعتها الا سنك

فضرب صاحب الفندق الارض بقدمه وقال :

ـ يا لك من فتى عنيد !.. أليست لديك مصالح تخشى بوارها ؟ ألا يوجد لك حبيب فى هذه الدنيا ؟

فقاطعه جويل : اوه ! .. انها لقسوة منك أن تخير رجلا بين الحب والواجب . فلا تقل كلمة أخرى ، وهيا افسح الطريق

واشار بيده اشارة الامر وقال : وداعا

وانطلق تاركا صاحب الفندق يضرب يدا بيد

وفى خلال ذلك كان مسيو لورين حكمدار البوليس جالسا أمام مكتبه فى سجن شاتيليه يطالع التقريرات الواردة اليه من رجاله .

وفيما هو كذلك دخل عليه جندى أسر اليه بضع كلمات ما كاد يسمعها حتى بدا السرور على محياه

وبعد بضع دقائق تقدم ضابط ومن ورائه ستة جنود شاكى السلاح وبينهم فريكيه ، فلم يكد الحكمدار يراه حتى نظر الى الضابط فى دهشة وقال :

ـ من هذا الذى جئتنى به ايها الضابط ؟

ـ هو الشخص الذى امرتنا باحضاره يا سيدي .

فاهتز الحكمدار فى مقعده وقال محنقا : هل انت مجنون ؟ . أهذا هو الرجل المطلوب ؟. اقرأت الاوصاف التى أعطاها الشهود فى أقوالهم ؟.

وتناول ورقة من فوق مكتبه واردف . ها هى الورقة .. خذها واقرأ وقارن .. الطول أكثر من ست اقدام .. الثياب ثياب فلاح بريتونى ..

فقاطعه الضابط محتجا : ولكننا يا سيدى قد اعتقلنا المتهم فى ذات الغرفة من ذات الفندق الذى قيل ان الغريب نازل فيه .. وفضلا عن ذلك فانى سألت المتهم فأكد لى انه هو الشخص المطلوب

وقال الحكمدار المحنق ، يلوح لى انك غبى ايها الضابط .. فمن يدريك انه لا يضللنا بهذا الاعتراف ؟!

ثم التفت الى فريكيه الذى كان يسحب مقعدا ببرود ليجلس عليه وانتهره بخشونة قائلا :

ـ يا هذا .. ماذا تفعل ؟

ـ لا شيء سوى انى منتظر حتى تفرغ من حديثك الذى لا افهمه سع هذا الضابط .. فانت تتهمه على ما يلوح لى بأنه قد ارتكب خطأ شنيعا ، بينما هو لم يخطىء قط ، وأؤكد لسيدى اللورد اننى انا بالذات الشخص الذى كلمك بشأنه جلالة الملك

ـ ولكن الاوصاف لا تنطبق ..

فهتف الباريسي القصير بصبر نافذ واى اهمية لهذه الاوصاف مادمت اقرر لك اننى أنا الشخص المطلوب ؟! صحيح انى لا ابلغ ست اقدام ، ولكن بوصة أو بوصتين ليست بالفرق الكبير كما تظن .. أما أمر الثياب فانى قد استبدلتها اليوم لابدو بالمظهر اللائق ..

ـ هل تريد ان تقول انك ..

ـ اننى أنا نفسى .. بل اقرر بملء صوتى اننى فخور بأن أكون من انا

فغمغم الحكمدار وهو يضطرب فى مقعده : هكذا اذن انتمزهو بما فعلت ؟

ـ بالطبع ، فانى لست بالمهندس الحربى الناشىء ، ولكن انتظر يا سيدى حتى ترى الخطوات التى سأخطوها بعد ذلكوأنا لك زعيم بأنها ستبهر بصرك المستنير المثقف

والتفت الحكمدار الى الحاجب وأمره باستدعاء الكاتب وجاويش السجن صاحب النوبة ، حتى اذا جاءا وجه الحكمدار الحديث اليهما قائلا :

ـ استعد ايها الكاتب لتدوين اقوال هذا الرجل ، وانتأيها الجاويش قف الى جانبه لحراسته

فنظر فريكيه اليهما فى دهشة وقال :

ـ ما هذا ؟.. اقوال ، وكاتب ، وجاويش !.. اننى لا افهم معنى لهذه التصرفات !

وقال الحكمدار بلهجة رسمية جافة :

ـ أيها المتهم .. هل تعترف بأنك خالفت عمدا ومع سبق الاصرار نصوص القانون الذى أصدره مولانا الملك .

ولاول مرة بدت علائم القلق على فريكيه وهتف :

ـ نصوص القانون ؟ .. أى قانون ؟ .. هل أنا فى حلم ؟.. أم تراك أنت يا سيدى اللورد قد أصبت بضربة شمس ؟

ـ القانون الخاص بتحريم المبارزة وقد وضعت نصوصه على عهد المغفور له الكردينال ريشيليو ، وصادق عليه المأسوف عليه الملك لويس الثالث عشر ، ثم جدده مولانا الملك الجالس الان على

العرش .. والتهمة الموجهة اليك هى مخالفة هذا القانون بأن تبارزت بالسيف مع الملازم بريجى الذى لا يمكن تقديمه للعدالة نظرا لموته فى المبارزة .. ومثل التهمة الموجهة اليك ليس لها من عقوبة أقل من الاعدام ..

ورغم شجاعة فريكيه .. فان ساقيه خذلتاه وسقط على المقعد الذى حاول الجلوس عليه عند دخوله .. وغشيت عينيه سحابة رأى من خلفها شبح الجلاد رافعا بلطته استعدادا لتنفيذ حكم الاعدام فيه

واستطرد الحكمدار : والمطلوب منك هو التوقيع على هذه الاقوال اذا كنت انت المجرم ، فانك قد تكون متفقا مع المجرم الحقيقى على تضليل العدالة حتى يكسب وقتا يستطيع خلاله اجتياز الحدود ..

وأرسلت هذه الفكرة شعاعا من النور أمام الباريسى وخطر له أن بضعة أيام يقضيها فى السجن قد تتيح فرصة أمام جويل ليفر الى موطنه .. فاذا ما حكم عليه بعقوبة بعد ذلك جزاء تهمة التضليل ، وهى لن تكون اكثر من السجن بضعة أشهر فى تقديره فانه يكون قد انقذ عنق صديقه من سيف الجلاد ، ويكون بذلك قد وفى دينه حين أبقى جويل على حياته فى المبارزة التى جرت بينهما .

وما ان استقر رأيه على هذه الفكرة حتى رفع رأسه فى كبرياء وطلب قلما للتوقيع به على أقواله

ولكن حدث فى تلك اللحظة ان سمعت ضوضاء شديدة خارج الغرفة وصوت يدوى قائلا :

ـ أقول لكم يجب أن ارى المسيو لارين فى التو واللحظة ، وسأراه على الرغم منكم ولن تحولوا بينى وبينه ولو كنتم خمسمائة من الابطال

وقعقعت الاسلحة وتتابعت حركات الاقدام ثم فتح الباب بعنف وظهر ابن بورتوس واقفا على عتبته يحجب هيكله الضخم كل ما وراءه .

وتقدم جويل رغم المحاولات الفاشلة لمنعه حتى وقف امام الحكمدار وقال :

ـ سيدى ، اننى اعلم كل ما يجرى هنا الان ، فهذا الصديق الوفى يريد ان يضحى بنفسه من اجلى ، ولكنى لا اقبل هذه التضحية .. فاننى انا الذى أرتكبت المخالفة لقانون تحريم المبارزة بامتشاق حسامى فى غابة سان جرمان ، وقد ذبحت به الملازم

بريجى .. فاذا كان الملك قد طلب رأسى فهأنذا احضره اليه على كتفى .. ولكنى ألتمس من عدالتكم أن تطلقوا سراح صديقى هذا الذى ليست جريمته على أسوأ تقدير الا الشجاعة والوفاء لصديقه
وتأثر حكمدار البوليس بسلوك البطل وقوله وفعله فاجابه :
ـ سنجيبك الى ملتمسك يا هذا
ثم التفت الى فريكيه واردف : انت حر .. ولك ان تذهب
فارتمى القزم بين ساعدى العملاق وهو يقول :

جويل .. جويل .. لماذا اتيت ، ولم لم تترك الامور تسير فى طريقها ؟.. لماذا تحرمنى السعادة بوفائك جزءا من دينك الذى فى عنقى .
وخفض الضابط بصره حين التفت اليه الحكمدار قائلا
ـ هذا هو الرجل الذى كان يجب عليك احضاره ولو ان ذلك كان يحتمل ان يكلفك حياتك
وتقدم اثنان من الكونستبلات فجرد احدهما جويل من سيفه والقى عليه الثانى صيغة الامر باعتقاله
وبعد ساعة برح ابن بورتوس سجن شاتيليه فى خفارة حارسين حيث نقلته احدى مركبات السجن الى الباستيل

الفصل العاشر

دب دبيب الحياة والنشاط فى سان جرمان بعودة لويس الرابع عشر وحاشيته اليها منذ نحو شهر ، وظلت مونتسبان متمتعة بالمقام الاول لدى الملك الذى أنعم على مربية اولاده من عشيقته بلقب المركيزة سوجير فأثار هذا الانعام السامى ما هو جدير به من حديث وتهامس بين سيدات البلاط ونبيلاته

أما الرجال ، وخاصة رجال الحرس والفرسان ، فلم يكن لهم من حديث الا المبارزة التى جرت بين جويل والملازم بريجى ، فتضاربت آراؤهم بشأن المعاملة التى عومل بها جويل ، وانقسموا فريقين احدهما مستنكرا سجنه بينما هو لم يفعل الا ما يفعله كل رجل شريف لا مناص له من مقابلة التحدى بمثله وخاصة لما أشتهر به الضابط القتيل من خلق سيء وادمان للخمر والمقامرة ، بينما يرى الفريق الاخر ان قانون تحريم المبارزة واجب الاحترام ، وقد لقى القتيل جزاءه الحق فلم يبق الا القاتل ، وهو جدير بأن يعدم جزاء مخالفته هو الاخر لذلك القانون
وفيما كان ضباط الحرس والفرسان واقفين يتناقشون فى

هذا الامر فى ردهات السراى الملكية فى شأن جرمان ، كان الدوق دالميدا يسير ذهابا وايابا مستندا الى ذراع بزلوريه ويقول له :
— انه لمن المحزن حقا ان تذهب جميع جهودنا هباء فى البحث عن هذه الشابة الحسناء .

وقال بزلوريه : هل خطر لسموك بحث هذه النقطة ، وهى ان قريبتها فى شارع تورنيل لا يلوح عليها اى انزعاج بسبب غياب الفتاة !.. الا ترى معى سموك ان تلك القريبة لابد عالمة بالمكان المختفية فيه قريبتها الشابة ؟

فأجاب اراميس : نعم ، انى معك فى هذه الفكرة ، وقد حاولت معرفة مكان الفتاة من تلك الناحية ففشلت هذه المحاولة مثل سابقاتها .

— الا يحتمل ان تكون المدموازيل ترمبلاى قد عادت الى موطنها ؟

— تعنى الى آنجو ؟.. لقد جاءنى الرد صباح اليوم على خطاب بعثت به الى هناك مستفسرا عن ذلك ، وقد أكد الرد انها لم تعد اليها منذ حضورها الى باريس.. الا لعنة الله على ذلك الفتى !

— اى فتى يا صاحب السمو؟

— ذلك العملاق البريتونى الذى رأيته معها فى صومور ، فانه كما علمت هو الذى افسد علينا تدبيرنا باستعادتها من ايدى رجالنا وهم على وشك وضعها فى المركبة .. ومع ذلك فلست ادرى يا بزلوريه لماذا يخيل الى احيانا انى لا اكره ذلك الفتى !.. واذكر انى عندما وقع بصرى عليه أول مرة سرت فى تلك الرعدة الباردة التى يقول الروحانيون انها تدل على ان الانسان انما كان يسير على قبر وقت شعوره بها ! وكذلك فاز هذا الفتى باعجابى الشديد بسلوكه معى ونحن فى صومور ، وذكرتنى هيئته يومئذ بصديق عزيز قديم طالما سكبت الدموع لذكراه .. ولقد وددت لو قدمت لهذا الفتى كل ما بوسعى ان اقدمه له من مساعدة لولا اعتراضه طريقى وعرقلته خططى ومشروعاتى مما يسلكه فى صفوف اعدائى الذين لا مناص لى من التخلص منهم ولو بقتلهم .

فقال بزلوريه : ولكن ألم يختف هذا الشاب ايضا ؟

— نعم ، ولعل اختفاءه فى نفس الوقت الذى اختفت فيه الفتاة دليل على انهما قد فرا معا .. ولكنى سأعثر عليهما و ...

واسترعى نظره فى تلك اللحظة ما وقفه عن اتمام حديثه وقال:
— ما هذه الحركة السريعة التى تجرى هناك ؟.. هل الملك قادم يا ترى ؟

فنظر بزلوريه صوب الجهة التى اشار اليها الدوق واجاب !
ـ كلا يا سيدى الدوق . بل القادمة هى المركيزة مونتسبان ، والى جانبها سيدتان احداهما هى الارملة سكارون ، و .. و .. والاخرى ..
ـ احدى شقيقاتها طبعا
ـ كلا .. ولكن هذا مستحيل !.. هل انا فى حلم ؟
قال دالميدا : ماذا حدث ؟ ومن رأيت ؟
وتريث بزلوريه قليلا وهو يحدق فى رفيقة المركيزة مونتسبان، ثم قال اخيرا :
ـ لاشك انها هى بعينها الفتاة التى قلبنا الارض بحثا عنها ولم نجدها .. أجل . انها المدموازيل دى ترمبلاى !
وهتف الدوق فى دهشة المدموازيل دى ترمبلاى !
ورفع يديه فحجب بهما الضوء عن عينيه اللتين صوبهما الى مشيقة الملك ورفيقتيها ثم ما لبث ان قال :

ـ اصبت يا بزلوريه ، فانها هى .. وحقا لقد صدق من قال « ان الحقيقة اغرب من الخيال » ..
وفى الحق كانت اورورا بذاتها هى التى لفتت اليها انظار رجال البلاط الملكى وسيداته الذين كانوا متناثرين فى الردهة الكبرى مؤلفين حلقات كثيرة هى اجلى مظاهر النشاط فى القصور الملكية حيث يكون الملك .
وما هى الا برهة حتى سكتت الحركة واصطفت الحاشية صفين حين نادى المنادى :
ـ ايتها السيدات .. ايها السادة . جلالة الملك !
وهبط لويس الرابع عشر الدرج متباطئا وفى يده عصا ؟ لا ليتوكأ عليها وانما استكمالا لمظاهر الابهة . والعظمة حيث كان مقبضها محلى بانفس الجواهر .. والاحجار الكريمة .

وكانت تلوح على محياه. امارات الجد والتفكير وطول التأمل وسرعان ما اعطى اشارة بانه راغب فى الانفراد بمدام مونتسبان حتى تأخرت الحاشية وابتعدت عن الملك .

وما ان رأت رفيقتا المركيزة ان الملك مقبل نحوها حتى همتا بالتراجع الى الوراء، ولكنها استبقتهما الى جانبها باشارة من يدها ، وخاطبت الملك فى غير كلفة وباسلوب لم يكن ذلك العاهل يسمح لغيرها من اعظم رجال مملكته ان يخاطبه به لتمسكه الشديد باداب السلوك مع الملوك ..

قالت : مولاى ، ان المركيزة سوجير ترجو ان تسمح لها بتقديم شكرها الى جلالتك على الانعام السامى الذى تفضلت به عليها .

وانحنت الارملة سكارون وقالت : ارجو ان تتنازل يا مولاى فتسمح لاشد عبيدك تمسكا بالولاء لعرشك ان تعرب عن شكرها الذى لا يوصف على ما أوليتها من نعمة جديدة من فيض انعمك التى لا تفتأ تتفضل بها عليها يا اكرم الملوك وأعظمهم .

فأجاب الملك لقد كافأتك يا مركيزة جزاء ما شعرت به من عنايتك الفائقة باولادى الذين يعتبرونك كما أعلم امهم الحقيقية .

وكانت هذه طعنة صريحة لمونتسبان ، ولكنها تلقتها بابتسامة وهى تعبث بمروحتها .

ثم التفت الملك اليها وقال : فلنتحدث الآن عن انفسنا .

فسارت المركيزة الى جانبه فى هدوء تام وصمت مطبق على عكس الملك الذى كان مضطربا فلم يبدأها بالحديث حتى كان قد استجمع شجاعته وقال :

ـ بملء الاسف يا سيدتى القى اليك بما استقر عليه رأيى بشأن علاقتنا التى يجب ان نعالجها من الآن فصاعدا بمنتهى الحذر ، حيث ان المرض قد اشتد على الملكة ، ويفضى على واجبى بأن ارفه عنها بالابتعاد عن اتيان ما يضايقها حتى تستجم وتستعيد صحتها .

فعادت الى العبث بمروحتها وقالت يلوح لى ان اطباء الملكة هم الذين اشاروا على جلالتك بهذا الرأى .

ـ كلا ، وانما هو ضميرى الذى اوحى به الى .

فلم تجزع العشيقة الملكية من الكارثة الوشيكة واجابت :

ـ بما انك قد استقر رأيك على هذا فلم يبق لى الا ان اهنئك على هذه الحكمة العالية التى طالما تاقت نفسى لتحقيقها حتى يتاح لى التكفير عما ارتكبته من خطأ دينى ما فتىء يثقل على ضميرى ، فضلا عما فيه من خروج على فضائل الانسانية .

فاجفل الملك وهتف : هل تعتزمين اذن ان ..

ـ أن أذهب ؟. نعم يا مولاى .. سأكون البادئة لأوفر عليك عناء طردى .. سأدخل الدير فى (كلاجنى) لتصفية نفسى من ادران هذا العالم ، وأحاول تمضية ما بقى من ايامى منصرفة الى الصلاة والعبادة حيث أننى لم اعد مسئولة حتى ولا عن

اولادى الذين ذكرت جلالتك منذ لحظة انهم مرتاحــون الى رعاية امهم الثانية .
وكان الملك لا يحب ان يعلم ان احد من رعاياه ، ولاســـــيما عشيقته ، يستطيع ان يستغنى عن جلالته .. فاحنقه ما شاهده من هدوء مونتسبان وعدم مبالاتها بفراقه وتوعدها بنســـــيان كل انسان فى هذا العالم ، فسألها :
ـ انت تريدين اذن ان تنسى جميع من عرفتهم ؟
ـ بلا استثناء .
فعبث لويس بعصاه فى الارض ثم رفع رأسه فى كبرياء وقال :
ـ كفى !. وتستطيعين الذهاب فى اى وقت شئت.
فقالت :سأذهب بعد ان اؤدى واجبا هو الوحيـــــد والاخير ، فأنى اريد ان تشمل بحمايتك شخصا جديرا بأن يناله عدل جلالتك لانه مظلوم .
ثم اشارت الى اورورا التى اطاعت وتقدمت فى حيــــــــاء فاستطردت المركيزة :
ـ مولاى ، هذه السيدة الشابة هى ابنة واحد من خـــدمك القدماء المخلصين ، وما فتىء بعض الاشرار يتعقبونها ، ولعـــــلهم يريدون ان يثأروا منها اذ هى ابنة المحافظ الاسبق لســــــجن الباستيل ، وهى ترجو ان تتمتع بعدل وحماية جلالتكم .

وكان الملك خلال هذا الحديث مدمنا النظر الى اورورا وقـــد أخذ بمظهرها البرىء ونظراتها الصافية .. ولم يفت على مـدام مونتسبان ادراك ذلك فالتمعت عيناها ببريق الرضا والارتيـــاح واردفت :
ـ مولاى ، لقد كادت هذه السيدة ان تذهب ضحية محــاولة اثيمة لاختطافها فى شوارع باريس ، ولم تنج منها الا باعجوبة .. وهاهى ستروى لجلالتكم تفاصيل الحادث كما وقع
واوجزت الفتاة سرد الحادث فى كلمات قليلة

فقال الملك : والذى نفسى بيده لابد من معاقبة مقترف هذه الفعلة كائنا من كان ، وسأصدر أمرى الى حكمدار البـــــوليس للبدء حالا فى البحث عنه .
وقالت المركيزة : ومع ذلك فأنى ارجو ان تتخــذ الاجراءات لحمايتنا فى الطريق ، لانى معتزمه ان آخذ هــذه الفتاة المسكينة معى الى دير كلاجنى .
فمسح الملك بيده على رأس اورورا فى عطف ابوى وقال :

ـ اطمئنى يا مركيزة ، فان هذه الفتاة فى رعايتى من الآن ؟ والويل لكل من تحدثه نفسه بأن يمسها بسوء

فتمتمت اورورا بما استطاعت من الفاظ الشكر ، بينما ظل الملك يرمقهابنظرات ملتهبة حتى غمغمت المركيزة محدثة نفسها : « لقد بدأ السمك يداعب الصنارة ».

واخيرا نظر الملك الى المركيزة وقال

ـ اذا لم يكن بد من ذهابك ، فلا أقل من ان تسمحى لى بزيارتك فى بعض الاحيان ، مهما يكن فى ذلك من عدوان على عزلتك المختارة .. وفضلا عن ذلك فانه يجب عليك ان تعودى الى هنا بعدما اسكت تلك الالسن الطويلة وأضرب على أيدى مروجى اشاعات السوء .. ولتكن عودتك تلك لتبرهنى لفتاتك ، على الاقل ، انك لم تنسيها .

فتنهدت تنهدة عميقة اخفتها وراء مروحتها وقالت

ـ اذا راق لجلالتك ان تدمج المدموازيل دى ترمبلاى ضمن الحاشية الملكية فليكن هذا من الآن ، فانى لا أطمئن الى وجودها وحدها فى باريس بعد سفرى .

فوعدها الملك بتحقيق رجائها . وحول وجهه اذ كادت تطفر من عينه دمعة .. ولكنها دمعة الفرح والانتصار !

وترك الملك السيدتين وسار حتى وصل الى درابزون فوقف بجواره وارتفق بساعديه فوقه وغاص فى تأملات وأحلام لذيذة .

وفيما هو كذلك .. اذا بصوت كأنه صادر من بطن الأرض يهتف همسا فى اذنه :

ـ تالله ان هذا الجمال ملائكى !

فالتفت الملك بسرعة واذا هو وجها لوجه امام الدوق دالميدا ؟ فتجهم وجه الملك وقال :

ـ عمن تتكلم يا دوق ؟

ـ عن السيدة التى نالت منذ لحظة شرف التحدث الى جلالتكم .

ـ آه . حقا ؟ لقد اعلنت لى مدام مونتسبان الآن انها تعتزم الاعتكاف فى دير .

فقال أراميس : بل عن الأخرى اتكلم يا مولاى ، تلك الشابة الصغيرة التى تحاكى الملائكة ، فان المدموازيل دى ترمبلاى ..

ـ انت تعرفها اذن ؟

ـ وانا سعيد بذلك . فهى بعد اذن جلالتكم انبل الفتيات واشجعهن واصدقهن ايمانا .

فصمت الملك هنيهة ثم قال :
ـ أحسبك تريد ان تقول ان المدموازيل ترمبلاى ...
ـ نعم ، فهى تنحدر من اسرة عريقة فى آنجــو برهنت فى مناسبات عديدة على ولائها للعرش ،وهى جديرة لاسمها ولصفاتها ولسجاياها بأى فضل يتعطف الملك به عليها
ـ ولكنها الان لا تطلب شيئا غير حمايتها ..
حمايتها ؟.. كأنما يمكن ان يكون للملائكة الاطهار اعداء !

ـ لقد ذكرت لى اللحظة ان مجرما اثيما حاول اختطافها ولكنها لا تعرف من هو هذا المجرم ، ولذا سأصدر أمرى فى الحــال بالبحث عنه وعقابه على ما جنت يداه
فلم تطرف عين الدوق دالميدا ، بل قال فى دهشة وحماسة :
ـ حقا يا مولاى اننى اضم صوتى الى صوتها فى شكر جلالتكم على هذه العناية لاكتشاف هذا المجرم الزنيم ...
فتنهد الملك وقال : آه لو كان عمرى نصف ما هو الآن ،فليس أسعد للانسان من ان يحب ويكافىء ويعاقب بيده هو لا بيد غيره!
ـ ان جلالتك الآن فى ربيع العمر وفتوة الشــباب ، فلا تدع سبيلا الى الافكار السوداء تتطرق اليك ، ولعل خير ما تلجأ اليه لطرد تلك الافكار هى وصفة (دون جوان) القائلة بان العــلاج من اوجاع القلب التى تجلبها احدى السيدات لا يكون الا بالالتجــاء الى أوجاع القلب التى تجلبها سيدة اخرى .
قال الملك : حسنا . ولكن هذه النصيحة يا دوق ، لا تتفق مع آراء رجال الكهنوت الذين كنت تنتمى اليهم يوما ما !

ـ هذه هى الحقيقة يا مولاى . ولكن السبب فى ذلك هــو انى قبل ارتداء مسوح الرهبان كانت تظلل حاجبى القبعة ذات الريشة الحمراء وأنا فى عــداد فرسان المأسوف عليــه والدك .. ثم ان جلالتك اذا سمحت لى بالثرثرة شأن العجائز الذين فى سنى،فانى قد أصرح بانى اعجب بذلك السيد الريفى الذى برم بتيه خادمتــه وتدللها عليه بادر الى استبدالها بأخرى اكثر من الاولى رقة واخف ظلا .. ولو ان الملك انزل بى عقابه جزاء افراطى فى اســـتغلال عطفه ، لما منعنى ذلك من القول بأنى اعتقد ان المركيزة مونتسبان هى السبب فيما يبدو اليوم على جلالتكم من آثار غير سارة ، وما كان ينبغى لها ان تتمادى فى غيها ..وهى كلمة وان تكن شديدة فانها هى الحق ـ الى حد ان تعترض سبيل جلالتكم فى العمــل على اسعاد الملكة وابلالها من مرضها .. وان المركيزة يا مولاى ما كــان

ينبغى لها أيضا ان تتخذ من عطف جلالتكم اداة لمرضاة نفسها دون مرضاتكم ..
فتنهد الملك وقال . ليس بمثل هذا كانت تحبنى المسكينة لافالير ، ولا فونتانيه ..
وأجاب سفير اسبانيا : اننى لم اعلم كيف ماتت مدموازيل لافالير ، لانى لم اكن وقتئذ فى ارض فرنسا الطيبة . اما فيما يتعلق بالضحية البريئة فونتانيه التى قضت بالسم لانها كانت تحب جلالتكم حبا يفوق كل حساب ولا ينتهى الى غاية ..
ونظر الملك الى محدثه فى شىء من الرهبة وقال :
ـ لقد كان موتها لغزا من الالغاز المغلقة يا دوق
مولاى ، أن النظرية القضائية القائلة بوجوب اتجاه البحث والاشتباه نحو من يستفيد من الجريمة . تنطبق هنا كل الانطباق ... ولكنى لا اكثر من الكلام فى هذه الناحية نزولا على الحكمة السامية التى قضت باسدال الستار على هذا الحادث الوحشى ، وانما سأقتصر على الابتهال الى الله ان ينزل رحمته ويغمر برضوانه تلك الضحية البريئة التى لا تزال روحها تطالب لها بالانتقام .
فهز الملك رأسه وقال : آه ! واين يمكننى العثور على مثلها !؟
فقاطعه الدوق العجوز بسرعة : لا تقض يا مولاى على الجنس كله واشكر الله انهن لسن جميعا ذوات اطماع وجشع مثل حفيدة آل مورتيمر (مدام مونتسبان) .. فان كثيرات منهن لا يعرفن عن الحب الا انه تضحية كاملة دائمة مطلقة وانكار تام للذات ورغبة عن الافادة من شخص المحبوب . وهؤلاء يجدن السرور كل السرور والفخر غاية الفخر فى أن يرين اعظم ملك فى العالم يسكن اليهن فى هدوء بعيدا عن أعين المتطلعين والرقباء ليستروح لحظة من عناء منصبه السامى ومتاعبه الملكية..وحسب السعيدة التى تنال مثل هذه الحظوة لدى مليكها انها الزهرة المختارة من بستان الزهور التى لا تتفتح اكمامها الا اذا سطعت عليها شمس الملك ، واسبغ عليها الحياة من بسماته .
ودلت هيئة الملك على انه يطلب المزيد من هذه الكلمات ولكن أراميس الداهية . أجاب على هذه الدعوة الصامتة بالعبارة الآتية :
ـ آه يا مولاى .. لقد انتهيت من موعظتى التى اخشى ان تكون قد شغلت كثيرا من وقت جلالتكم .. وسيتهمنى الوزراء بأنى اقيم العراقيل فى طريق شؤون الدولة .

فقاطعه الملك : لكل شيء وقته يا دوق ، ولا يزال لدى سؤال أريد ان اوجهه اليك .

ـ اننى رهن اشارة جلالتكم دائما

ـ هل هنالك من اقارب لهذه الفادة الحسناء ؟

ـ وا أسفاه يا مولاى !. انها يتيمة وفى حال يرثى لها . ومن أجل ذلك أناشد التفات جلالتكم السامى .

ـ سأوليها كل التفاتى .

ـ ان هذه الفتاة يا مولاى ، ولو انها لم تكل الى امر التوسط لها قد برحت موطنها فى (آنجو) قادمة الى باريس لتناضل فى قضية مشكوك فى نتيجتها ، ويتوقف على ربحها اياها كل ثروتها ومستقبلها هى وشقيقها وشقيقتها الصغيرين ، حتى انها تكاد تكون منهما بمثابة الام وهى رغم فقرها غنية النفس ، ومن ثم كان ما توسل به من اجلها ، فانها لو اتيح لها ان تشغل أى منصب بالقرب من شخصكم العظيم لأمكنها ان تقوم على شئونها وشئون اخويها الصغيرين .

فانبسطت اسارير الملك وقال : لقد اجدت التعبير يا دوق ، وشرحت قضيتها احسن شرح . ولدينا فى الوقت الحاضر منصب خال لقارئة للملكة ، وسأعهد به الى مدموازيل دى ترمبلاى .

فانحنى دالميدا وقال : مولاى ، ان المرء لا يمكن ان يمكث فى أى وقت فى حضرة جلالتكم الا ويجتنى فى كل لحظة الوانا من الخير العميم .

ـ تستطيع الفتاة ان تبدأ عملها فى الحال . وسأخاطب الملكة من فورى فى هذه المسألة ، وعندما تزورنا هذا المساء ستسمع من الملكة الانباء السارة بشأن يتيمتك النبيلة . . والى اللقاء يا عزيزى الدوق .

فذكر أراميس الملك وانحنى وانصرف وقد لمعت عيناه بوميض عجيب لسماعه عبارة الملك الاخيرة .

وعندما وضع يده فى يد بزلوريه مرة اخرى سأله هذا :

ـ حسنا يا سيدى الدوق . هل الامور سائرة فى مصلحتنا ؟

فابتسم الدوق واجاب :

ـ وحقك ليس هناك ما يدعو الى التشاؤم ، وليس ببعيد ذلك اليوم الذى يتم لنا فيه النصر الحاسم .

الفصل الحادى عشر

جلس رهط من سيدات البلاط حول مائدة اللعب فى القاعة الجنوبية الجميلة من السراى تتوسطهن الملكة ماريا تريزا وكانت الملكة قصيرة بدينة ، واذامشت او رقصت تخاذلت ساقاها فبدت أضأل من حقيقتها . وقد تلفت اسنانها من الافراط فى أكل الشيكولاتة .. وكانت تعبد زوجها ، ولايغيب عن عينيها كلما اجتمعا فى قاعة واحدة ، فاذا ابتسم لها قضت اليوم كله سعيدة ، واذا زاد عطفه عليها عن ذلك سارت متنقلة من حلقة الى حلقة وهى لا تفتأ تعلن سرورها الى كل من يقابلها ..

وكان مدار الحديث فى مختلف الحلقات المتناثرة فى القاعة يجرى فى همس حول اقصاء العشيقة الملكية او نفيها على حد تعبير بعض السيدات بينما جلست المركيزة لا تطرف لها عين ولا يبدو عليها اى أثر للحزن وقد توسطت طائفة من صديقاتها المخلصات لم تكن بينهن الارملة سكارون التى عادت الى باريس لمواصلة الاشراف على ابناء الملك من عشيقته .. اما اورورا دى ترمبلاى فقد جلست وحدها بجوار نافذة تنظر دون ان ترى وتستمع الى الحديث الدائر دون ان تعنى به .

وصاح احد الاتباع : جلالة الملك !

ودخل الملك ومعه وزير حربيته (لوفوا) ، وانحنت جميع الرؤوس تحية للعاهل العظيم الذى لم يبدأى أثر للغضب على محياه ، وكان سلوكه يدل على الرضا والعطف ، وقال للملكة التى همت بالنهوض :

ـ لا تجعلينني افسد عليكن ما انتن فيه

والتفت الى وزير حربيته واردف :

ـ ماذا كنت تقول يا مستر لوفوا ؟

ـ مولاى ، اتشرف بابلاغ جلالتكم ان الدوق لورين قد دخل على رأس جيشه مدينة فريبرج حيث يهدد منها مراكزنا المحصنة فى الالزاس ، وأصرح لجلالتكم مع الاسف ان حاميتنا هناك غير كافية لان جنودنا لم يتسع لها الوقت لعبور نهر الرين فى عودتهم من الفلاندرز .

ولم يكن الملك ملقيا باله الى هذا الحديث ، لان التفاته كان قد تبع بصره الى مكان آخر ، حيث كان قد اكتشف اخيرا موضع المدموازيل دى ترمبلاى ، فعجل بمقاطعة الوزير قائلا :

ـ حسنا جدا ، سنجتهد فى اجتماع المجلس غدا ان نعالج هذه المسألة .

وفى خلال فتره الصمت التى تلت ذلك ، انسلت مونتسبان من بين حلقة صديقاتها ، وعبرت القاعة بخطوات ثابتة وهى تصعد الناظرين اليها بكبرياء احتقار الاعداء وكان أكثر الموجودين والموجودات فى عداد هؤلاء بالنسبة اليها . وعندما وصلت الى مائدة اللعب انحنت امام ماريا تريزا وتكلمت فى بطء وهدوء قائلة :

ـ هل تسمحين لى جلالتك بابلاغك عزمى على مبارحة البلاط والاعتكاف فى ضيعتى فى كلاجنى ؟

فاجابت ابنة الملك فيليب الثانى وقد استطاعت الى حد ما ان تخفى مظاهر الفرح من وجهها ومن صوتها :

ـ ليس من حقى يا عزيزتى المركيزه ان امنعك من عمل ما تشاءين ، والملك وحده هو الذى له الحق فى ان يستبقيك او يمنحك الاجازة .. ولاشك ان جلالته الذى لابد انك استشرته قبل مجيئك الى قد ابلغك ارادته التى هى منبع الحكمة أياكانت .

فعاودت المركيزة الانحناء ولما تفارقها ابتسامتها وخطت خطوة الى الوراء لتعود من حيث أتت ولكن الملكة استوقفتها واردفت :

ـ لقد قيل لى انك تقدمت الى جلالة الملك بتوصية حارة على سيدة شابة يتيمة نبيلة .. واننى اريد ان اصنع شيئا لها .. فهل هذه هى مدموازيل دى ترمبلاى الواقفة هناك ؟

فأشار اليها لويس وقال بلهفة انها هى

ومن ثم اشرأبت الاعناق وتحولت الانظار صوب الفتاة

وخاطبتها الملكة قائلة : اقتربى ايتها السيدة

وفر لون المركيزه ، وبدرت منها حركة كأنما ارادت بها ان تحول بين اوورا وبين الملك ، وقالت بصوت يتنازعه الغضب والدهشة :

ـ مولاتى، ان مدموازيل دى ترمبلاى فى غير حاجة الى مساعدة فانى احمد الله ..

فقاطعتها ماريا تريزا ببرود : لا تخافى شيئا يا مركيزة فانها من الآن فى عداد حاشيتى ، وستشغل المكان الذى خلا بذهاب مدام اوجبير ، وستسلمها كبيرة الوصيفات عملها من باكر .

فلم تنبس العشيقة المنبوذة بكلمة ، لانه كان يستحيل عليها

ان تجادل فى أمر اصدرته الملكة ، ولكن ذلك لم يمنعها من ان تبدو كالحية الرقطاء الجريح .

وفى الوقت نفسه فان اورورا مهما يكن من دهشتها من هذه المنحة المفاجئة ، تقدمت وركعت على ركبتيـــــها امام ماريا تريزا وغمغمت :

ـ أواه ، ماذا فعلت يا مولاتى لاستحق هذا الشرف ؟

فتناولت الملكة يدها وساعدتها على النهوض وقالت :

ـ انهضى ايتها الصغيرة وتمالكى نفسك . فلقد نبئت ان اباك لم يترك لك شيئا على الرغم من خدمته الطويلة للدولة باخلاص . وأن ما امنحه اياك ، بموافقة جلالة الملك وبأمره ، ليس احســـانا كما قد يخيل اليك ، وانما هو خطوة اولى فى سبيل تعويضك عما فاتك من عطف انت به جديرة .

ثم التفتت الى كبيرة وصيفاتها واردفت :

ـ يا دوقة فلتقم مدموازيل ترمبلاى معك حتى يتم اعــداد الجنح الخاص بها .

وسارت المركيزة مونتسبان صوب الملك بعينين ينبعث منهما لهيب ازرق ، وقالت بصوت خرج من بين اسنانها كفحيح الافعى :

ـ حسنا فعلت يا مولاى ، ولكن هذه ليست اخر ورقة فى يدى !

فأجابها الملك حقا لست افهمك!.. الم تتوسلى الى ان اشمل هذه الفتاة برعايتى ؟.. فماذا كنت افعل احسن من وضـــعها تحت كنف الملكة ؟!

وابتعدت المركيزة وقصد الملك الى حيث كانت اورورا واقفــة وحدها فحياها باحترام وقال :

ـ حسنا . هل انت راضية ايتها السيدة ؟

فغمغمت ببضع كلمات على سبيل الشكر ولكنه قاطعها واردف :

ـ لست انا الذى ينبغى لك ان تشكرى ، وانما هو صـــديقك الذى هيأ لى بتوسلاته الحارة فرصة البدء باصلاح هــذا الاهمال الذى كاد يصل الى درجة الخطأ .

وخطا خطوة جانبية فكشف من خلفه عن أسقف فانيه السابق فهتفت اورورا متعجبة : الفارس دربلاى !

وابتسم النبيل العجوز وقال يصحح لها خطأها :

ـ بل الدوق دالمبيدا ، سفير أسبانيا .. الم اعدك فى فنــدق « السمكة الذهبية » بأننا سنلتقى مرة أخرى ؟

ـ انت اذن من ادين له بهذا الشرف ؟
فتناول يدها ولثمها وقال
ـ انا خادمك المطيع ، او صديقك المخلص اذا رأيتنى جديراً بهذا اللقب ، طبيبك الخاص اذا لم تكونى قد نسيت بعد حادث صومور .
ـ وكيف يمكننى ان انسى ؟
ـ حسنا . فبما يخولنيه ذلك الحادث امنعك من اظهار امتنانك لى بأى حال فى الوقت الحاضر ، ولن يتعذر عليك تعويض عن ذلك شيئا فشيئا عندما اصنع لك كل ما اريد ان اصنعه .. وانما لا بأس من ان تسمحى لى مؤقتا بان اتحدث اليك بضع دقائق ، ليس هنا ولا فى هذا المساء ، ولكنى اريد محادثتك على انفراد ، ولا يمكن ان يكون ثمة خطر من عجوز مثلى !
واستجمعت اورورا افكارها فى برهة قصيرة ثم قالت :
ـ سيدى الدوق ، سأكون سعيدة بالاكثر ان نتبادل الحديث لان لدى ما اريد ان افضى به اليك ، وسيشجعنى على ذلك ما عاملتنى به من كرم دون ان تعرفنى .
فوضع اصبعه على شفتيه وقال :
ـ ليس الآن .. فأن هذا المكان لا يصلح لتبادل الاسرار .. وبما انك ستقيمين مع كبيرة الوصيفات ريثما يتم اعداد جناحك الخاص ، ولما كانت الملكة لا تستيقظ الا فى وقت متأخر ، فسأحضر فى صباح الغد لزيارتك .
وانحنى مودعا وما كاد يغادرها حتى لمست كتفه يد ما لبث ان تبين انها يد الملك الذى قال له :
ـ سيكون لدى ما احدثك به بعد مبارحتى مجلس الدولة فى صباح الغد ..

***

فى غرفة فسيحة فى الطابق الاول من جناح كبيرة الوصيفات ، جلست اورورا تنتظر السفير الاسبانى ، وقد اسندت مرفقها الى وسادة من المخمل فوق الاريكة التى جلست عليها ، وراحت تستعرض مامر بها من حوادث تشبه الاحلام منذ غادرت موطنها فى آنجو .
وكان قد مضى عليها شهر لم تسمع خلاله نبأ عن جويل . ذلك أن الارملة سكارون لم تخبرها بالحقيقة التى عرفتها هى ـ أى الارملة ـ عندما ساورها القلق فى اختفاء جويل فاوفدت تابعها اونورين الى فندق « المزمار المغربى » حيث روى له صاحبه كيف

القى القبض على الشاب واسباب ذلك القبض .. وكانت الارملة سكارون تعرف العقوبة الصارمة التى تقضى بها محكمة الشرف جزاء مخالفة قانون المبارزة فاشفقت من ان تدفع بالفتاة الى اليأس ، وربما الى الموت ، اذ اخبرتها بالمصير الذى خبأه القدر لخطيبها البريتونى .

وقدمتها المربية بعد ذلك الى المركيزة مونتسبان التى كانت تعرف ان مفاتنها لم تعد من القوة بحيث يمكنها الاستمرار فى بسط سلطانها على الملك ، فقررت ان يكون لها صوت فى اختيار خليفتها حتى تكون اداة طيعة فى يدها فلاتخسر بذلك شيئا من نفوذها . وخيل اليها ان اورورا العديمة الاقارب او الثروة او الاصدقاء ، هى خير من يقوم بهذا الدور ، ومن ثم كان تعجيلها بتقديم تلك الخدمة .

ولم يداخل اورورا أى شك فى ذلك التدبير ، بل هى قد تقبلت مساعدة عشيقة الملك بالامتنان ، وذلك على الرغم من ان ما تبادلناه من أحاديث لم يبعث فى احداها الرغبة فى أن تفضى بسرها الى الاخرى فراحت اورورا تخفى بكاءها على بطلها المفقود

وقطع عليها تأملاتها دخول خادم ليعلن اليها قدوم الدوق دالميدا ثم دخل هذا بنشاط ووجه طلق بشوش وسارع ليتخذ مجلسه بالقرب من الفتاة التى استقبلته واقفة فاشار اليها بالجلوس وابتدرها قائلا :

ــ مالى ارى هذا الحزن على وجهك الجميل يا ابنتى ؟.. ولم هذه الصفرة على خديك وذاك الاحمرار فى عينيك ؟. ايكون هذا حالك وقد نلت امس فقط شرفا تحسدك عليه سائر النساء ؟

فأجابت فى شىء من التردد : اننى حزينة يا سيدى الدوق لافتقار ما نلته من سعادة الى شخص معين ليشهدها .

ــ ولم هذا التردد فى مكاشفتى بآلامك وانا الذى كنت فى منصبى الدينى اسمع اعترافات أشد ايلاما مما قد تفضين به الى ؟. ام هل هناك من عار فى ان يعالج الانسان الحب ، والعالم كله على ذلك الحال ؟

فأخفت اورورا وجهها فى يديها وغمغمت :

ــ هل حذرت الحقيقة صدقا ؟

ــ وهل كان هذا الحذر بحاجة الى ساحر عظيم !. ان قسمات وجهك الصريح تنطق بجلاء بما يدور فى خلدك .

ـ سيدى الدوق ، اننى احب هذا الرجل النبيل المسيو جويل .

فردد اراميس متظاهرا بالنسيان . جويل ! . يخيل الى اننى سمعت هذا الاسم من قبل . أوه ! ها قد تذكرت ، فهو ذلك الشاب الذى كان زميلا لك فى مركبة نانت .. ولكن الامر اهون مما تتصورينه يا ابنتى ، فانه اذا جاز لك ان تحفظى جميله فى الدفاع عنك ازاء بضعة من اللصوص وقطاع الطريق ، فما ينبغى أن تسترسلى فى الاعتراف بالجميل الى حد الحماقة التى تفكرين فيها .

فلم تزد على أن قالت بحزم : اننى احبه

فبدت على وجه اراميس علائم الغضب وقال بلهجه جافة :

ـ اذن عليك ان تصطنعي ما يكفيك من الشجاعة لانتزاع هذا الشعور الاحمق من قلبك. فان الظروف المحيطة بك الآن ومصالحك ومستقبلك ومستقبل الاخرين أيضا تقضى عليك بذلك . على انه لا ينبغى ان يفوتك ان الحظ العظيم الذى اصابك بالامس ليس شيئا الى جانب ما لايزال فى انتظارك فى المستقبل . وبالجملة أقول لك انك الان على عتبة النعيم الذى تتحرق اعظم سيدة فى المملكة شوقا لتناله .

فغمغمت . رحماك يا الهى .. اننى لاافهم ما تعنى

ـ سأشرح لك الامر بجلاء اذن يا ابنتى .. فانت لابد قد وصل الى سمعك شىء عن الدور الذى لعبته لويز دى لافالير ، اول عشيقة للملك لدى قدومها من الريف مثلك واندماجها فى البلاط الملكي ..ولا يمكن ان تجهلى كذلك المكانة التى تحتلها الان المركيزة مونتسبان اذ هى التى تولت تقديمك الى البلاط .. واذن لابد انه قد تكونت لديك فكرة عن ملك فرنسا ..

ـ لقد سمعت حقا قصة الفتاة الاولى وما حاق بها من آثار الندم على انها لم تقاوم نزوة قلبها .. اما فيما يتعلق بالسيدة الاخرى فالله شاهدى على انى قد قبلت خدمتها فى كثير من الغضاضة والالم ، وذلك تحت تأثير حاجتى العاجلة الى من يذود عنى ذلك الشخص المجهول الذى ما فتىء يطاردنى بخيله ورجله وانا اجهله .. بيد ان سلوك كل من هاتين المرأتين مما يجعلنى اشفق عليهما ، لقما الله فيما يرزحان تحته من اعباء ثقال

ـ مهما يكن الامر فلا يسعك ان تنكرى ما تتمتع به المرأة التى تنال تلك المكانة من جاه وسلطان تستطيع بواسطتها نيل كل مآربها الاخرى ..

ـ تلك المكانة لم تخلق لها الا الملكة يا سيدى الدوق

ولكنها لا يمكن ان تنالها الا اذا كان زوجها يحبها،والحقيقة هى ان السياسة هى التى جمعت بين هذين الزوجين ، بينما الطباع والامزجة تباعد فيما بينهما .. والمهم الذى اريد قوله لك الان هو انى قد لاحظت على الملك تحولا يتجه بقلبه فى الساعات القلائل الاخيرة الى ناحية اخرى

ـ ألم يعد يحب مدام مونتسبان ؟

ـ بل هو يحب سيدة اخرى حبا جنونيا .. وهى سيدة جميلة وما ينبغى لها ان تخاف من الخاتمة التى انتهت اليها العشيقة السابقة مادامت تستطيع ان تعمل بنصيحة صديق مخلص وفى ، اذ هى سيسطع نجمها وتخضع لحبها ملكا عظيما ..

وسكت المغرى هنيهة ليرى أثر اغرائه على محيا سامعته التى بدت كأنها تجهد نفسها فى التأمل وقالت

ـ ارجو منك ان تكون صريحا يا سيدى فما انا الا فتاة ريفية فقيرة واعجب حقا اذا ..

ـ ماذا ! الم تفهمى بعد انك انت المقصودة بذلك الحديث ؟..

اجل ... انك أنت التى يحبها الملك ، وكلمة واحدة تنطقين بها تجعله يترامى على قدميك ويغدق عليك من النعم مالا غاية له من ورائه الا ان يقيم لك الدليل على انه يحبك .

فانتصبت اورورا واقفة على قدميها ومــدت ساعديها كأنما لتدفع عن نفسها عدوا لا تراه وصاحت

ـ رحماك يا اله السموات .. الملك يحبنى أنا ؟..

فنهض دالمبدا أيضا ووضع يده فى رفق على كتفها وقال :

ـ هدئى من روعك يا ابنتى .. فأنت فتاة ذكية بقدر ما أنا رجل عملى ، فدعينا نختصر الطريق ولا نضيع الوقت بغير طائل دعينى أقل لك الحقيقة وهى اننى أمثل كنيسة السيد المسيح فى بلاط ملك فرنسا ، والكنيسة تريد أن تسير سياسة هذه البلاد طبقا لتعاليمها التى هى تعاليم المسيح ، فساعدينا ونحن نشد أزرك طبقا لتعاليمها التى هى تعاليم المسيح ، فساعدينا ونحن نشد أزرك ونهيىء لك مكانا عليا .. الا تريدين أن تحكمى فرنسا معنا ؟.. انك تستطيعين ان تفعلى الخير .. وتعلى كلمة الدين من ذات المكان الذى فشل فيه غيرك وأخفق فيما قد تنجحين أنت فيه .. انك فتاة طيبة بقدر ما أنت جميلة ، وانى أقول لك بكل

بساطة هذا .. لقد كان الناس يلعنون عشيقات الملك حتى الآن فعلميهم كيف يدعون لهن ويباركونهن ..

وعاود الدوق صمته ليرى أثر كلامه .. واشتعلت عينا أورورا بلهيب محرق ، وفتحت شفتيها ثم أطبقتهما دون أن تنطق بكلمة .. ثم تخلصت برفق من يد النبيل العجوز الموضوعة على كتفها واتجهت صوب الباب ..

فاستوقفها قائلا : الى أين أنت ذاهبة ؟..

فأجابت بصوت متهدج : سأبرح هذا البيت ، وسأغادر هذه المدينة وأعود الى قريتى فى آنجو حيث لا يزال الفلاحون يحترمون ابنة سيدهم القديم ..

ـ أبعد الذى سمعته تذهبين ؟..

ـ بل ان ما سمعته هو الذى يملى على ألا أبقى لحظة أخرى فى هذا المكان الذى أهنت فيه .. واذا كنت لا أرد عليك الاهانة بمثلها فلأنى أعتقد انك لم تتعمد اهانتى ، وانما هذا هو عالمكم ، وهو يختلف عن العالم الذى نشأت وعشت أنا فيه ، فما تعتبرونه أنتم فخارا أسميه أنا عارا .. وهذا هو السبب الذى أفضل الفقر من أجله على الغنى .. بل انى لن أنتظر نتيجة قضيتى لأنى أشعر بالاختناق فى هذه المدينة كلها ولست أريد أن ألطخ اسم أبى وأسرتى بما تقترحه على من عار يا سيدى فوداعا أيها الدوق ، بل وداعا الى الابد ، لأنه قد يكون من الخير لنا ألا نلتقى مرة أخرى .. وسأحاول أن أنسى ما قلته لى الآن وأذكرك فقط بما قدمته لى من خدمة فى عرض الطريق ..

وفيما كانت أورورا تتكلم بهذا الاسلوب الرفيع النبيل ، كان أراميس مصغيا وهو يدبر حيلة أخرى ينتصر بها .. وفى الحق أن هذا الرجل كان قد اصبح الان مدبرا أشد خطرا مما كان حين دبر مؤامرة استبدال الملك فى « فو » بأخيه الذى جاء به من السجن وأجلسه على سرير الملك بدلا منه .. وهكذا لم تكد مدموازيل دى ترمبلاى تدير له ظهرها متجهة الى الباب مرة ثانية حتى كان قد سبقها وحاول دون خروجها منه وتندت عيناه بالدموع وظهرت عليه أجلى أمارات الفرح والسرور وخاطب الفتاة بصوت مرتجف فقال :

ـ أواه يا ابنتى العزيزة .. كم ملأتنى فرحا وسرورا ، وكم أنا معجب بنبلك .. بل كم أحبك الآن وكم أحترمك ..

فوقفت أورورا مشدوهة وعبر وجهها عن غاية العجب دون ان تتكلم ..

وأردف الدوق : انني اعترف لك حقا يا ابنتي بخطئي اذ كاد يساورني فيك من الشكوك والريب ما يساورني ، ولكني أحمد الله على هذه النتيجة السارة .. أحمد الله على اني قد أخطأت فيما خفته عليك من أن تزل قدمك وتفشلي في هذا الاختبار ..

فتساءلت الفتاة : اختبار ؟ وهل كان هذا كله مجرد اختبار ؟

فأحنى أراميس رأسه وأجاب بلهجة المؤنب :

ـ ألم تفهمي وأنت الذكية الأريبة ما قصدت اليه من حديثي ذاك كله ؟.. ولكن .. حقا ، حقا ، لقد غاليت في اختياري وجاوزت كل حد .. غير اني أردت معرفة الحقيقة كلها ..

وأخذ يدها في يده وقادها الى الأريكة واستطرد :

ـ لقد حزمت رأيي على أن أعرف دخيلة نفسك .. فما وجدت الا أنقى الشرف وغاية ما يتحصن به قلب فتاة ذات طهر ؟..

وكانت أورورا لا تزال تكرر قولها « اختبار ؟ » .. لأن الريبة لم تزل تساورها في أن يكون كذلك .. ثم قالت ببطء :

ـ وهكذا فان سائر ما قلته لي الآن ..

ـ لم يكن الا حديث خرافة .. ورجائي اليك ألا تعاودي التفكير فيه ..

قالت : والملك ..

اجاب : لا يشعر نحوك بأي شعور مغاير لشعور الرجل الشهم حيال أية فتاة شريفة .. وهو الآن انما ينبذ المركيزة مونتسبان ليتفرغ للملكة .. وأنه ليؤسفني حقا ان تنحدر سمعة هذا البلاط الملكي الى حد أن فتاة طاهرة مثلك تصدق أن رجلا عجوزا قد ابيض مفرقاه يهبط الى حد اقتناص الغانيات حتى ولو كان ذلك من أجل الملك !.. آه .. ما أسرع ما أسأت بي الظن وما أعجل ما عاقبتني بسحب ثقتك مني .. ولكن عزائي عن ذلك كله هو اني أجدت دوري وأتقنته حتى كدت أنا نفسي أن أذهب ضحيته ..

فوضعت أورورا يدها على قلبها وتنهدت وقالت :

ـ ولم هذا الاختبار الذي سببت لي به ألما شديدا ياسيدي؟ ولماذا تجشم نفسك عناء القيام به ؟..

ـ هذا هو السؤال .. وأقول لك الحق انه كان لي من وراء الاختبار غايتان : الأولى أن الملكة في مسيس الحاجة الى السلام والهدوء ، وما ينبغي لها أن تعاني من وجود حية سامة أخرى

بجوارها .. فكم من مخلوقة بريئة المظهر تسنمت ذروة الحظوة الملكيه عن طريق حصولها أولا على منصب متواضع فى خدمة الملكة والامر الثانى هو ان مثل تلك المخلوقه قد تطرح وراء ظهرها محبا متفانيا لا لشيء الا لان حسبه وسببه يتضاءلان بجانب ملك فرنسا ولكنك أنت على النقيض من ذلك قد أقمت الدليل علـى أن الذى يملأ قلبك انما هو حب مقدس ..

فتهلل وجه الفتاة واستفاض جمالها بنور الشباب وقالت :

ـ انت تعنى بكلامك هذا جويل يا سيدى الدوق ؟..

ـ ومن يمكن ان اعنى سوى هذا الفتى المجدود الذى أسعدته الصدفة بهذا الكنز الثمين ؟..

ـ هل تعلم اذن ماذا حدث له طيلة هذا الشهر ؟..

فأجاب دهشا : هل أعلم ؟..

وللحق نقول أن أراميس لم يكن يعرف أدنى شيء عما أصـاب ابن بورتوس .. ولـكن سياسيا فى مرتبته لم يـكن ينبغى له أن يبدى جهله بأى شيء يسأل عنه ..

واستطردت أورورا مستفسرة : هل رأيته اذن ؟..

فأجاب فى حذر : كما سترينه أنت وشيـكا .. غير انه يجب عليك عندئذ أن تسأليه ايضاح أسباب غيابه الغامض .

ـ وهل سيحضر هو الى هنا ؟..

فأجاب الدوق باسما : طبعا ، سيضطر للحضور الى هنا الا اذا كنت أنت تريدين الاحتفال بزواجكما فى مكان آخر ..

ـ تقول زواجنا ؟..

ـ لا مناص من هذا ما دمت قد حزمت رأيى على أن أجعلكما سعيدين ..

فسددت اليه أورورا نظرة فاحصة وقالت :

ـ وهل وجد المسيو جويل ما كان يبحث عنه اذن ؟..

ومع أن أراميس قد أخذ بهذا السؤال على غرة فقد أجاب على طريقة دهاقنة الساسة :

ـ لقد وجده ولكن بعد عناء عسير ووقت طويل ..

واسترسلت الفتاة فى وثوقها وقالت :

ـ أراهن أنك مددت له يد المساعدة ..

ـ الا يمكن اخفاء شيء عنك أيتها الباحثة المنقبة .. حسنا .. أجل .. لقد ساعدته بكل جهدى .. ولكنى أريد أن أترك لخطيبك مهمة شرح ما وقع له منذ افترقتما ، ولن تمضى بضعة أيام أخرى

حتى يكون الى جانبك هنا حيث قد اتفقنا على أن تستمرى فى عملك ..

ـ نعم ، سأبقى يا سيدى الدوق ..

وهنا أخرج ساعته ونظر فيها ثم قال :

ـ لقد حان وقت رحيلى لأنى على موعد مع الملك على أثر خروجه من اجتماع مجلس الدولة .. فلنفترق الآن اذن ياعزيزتى أورورا ، وسترينني قريبا معه ، ورجائى الأخير اليك هو أن تذكرينى فى صلاتك ..

ـ اطمئن من هذه الناحية يا سيدى الدوق .. فان لك فى قلبى مكانا مثل ما لله ولجويل ..

الفصل الثانى عشر

عند ما تولى الفنان المشهور مانسار تجديد السراى الملكية فى سان جرمان ، كانت هناك طريق حول البناء فاستبدلها ذلك الفنان بخميلة هى التى اعتاد لويس الرابع عشر أن يتلقى تحتها التماسات ذوى الحاجات ، ويقابل الذين يريد أن يتحدث اليهم بعيدا عن الأسماع .. وكان هذا المكان هو الذى هرع اليه والميدا بعد أن انصرف من عند مدموازيل دى ترمبلاى ..

ولدى دخوله تحت تلك الخميلة وقع بصره على اللورد نيقولا لارين ، حكمدار البوليس ، وكان متأبطا حافظة ضخمة ملأى بالأوراق من كل نوع .. فتبادلا التحية ثم قال السفير الاسبانى :

ـ سيدى اللورد ، انك أنت ولاشك خير من يعرف ما يجرى فى العاصمة ، فهل يمكنك أن تدلنى على مصير شاب ظريف يهمنى أمره وقد انقضى عليه شهر وهو غائب ؟..

ـ اننى على أتم استعداد لخدمتك يا سيدى الدوق ..

ـ هذا الشاب وصل الى العاصمة أخيرا قادما من مقاطعة بريتانيا .. أو من جزيرة « بل ـ ايل » اذا صحت المعلومات التى عندى .. وهو ذو وجه نبيل ، ويرتدى ثياب أهل الريف ، وهيئته ومشيته تدلان على أنه رجل رياضى ، ويتدلى الى جانبه سيف هائل الحجم ، بل هو فى الحقيقة أطول سيف رأيته فى حياتى الا سيفا واحدا ..

فأجاب الحكمدار متعجبا : اوه !.. يخيل الى أن هذا هو الشخص الذى جئت الآن خصيصا لمحادثة جلالة الملك بشأنه .. فهل يدعى فتاك جويل ؟..

ودهش الدوق بدوره وأجاب : نعم ، نعم .. جويل تماما .. فهل تعرف أين هو ؟..

ـ فى الباستيل ..

فردد الدوق وقد تضاعفت دهشته : فى الباستيل ! وأى جرم ارتكبه المسكين فقاده الى السجن ؟..

ـ هو حادث خطير جدا ، فقد خالف القانون بالدخول فى مبارزة انتهت بموت خصمه ، وهو ضابط من فرق الفرسان الملكية .. على أن أدهى ما فى الامر انه بعد ان اعتقل وانتهى التحقيق معه لم يستطع تقديم الدليل على أنه منحدر من سلالة النبلاء . فرفض قضاة محكمة الشرف النظر فى قضيته لعدم توفر هذا الشرط الضرورى ، وبذلك وقعنا جميعا فى مأزق حرج ، وأصبحنا لاندرى أى محكمة نقدمه اليها .. وهذا هو الأمر الذى جئت لاستشارة الملك فيه ..

وأخرج الحكمدار من حافظته ورقة ناولها الى الدوق قائلا :

ـ هل لك فى أن تلقى نظرة على هذه الورقة ؟..

ولم يكن لدى أراميس أى اعتراض على ذلك ، بل هكذا تمكن من معرفة كل ما حدث لجويل .. وما كادينتهى من مطالعة الورقة حتى كان الملك قد غادر الاجتماع وجاء يسعى الى الخميلة .. وبدا لارين بأن قدم الى جلالته الورقة الخاصة بقضية جويل والتى كانت منذ لحظة بين يدى السفير .. ولكن الملك حين رأى رفيقه لم يمدد يده ليتناول الورقة من الحكمدار ، واكتفى بأن وعده بالنظر فيها ، ثم لف ذراعه بذراع السفير وخاطبه قائلا

ـ أشكرك على محافظتك على هذا الوعد يا عزيزى الدوق ..

ـ الشكر لك يا مولاى ، فان رغبة الملك هى عندى والقانون سواء ..

ـ هل رأيت المدموازيل دى ترمبلاى ؟..

ـ أنا قادم من عندها للتو يا مولاى ..

ـ لعلها تكون مسرورة بمركزها الجديد ؟..

ـ آه يا مولاى ، ان ما تشعر به نحو جلالتكم لا يمكن أن يوصف بالامتنان فحسب ، بل هو العبادة بعينها ..

واذا كانت أمس قد بدت مأخوذة مذهولة فما ذلك الا من فرط الخجل لظهورها لأول مرة أمام جلالتكم وجلالة الملكة وسائر النبلاء والنبيلات فى بلاطك العظيم .. ولكنها فى هذا الصباح .. بعد ليلة قضتها ذاهبة اللب من جلال ما شهدت ، قد انطلقت

لتحدث بأعظم بلاغة عن احسان جلالتكم وعطف المليكة حتى لقد قالت لى وهى تودعنى وكررت قولها مرتين : « أوه يا سيدى الدوق ، ان جلالة الملك هو أكرم الكرماء وأنبل النبلاء فى سائر أنحاء العالم أجمع » ..

— وهل كانت تتكلم بمثل هذه الحماسة ؟..

— وأكثر منها يا مولاى .. فانى عندما سألتها عمن يكون فى نظرها أعظم الموجودين من النبلاء الذين وقع نظرها عليهم أمس أجابت بكل بساطة : « لا تلق على هذا السؤال ، لأنى لا أدرى كيف أجيب عليه .. فانى لم أر أحدا الا الملك ، وقد بهرتنى رؤيته كما يصاب الأحمق الذى يرفع بصره الى الشمس » .

وكانت هذه الكلمات تكاد تكون هى بعينها التى القتها لويز دى لافالير على أسماع الملك منذ عشرين سنة خلت تحت شجرة البلوط الملكيه فى فونتنبلو ، فأعاد سماعها الآن الى لويس الرابع عشر ذكرى ذلك المنظر بذاته .. وهكذا عادت اليه ذكرى الشباب بكل حلاوته ونضارته كأنه كتاب قد نشر فتناثرت من صفحاته رائحة وردة جافة منسية فيه ..

وأردف دالميدا : ذلك أن هذه الفتاة يا مولاى هى الصفاء ذاته وتجهل روحها الرياء والخداع كجهل شفتيها بهما ، وهى عزوف عن الغزل عزوفها عن القبل ..

ولجت بالملك النشوة لسماعه العبارة الاخيرة ، وراح يمنى نفسه بأحلى الأمانى على حساب غزوته القادمة الفتاة تلك صفاتها ونقاؤها اذ لم يمسسها من قبله بشر ولا لحق بها دنس .. وكأنما قد خيل اليه انه مستطيع تضليل محدثه عن غايته وأمانيه فتناول الموضوع من ناحية أخرى وقال :

— لقد دعوتك يا عزيزى الدوق الى هذا الموعد لمحادثتك فى شأن مدموازيل دى ترمبلاى بصفة خاصة ، فانها تنتمى الى أسرة خيم عليها النسيان وقتا ما ، ولو كان أحدا من أفرادها لم يزل موجودا لأغدقت عليه من المكافآت ما يخرجه من زوايا الاهمال الذى ران على عائلته بسبب الفاقة .. فسنعوض اذن بما نمنحه هذه الفتاة ما حاق بوالديها من ضرر بسبب نسياننا الشائن .. وستكون المدموازيل دى ترمبلاى احدى سيدات قصرنا الجديد .

ولكن القاعدة يا مولاى هى أن يكون الزوج هو صاحب اللقب والرتبة التى تطلق على زوجته ..

ـ سنجد لها اذن زوجا جديرا بها ، وانا لنعتمد على مساعدتكم لنا فى هذا الشأن ..

فابتسم السفير وقال : ما احسبنا بحاجة الى البحث عن هذا الشخص يا مولاى ، فان لى صديقا شابا لا يسعده شىء أكثر من أن يرتبط برباط الزوجية مع هذه الفتاة التى تتمتع بكريم رعايتكم وهو بريتونى شجاع لا مطمع له ولا اهل .

ـ ما اسم هذا الفتى ؟ ..

ـ فليكن فارس لو كماريا اذا سمحتم جلالتكم ومنحتموه هذا اللقب ..

ـ حسنا .. سنمنحه هذا اللقب اذن ..

ـ وانما لا اخفى على جلالتكم ان طباعه الريفية الخشنة لا تتفق تماما وحياة البلاط ، ولعله يفضل أن يشق طريقه بالخدمة فى جيش جلالتكم ..

ـ فليكن هذا اذن ، وسنرسله للالتحاق بصفوف المارشال اكريكى الذى يحارب أمير اللورين ..

ـ هذه هى الفرصة التى يرجوها هذا الفتى يا مولاى ..

وصمت قليلا ثم أردف :

ـ مولاى ، ان حكمدار البوليس فى انتظار السماح له بالتشرف بعرض أوراق على أنظار جلالتكم .. وأحسبنى قد اخذت من وقت الملك أكثر مما ينبغى ..

وتقدم لارين فعرض الورقة الخاصة بجويل على الملك الذى ألقى عليها نظرة سريعة وقال :

ـ أوه .. هذه قضية ذلك الشرير الجرىء اذن .. انى لأعجب كيف أن محاكمته لما تنته بعد ؟..

فتدخل السفير الاسبانى وحال دون اجابة الحكمدار وقال :

ـ مولاى ، لقد طالما قيل ان الرحمة هى انفس جوهرة فى تاج الملك ..

ـ ولكن هذا الرجل متهم بالقتل يا دوق ..

ـ ومن ثم كان توجهى الى كرمكم الملكى ..

ـ فكر مرة ثانية فى هذه الوساطة يا دوق ؟ فقد قتل الرجل ضابطا من فرقة فرساننا ؟ ولم يحفل بتوقيعنا على قانون تحريم المبارزة ، وهو فضلا عن ذلك غير نبيل ..

ـ احسب يا مولاى ان رحمة جلالتكم تتسع لغفران اكثر من تلك الجرائم وخاصة اذ هى صادرة من بريتونى قادم حديثا من

موطنه ولابد انه كان يجهـــل ما تقضى به نصوص قانون تحريم المبـــارزة ..

ـ هل ذلك الشرير بريتونى اذن ؟..

ـ هو كذلك يا مولاى ، والامر فيما يتعلق بنبله ان يكن غامضا ففى وسع جلالتكم أن تأمروا برفعـــه الى مرتبة النبــلاء .. وأما الضابط القتيل من الفرسان يا مولاى فانه لم يكن ممن يشرفون الفرقة التى ينتمى اليها كما يبدو هذا جليا من شهادات الشهود.

ـ وعلى الرغم من ذلك فان قاتله ..

ـ خصمه اذا سمحت يا مولاى ..

ـ حسنا ، فليكن ما تريد .. خصمه هذا يلوح لى انك مهتم بأمره .. فهل هو عزيز عليك ؟..

ـ لا شيء من هذا مطلقا يا صاحب الجلالة ، فانى لم أره الا مرة واحدة ، ولكنى أعرف له فائدة .. وفى هذا الكفاية .

ـ فائدة ؟.. من أى وجه ؟..

فرفع الدوق بصره الى الملك وخفض صوته وقال :

ـ اذا راق لجلالتكم فانى أقترح منحه لقب فارس لوكماريا فهو خير من يصلح أن يكون زوجا لمدموازيل دى ترمبلاى .

الفصل الثالث عشر

نعود الآن الى صاحبنا جويل حيث تركناه فى طريقـــه الى الباستيل فنقول انه قد اقتيد الى حجرة فى الطابق الثالث من احد أبراج الباستيل الثمانية ، وهو البرج المعروف باسم «باسبنيه» .

ولم يكد يغلق باب حجرته الضيقة وهو كالغائب عن الرشــد من هول الصدمة حتى تنبه قد استيقظ من حلم مزعج ، ونظــر حوله ، ثم راح يدور فى أنحاء الحجرة الى أن دفعتـــه غـريزته للذهاب الى النافذة ذات القضبان الحديدية المزدوجة ليستنشق الهواء ويرى من آثار الحياة الدنيا ما تســمح له تلك الفتحـــة الضئيلة برؤيته ، وهو لم يكن يعدو رقعة صغيرة من السماء والجو الذى لا تتخلله حتى ولا أطراف الاشجار الباسقة ..

ثم عاد يفحص محتويات الحجرة التى كانت تتألف من مائدة اكل عليها الدهر وشرب مغطاة بقطعة من القماش المتآكل ، وسرير ومقعد . وتحسس السرير فاذا هو خشن جاف .. فاختار المقعد وجلس عليه واسترسل فى تأملاته الحزينة .

مسكن جويل ..!

لقد كان الآن فى السجن بلا أمل كبير فى الحياة .. اذ الراجح أن تصدر المحكمة حكمها باعدامه ، لأن التهمة ثابتة ضده ثبوتا تاما لا يجدى فيه أى دفاع .. ولكن بطلنا كان راغبا عن الموت .. لا حبا فى الحياة وتعلقا بأذيالها ، وانما ليستخدمها فى انجاز الوعد الذى قطعه على نفسه لأمه المحتضرة ، وكذلك لتنفيذ عهده الآخر باسعاد فتاة أحلامه ..

ولكن الطبيعة لم يكن الى مقاومتها من سبيل ، فقد أحس جويل بالجوع والعطش والحاجة الى الراحة رغم تلك الافكار السامية المقدسة التى لم يكن له الى تحقيقها يدان .. فما أن جيء له بالطعام حتى راح يلتهمه كالذئب المسعور ، وما أن انتهى منه حتى استلقى متمددا فوق السرير ونام نوما عميقا كما لو كان لم يزل فى داره بلوكماريا ..

وعند ما استيقظ كان النهار قد سطع بنوره فلم يذكر لأول وهلة أين هو .. ولكن نظرة واحدة الى الجدران سرعان ما ردته الى صوابه .. وفيما هو يتنهد اذ صدمته الحقيقة بمرارتها فقد فتح السجان الباب ودخل عليه الحجرة وقال :

ــ هذا وقت « الفسحة » يا سيدى ، ويمكنك ان تصعد الى سطح البرج حيث الهواء ليس له مثيل ، وحيث تستطيع التفريج عن نفسك قليلا بالتحدث الى زملائك المساجين ..

وكان البرج مؤلفا من خمسة طوابق فى كل طابق منها سجين فالتقى جويل وهو صاعد برفاقه الأربعة الذين كان يستطاع معرفة تاريخ دخول كل منهم السجن بثيابه وبما يبدو على سحنته .. وكان اثنان منهم فى منتصف العمر ولا يوجد هناك مايدعو الى وصفهما بأكثر من ذلك لعدم أهميتهما فى حوادث هذه القصة .. أما الثالث فكان رجلا متوسط القامة ، مفتول الساعدين ، قوى البنية ، وله وجه مستدير يدل ظاهره على القناعة والرضاء بالمقسوم وعينان ضعيفتان وابتسامة ساذجة فاترة ، ومظهره الاجمالى يدل على انه من عامة الشعب الاغبياء .. بينما كان الاخير رجلا عجوزا أشيب ذا لحية كثة وثياب مهلهلة ..

ولم يكد بطلنا يبدو بهيئته الفارعة فى تلك الردهة السماوية حتى أقبل عليه الثلاثة الأولون يسألونه فى لهفة :

ــ ما هى آخر الانباء فى باريس ؟..

فأجاب جويل : بالأسف أيها الرفاق لا أستطيع اجابتكم على هذا السؤال ، لانه قد قبض على ولم أكد أصل من الريف ..

ـ وما سبب اعتقالك ؟..

فروى لهم جويل قصة مغامرته وما ان انتهى منها حتى قال له أحد الرفاق :

ـ وحق سيدتنا ان قضيتك تكاد تكون مفروغا منهـا ، فان الملك لا يمزح مع المتبارزين .. ولكنك تمتاز عـلى كل حال بأنك تعرف السبب الذى جاءوا بك من أجله الى هنا ..

فتعجب جويل ، وسأل رفاقه الثلاثة عن أسـباب سجنهم فأجابوا جميعا بأنهم لا يعرفونها . ونظر جويل الى السجين العجوز مستفسرا فقال له هذا متكلما لاول مرة :

ـ ان قضيتك تحزننى أيها السيد ، فان الكردينال لا يعرف الرحمـة ..

فسأله جويل . أى كاردينال ؟ .

وحملق العجوز فى دهشة وأجاب : وهل هناك كردينال سوى نيافة الكردينال ريشيليو ؟..

ـ رحماك يا الهى .. لقد مات الكردينال ريشيليو منذ نحو ثلاثين سنة ..

ـ هل أنت متأكد من ذلك ؟..

ـ بل لقد لحق به الى القبر ايضا خليفته الكردينال مازاران.

ـ ولكن الملك لويس الثالث عشر لم يزل موجودا ؟..

ـ كلا ، فهو أيضا قد مات بعد الأول وقبل الثانى .

فقال السجين العجوز فى رقة : لا تؤاخذنى يا سيدى ، فانى لم اعلم بهذه الحوادث ، مذ كنت قد دخلت السجن فى السنة التى ولد فيها أول مولود للملك ..

وسرت الرعدة فى أطراف جويل لانه لم يكن قد قضى الساعات فى السجن عدد ما قضاه فيه هذا الرجل من السنين .. ومع ذلك فانه كان يبدو دون سائر المسجونين أشدهم هدوءا وأكثرهم صبرا

وفى المساء عند ما دخل الحارس على جويل حاملا له العشاء سأله عمن يكون ذلك السجين العجوز ..

فأجاب الحارس بلا اهتمام هو رقم ٦٨

ـ والآخرون ؟..

ـ أوه ، انهم ١٤١ و١٣٦ و١٢٣

وتلطف الحارس فشرح لجويل أن السـجناء فى الباسـتيل يفقدون أسماءهم بمجرد دخولهم السـجن الذى يعرفون فيـه بالارقام ، وان الحراس لا يعرفون شيئا عن جرائم أى واحد من

المساجين ، بل ان محافظ السجن قلما يعرف أكثر مما يعـرفه السجانون ، وفى أحوال كثيرة يستوى السجناء فى هذا الجهل مع غيرهم ..

قال جويل : واذن فأنا لى رقم أيضا ؟..

ـ ليس لك رقم حتى الآن ، ويقال انهم قد لا يعطونك رقما ، لأن الراجح انك لن تقيم هنا طويلا ، حيث ينتظر أن ينفذ فيـك حكم الاعدام خلال الاسبوع المقبل .

وفى اليوم التالى زار أحد المحققين السجن وطلب الى جويل تقديم الأدلة على انحداره من سلالة نبيلة حتى يحاكم أمام محكمة النبلاء المختصة بنظر قضايا المبارزات .. فلما لم يستطع جويل تقديم الدليل المطلوب ، أبلغه المحقق انه فى هذه الحالة سيعـدم شنقا بدلا من اعدامه بالسيف كأبناء النبلاء.. ومن ثم قضى جويل وقته مهموما بسبب هذه الميتة التى تنتظره ..

ولمـا حان وقت « الفسحة » وصعد الى سطح البرج لم يجد هناك من رفاقه السجناء الا واحدا هو رقم ١٤١ الذى كانت حجرته تؤلف الطابق الرابع من البرج ، أى الواقعة فوق حجـرة جويل ، فدار بينهما حديث فهم منه البطل ان زميله قد أعد للهرب وقال :

ـ ان لى ابنة هى التى زودنى عشيقها بمنشار دقيق وحبل. وقد نشرت قضيبين من قضبان النافذة وسأكسرهما الليـلة ثم أربط الحبل فى القضيب الثالث وأتدلى عليه .. وقد يسـعدنى الحظ بسبب رداءة الجو المنتظرة الليلة ، فيحتمى الحارس القائم فى هذه المنطقة فى « الـكشك » المخصص له .. أما اذا كان حظى سيئا ، وظل الحارس خارج « الكشك » فانه سيطلق على النار ، ولكنه قد يخطئنى أيضا فأعبر سابحا الى الشاطىء الآخر ، وبذلك قد تكتب لى النجاة من قبر الاحياء هذا ..

وسأله جويل عن غايته من الافضاء بسره هذا اليه ..

فأجابه الآخر قائلا : لأنى أقرأ فى وجهك انك لن تشى بى ، فانى من أسرة تحترف قراءة البخت والضمير وما اليها .. ولأنى أريد كذلك أن أسألك معروفا ، فانى أشك فى أن تكون المساعـدة التى قدمها الى عشيق ابنتى ليست الا دسيسـة للتخلص منى ، فاذا صح هذا الظن ، ووقعت فى الفخ ، فانهم سيقتلوننى ولا ريب ..

ثم أخرج السجين من بين ثيابه صندوقا صغيرا من النحاس وعلى صورة قطعة كبيرة من العملة وأردف :

ـ هذه تحتوى على ورقة يدفع أعدائى لها ثمنا غاليا ، وقـد

تمكنت من اخفائها حتى الآن ، بيد انها اذا وجدت معى فسيعدمونها فأنا أريد أن أعهد اليك بها لتسلمها الى ابنتى حتى تستفيد هى منها فى حالة اعدامى ..

فأجاب جويل : ولكن هذا مستحيل ، اذ كيف يمكننى القيام بهذه المهمة ؟..

فقاطعه الآخر : انى بما لى من قوة التنبؤ والكشف عن المستقبل أراك ستخرج من هذا السجن ولكن ليس الى الاعدام كما يبدو لك وللجميع الآن .. وستسنح لك الفرصة على كل حال عندما يذهبون بك الى المحكمة فيمكنك فى هذه الحالة ان تعهد الى أى واحد من أقاربك أو أصدقائك بتوصيل هذه القطعة الى ابنتى ..

وتحت تأثير الحاح السجين لم يجد جويل بدا من قبول هذه المهمة العجيبة ، فتناول الصندوق الذى يشبه قطعة النقود والذى كان مثقوبا ومعلقا بخيط فعلق الخيط فى عنقه وأخفى الصندوق تحت ثيابه ..

ثم قال له السجين : ان ابنتى تدعى تريزا ليساج ، وهى تقيم فى أواسط شارع بولوا وتباشر كما قيل لى مهنة كشف البخت وقراءة الضمير والطوالع ، فهذه هى مهنتنا الوراثية ..

واذن فقد كانت هذه هى العرافة التى زارتها المركيزة مونتسبان ورفيقتاها فى تلك الليلة التى نشأ التعارف فيها بين جويل وبين السيدات الثلاث ، ولكنه لم يكن قد عرف اسم الشارع ولا المهمة التى أبقتهن الى ذلك الوقت المتأخر من المساء .. ولذلك لم يعرف البطل مما أفضى اليه به زميله السجين ما عرفه قارىء هذه القصة .

ووعد جويل زميله رقم ١٤١ بأن يبذل كل ما بوسعه لتنفيذ وصيته اذا صحت نبوءته وخرج جويل سالما من السجن .

وفى تلك الليلة هبت عاصفة شديدة وفى خلالها سمع جويل عدة طلقات نارية وأصوات كثيرة لوقع أقدام وصيحات داخل السجن وخارجه ..

وعندما دخل عليه الحارس فى صبيحة اليوم التالى سأله عما حدث أثناء الليل فأجابه الحارس :

ــ ان زميلك السجين رقم ١٤١ التى تقع حجرته فوق حجرتك حاول الهرب بأن قطع قضيبين من قضبان نافذته بمنشار ثم تدلى بحبل من النافذة وكان الحارس واقفا له بالمرصاد فقتله برصاصة اخترقت راسه .

وماذا كانت جريمة هذا الشقى التعس !

وكان الحارس ميال الى الثرثرة فى هذا الصباح فأجاب :

ـ من الصدف العجيبة أن هذا هو السجين الوحيد الذى اتفق لى أن أعرف قصته حيث قد أخبرنى بتفاصيلها الجندى الذى جاء به الى الباستيل .. فهو يدعى الاب ليسانج ، ويقال انه كان قسيسا ، ولكن يلوح انه كان يخفى وراء مسوح الرهبان أعماله الشريرة ، حيث قد ثبت اشتراكه فى قضية التسمم الكبرى التى انتهت باعدام ثلاثة من العرافات المعروفات ـ لافوزان وفيلاستر وفيجوريه ـ وكانت ضحاياهن تعد بالمئات ، ويقال أن شخصيات كبيرة كانت تستخدمهن للتخلص من غرمائهم ومنافسيهم

ـ وكيف استطاع الاب ليساج أن ينجو من مثل مصير شركائه فى تلك الجرائم الفظيعة ؟ .

ـ هذا سر لا يعرفه الا القليل ، فان الرجل كان الوحيد فى تلك الجماعة المطلع على أسرار اتصال بعض الشخصيات الكبرى بطائفة من حوادث التسمم ، فخيف من محاكمته أمام محكمة علنية حتى لا تذكر اسماء الشخصيات التى كانت تستخدمه لتحقيق أغراضها ولذلك تكتم حكمدار البوليس أمره ورؤى الاكتفاء بايداعه السجن فى هذا البرج .

ـ وهل ترك الشرير وراءه أبناء أو أقارب ؟ .

ـ يخيل الى أنى سمعت من الجندى الذى قاده الى هنا أن له بنتا من زوجته لافوازان ، وانها تقيم الان مع أحد أفراد العصابة الذى لم تنله يد العدالة .

مضت عدة أيام دون أن يطرأ جديد على البطل السجين .. وبدأ شعوره من الاسبوع الثالث يضطرب ، فلم يعد ينام نوما عميقا كما كان يفعل فى أيامه الاولى ، بل جعل يقضى الليل بطوله متقلبا لا يكاد يغفو حتى يرى الرؤية المفزعة فيستيقظ مذعورا ويعاود التقلب على سريره الجاف .. حتى اذا كان النهار جلس الساعات الطوال على المقعد وقد لف ساقيه على بعضهما واعتمد ذقنه بيده وراح يحدق بنظره فى غرفته المظلمة ضجرا متبرما .. ثم ينهض ويروح يذرع الغرفة الضيقة بقلب موجع وصدر يعلو ويهبط من الالم .. والعرق يتصبب من جبينه من طول التفكير المضنى بلا نتيجة ..

وذات يوم أجاب على سؤال محافظ السجن وهو يقوم بجولته لسماع شكاوى المساجين قائلا :

ـ الم يحن بعد موعد محاكمتى أو خروجي من قبر الاحياء .. هذا حتى ولا بارسالى الى الجلاد أو المشنقة ؟ .

فأجابه المحافظ :

ـ لقد اعتزمت أن أكتب اليوم فى شأنك الى حكمدار البوليس وان كنت أشك فى أن الملك قد نسى الان انك هنا ، وهذا خير لك من المشنقة أو نطع الجلاد على كل حال .

فارتعد جويل وقال :

ـ ولكنى أفضل احدى هاتين الميتتين على البقاء هنا .

ـ ليس أمرك ملقا على رغبتك أنت ، وانما هو معلق على رغبة الملك ..

فأجاب جويل :

ـ حسنا .. ولكن الملك يخطىء اذا ظن انه يسدى الى معروفا بتركى فى هذا الجحر بدلا من قطع رأسى .

فرد المحافظ :

ـ جحرا ! .. ولكن الملك لا يرتكب الخطأ أبدا .. وسأعلن اليك قراره لدى وصوله .

ثم انطلق المحافظ ومن خلفه الفرسان الاربعة الذين يؤلفون حرسه وحامل المفاتيح بعد أن أغلق « الجحر » .

وعاد ابن بورتوس الى قلقه وضجره ، وراح يقضى أيامه ولياليه على الوتيرة المملة التى وصفها بايجاز .

وكان قد مضى عليه فى السجن ستة أسابيع حين سمع ذات مساء وقع أقدام وقعقعة سيوف ورماح تقترب من حجرته مما اعتاد سماعه فى جولات المحافظ للتفتيش وتلقى ما قد يقدمه اليه المساجين من شكاوى .

وفتح الباب ودخل المحافظ ومن خلفه اثنان من حراس السجن المسلحين .

فابتدره جويل قائلا : هل جئت يا سيدى المحافظ لتبلغنى قرار الملك بقطع رأسى ، أم تراك ستكرر قولك انه يجب على الانتظار ؟

فأجاب المحافظ : بل لقد تلقيت فى التو واللحظة أمرا بتسليمك الى رسول ينتظرك بالباب .

وتقدم المحافظ خارجا ومن خلفه جويل سائرا بين الجنديين مطرقا راسه فى صمت وهو يناجى نفسه متسائلا . الى أين يا ترى هو مسوق ؟ .

وعلى باب السجن وجد مركبة يحرسها أربعة من الفرسان وقد وقف ببابها ضابط بوليس مرتديا ثيابا سوداء ، فافسح الضابط الطريق لجويل وأشار اليه ليصعد المركبة .

وأطاع جويل ، وصعد الضابط فجلس الى جانبه وأغلق باب المركبة خلفهما بمفتاح وانطلقت تعدو .

وقطعت المركبة شوطا كبيرا دون أن يستطيع السجين معرفة المكان أو الاتجاه الذى تسلكه ، حيث كانت تلك الليلة من الليالى الحالكة الظلمة التى يقع الاختيار عليها لنقل المساجين .. وانما أدرك جويل أن المركبة قد خرجت به من المدينة حيث كانت قد عبرت بوابة يعرفها .. ولم تكد تعبر البوابة حتى عرف من الهواء النقى الشديد انه قد بات الان فى احدى ضواحى باريس ، وأمكنه بادمان النظر من نافذة الباب أن يرى الاشجار والحقول مؤيدة لاستنتاجه .

وسأله حارسه :

ـ هل ترغب فى فتح النافذة لتملأ رئتيك من الهواء ؟ . فقط أرجو من الفارس أن يعد بألا يحاول ترك صحبتى .. ورأى لزاما على أن أخبر الفارس أن رفاقى الفرسان الاربعة الممتطين جيادهم خلف المركبة ، والمسلحين من فرعهم الى قدمهم مثلى ، قد يطلقون عليه النار كما قد أفعل أنا أيضا ، اذا قام الفارس بأى محاولة للفرار .

وناجى جويل نفسه : « لماذا يلقبنى بالفارس ؟ . ترى هل هناك خطأ قد ارتكب فى اخراجى من السجن ؟ » .

ثم رفع صوته مجيبا على ناصحه :

ـ أيها الصديق .. انى أعطيك العهد الذى تطلبه منى بكل سرور ، وانما ليس ذلك عن خوف من غدارتيك هاتين اللتين تحملهما أو مما قد يحمله رفاقك من سلاح ، فان الثيران اذا علمت بأنها مسوقة الى المذبح لما كان فى العالم كل أولئك القصابين

وفتحت النافذة .. فهل نحن بحاجة الى وصف شعور الفرح الذى استقبل به هذا الفتى الريفى هواء ليلة صيف بما حفل به من روائح الزهور الزكية ، وهو الذى قضى أكثر من شهر فى جو السجن الخانق ؟ .

وما فتىء السجين كلما تقدمت به المركبة شوطا يسائل نفسه فى عجب عما اذا لم يكن شخصا غير نفسه ، أو لعله ضحية حلم طويل .. الم يسبق له أن سافر على هذا الطريق قبل هذه المرة ،

واخترق هاتين القريتين وعبر هذا الجسر ؟ وشهد هذه الغابة ؟ . وعلى حين فجأة أسفر القمر من وراء السحب الكثيفة التى كانت تحجبه ، وانعكس ضوؤه على نهر السين .

وغمغم السجين اذ رأى الساحة التى أوشكت المركبة أن تصل اليها : « رحماك يا الهى ! . أليست هذه سراى جرمان الجديدة ؟ . آه .. لقد فهمت .. فهم ذاهبون بى الى المكان الذى ارتكبت فيه الجريمة .. حيث قتلت الملازم بديجى ، وسيعدموننى هناك ! » .

واضطجع الى ظهر مقعده وقد سرت فى أطرافه رعدة طفيفة ، اذ شعر بأنه يوشك أن يرى شبح غريمه فى المبارزة متسللا على ضوء القمر وهو غارق فى دمائه .

وفيما كانت الجياد تلتقط أنفاسها بصعوبة وهى تجر المركبة صاعدة بها علي سفح الاكمة المؤدية من شاطىء النهر الى المدينة ، قال الضابط :

ـ أيها الفارس .. ان الاوامر المعطاة لى تقضى بغلق نوافذ المركبة هنا ..

بيد أنه لم يغلق النوافذ الزجاجية فحسب ، وانما سحب فوقها ستائر سوداء كثيفة حجبت كل شىء خارج المركبة عمن بداخلها ..

وفيما كان جويل يحاول جمع أفكاره وقفت المركبة ، وفتح الضابط ذو الثياب السوداء الباب ودعا البريتونى الى الهبوط .. ولم يكد يهبط من المركبة حتى رأى قبالته بناء قائما بذاته .

وغمغم جويل :

ـ هذا سجن البلدة ولا ريب .

وقال الضابط :

ـ أرجو أن تعطينى يدك أيها الفارس .

ووضع جويل يده فى يد الضابط وتركه يقوده دون أن يلقى عليه سؤالا أو يبدى أى ملاحظة .

وصعدا سلما واسعا استقبلهما على نهايته رجل بدين عجوز حاملا مصباحا ومرتديا ثيابا يحار من يراها فيما اذا كان لابسها ضابطا أو مدرسا أو كبير خدم أو منظم حفلات أو غير ذلك من عديد الحرف والمهن .

وناجى جويل نفسه : « هذا هو كبير حراس السجن ! » .

وخاطب الرجل الدين الضابط ذا الثياب السوداء قائلا :

ـ الى هنا تنتهى مهمتك يا سنيور ستيبان .

وترك الضابط يد جويل ، واستطرد البدين يخاطب السجين قائلا :

ــ هل يسمح السيد الفارس بأن يتقدمني ؟ .

وناجى ابن بورتوس نفسه : « يلوح لى أن هذا (البرميل) جم الادب ، ولكن لماذا يلقبنى أيضا بلقب الفارس ؟ » .

وانطلقا حتى اذا بلغا بابا تقدم الرجل البدين ليفتحه .

وفيما كان جويل مجهدا نفسه فى حل لغز نقله من سجن الى سجن ، فتح الباب و أشار له الرجل العجوز ليتقدمه .. وما أن وضع قدمه على عتبة الباب حتى هتف مشدوها .

الفصل الرابع عشر

لم يكن شيء أبعد شبها من حجرة جويل فى الباستيل من الغرفه التى دخل اليها الان .. فقد كان كل شيء هنا على نقيضه تماما هناك .. الجدران والنوافذ والسرير والمقاعد والسجاد الوثير .. ولاتتحدث عن الدواليب والمرايا وأدوات الزينة .. كل ذلك كان أجدر بخدر دوقة منه بمحتويات حجرة سجين .

وفكر جويل .. فقدر أن حجرات السجن الذى هو فيه الان قد امتلأت بالضيوف فاضطروا لأن ينزلوه فى مخدع زوجة محافظ السجن ..

وقال المرشد العجوز البدين :

ــ ان الفارس المحترم فى بيته الان ..

فغام وجه ابن بورتوس كما تتجمع العاصفة قبل هبوبها .. وهتف :

ــ فى بيتى ؟ . هل تسخر منى ؟ .

وكأنما قد خاف الرجل العجوز البدين على نفسه من الشرر المتطاير من عينى جويل ، فتراجع قليلا الى الوراء ، وهو لا يزال يواجهه ، كما لو كانت بطنه من « متاريس » الدفاع .. وأجاب بصوت أجش من الخوف :

ــ أبادر فأؤكد للسيد الفارس انه ما من أحد يستطيع أن يسخر منه ، وأنا فى الحق انما أنفذ الاوامر التى تسلمتها ، وبمقتضاها يجب على أن أغلق الباب بالمفتاح عندما أخرج من هنا .

فأجاب السجين بصوت هادىء :

ــ هذا هو ما توقعته ..

ـ اجل .. سأغلق الباب الى الغد ، حتى يحضروا و .. و .. حسنا ، أنت تعلم ماذا سيجرى أكثر منى .
ـ غدا اذن هو الموعد الذى استقر الرأى عليه ؟ .
ـ أجل .. فى صباح غد أيها الفارس ..
ـ فى باكورة الصباح ؟ .
ـ سيراعى فى تحديد الوقت أن ينتهى كل شىء قبيل الظهر كما هى العادة المتبعة .
قال ابن بورتوس :
ـ حسنا ! . أشكرك يا صديقى . وستجدنى على أتم استعداد فى الصباح .

وسرى على الرجل العجوز البدين فانبسطت أساريره وقال :
ـ ألا يأمرنى الفارس المحترم باحضار شىء من المنعشات ؟ .
ـ هل كل شىء مباح اذن لكل شقى مثلى ؟ .
ولم ينتظر العجوز البدين أكثر من ذلك ، بل ذهب وعاد من فوره حاملا عدة صحاف حافلة بالوان شهية من اللحوم والفواكه والزبدة والجبن والفطائر ووضعها على مائدة فى ركن من الغرفة الفسيحة ، فلم يكد جويل يراها حتى سال لعابه وقال :
ـ ما هذا كله ! . حقا ان جلالته يعامل ضيوفه فى لحظاتهم الاخيرة بكرم جميل ! .
فقال الآخر :

ـ عندما يتناول السيد الفارس طعام الافطار فى الصباح فسيكون حكمه على الطاهى أفضل وأدق وأحكم .
وأخيرا جلس جويل الى المائدة بينما وقف العجوز البدين حاملا قنينة الشراب يسكب منها فى كأس من الفضة .
وبعد الانتهاء من الطعام تهيأ جويل للنوم فسأله الآخر :
ـ هل يأمرنى السيد الفارس بخدمة أخرى ؟ .
ـ كلا .. يمكنك أن تذهب .
وغادر الرجل العجوز البدين الغرفة ، ولم يكد يخرج حتى كان جويل قد بدأ يغط فى نوم عميق مضى عليه حين من الدهر لم يتمتع بمثله .. ولم يستيقظ الا حين تسلل أحد الخدم سائرا على أطراف قدميه وأزاح الستار فغطت أشعة الشمس الذهبية أغطية فراش السرير الوثير .
وما أن هب مغادرا سريره حتى راح يرسل تنهدات متتالية ، اذ خطر له انه سيموت دون أن يمتع ناظريه بنظرة أخيرة من

اوروا .. ولكنه عاد ففكر انه انما يريد ان يموت ميتة الشجعان ، فحمد الظروف التى ستبعدها عنه فى تلك اللحظة ، مخافة أن تسلبه رؤيتها شيئا من شجاعته ، واستقر رأيه على أن يكل لأى من شهود اعدامه أمر ابلاغها وداعه الاخير .

وتبين جويل من ضوء النهار أنه قد بات على وشك أن يستدعوه ، فنهض مسرعا وذهب الى حيث وضع ثيابه على مشجب « شماعة » بالقرب من السرير .. فما كان أشد عجبه اذ لم يجدها هناك ! .

وفى تلك اللحظة دخل السجان البدين وسأله قائلا

ـ أرجو أن يكون السيد الفارس قد تمتع بنوم هنىء واحلام سعيدة .

فهتف جويل :

ـ نعم .. ولكن أين ثيابى ! .

ـ اذا سمح السيد الفارس فليتفضل بارتداء هذه البزة التى خاطها أمهر خياط فى باريس .

وأشار بيده فدخل أربعة من الخدم مرتدين ثيابا فخمه ذات لون بنفسجى وموشاة بخيوط من الذهب العسجد .. واستطرد الرجل العجوز مشيرا الى خادم آخر يتبع أولئك الاربعة :

ـ هذا هو السيد هردوين كبير خدم سيدى الدوق ، وسيتولى بعد الاغتسال ، مساعدة السيد الفارس فى ارتداء ثيابه ..

وناجى جويل نفسه : « يا لكم من حمقى ! .. أتتجشمون كل هذه المتاعب من أجل شاة ستذبحونها ؟ » .

ثم أردف بصوت مسموع :

ـ حسنا ! . ابلغ مولاك انى أشكر له هذه العناية الفائقة ، واننى سأقوم بتنفيذ رغباته كلها .

وفى الواقع لم يشعر صاحبنا البريتونى بأية غضاضة ، بل على النقيض من ذلك كان مسرورا أن يرتدى ولو فى اللحظات الاخيرة من حياته مثل تلك الثياب الفخمة التى طالما أعجب بمثلها على أبدان النبلاء والفرسان ، وشعر كذلك بالغبطة لأن يقف أمام قضاته بالمظهر العظيم الذى سيبدو به عندما يضع فوق جسمه تلك الثياب اللامعة .. وزاد من فرحته أن شجاعته حين تقف بين يدى جلاده ستتراءى أكثر رونقا مما لو بقى بثيابه الريفية الملونة ..

ومن ثم أسلم نفسه الى هردوين .

وبعد أن اغتسل وارتدى ثيابه الجديدة نظر فى المرآة فأعجبته هيئته وود لو رأته اورورا الان ! .

وتناول قبعته وقال :

ـ هأنذا مستعد للذهاب .

وسار برفقة كبير الخدم حتى اذا بلغا الممر الخارجى قال :

ـ كيف هذا ؟ . أأسير وحدى هذا بلا حرس ؟ .

فأجاب كبير الخدم :

ـ ليس أمامنا الا الدرج نهبطه .

ـ اوه .. اذن هنا تنعقد المحكمة ؟ .

وقطب جبينه لانه كان يود لوسار مخترقا المدينة ليبهر جمهور الشعب بثيابه المزركشة بالقصب ، وقبعته ذات الريشة العالية .. وهكذا عاد بورتوس الطيب القلب المحب للمظاهر الخلابة وتمتم قائلا :

فليأخذهم الشيطان . انى لا أرجو حينما يحاكموننى . ألا ينفذوا فى حكم الاعدام داخل الجدران !.

وهنا فتح كبير الخدم بابا وقال :

ـ فارس لو كماريا ! .

فرد عليه صوت من الداخل فى حنان ابوى :

ـ فليتفضل بالدخول ..

وأرسل جويل صيحة تعجب ، فانه بدلا من أن يرى قاعة محكمة وقف الجند ببابها ، رأى صورة السيد المسيح معلقة فوق جدار داكن ، وبدلا من الطاولة التى يجلس اليها القضاة ، وجد مائدة من الخشب الزان وقد مدت فوقها الصحاف لاثنين وزينت بالزهور تنعكس صورتها على الفضية والاطباق الصينية الملونة .

وجلس على مقربة من هذه المائدة سيد عجوز غائصا فى كرسى ذى مساند ، وقد نهض لتحية جويل .. فلم يكد هذا يراه حتى عرفه وصاح :

ـ الفارس دربلاى ! .

وأجاب الآخر :

ـ نعم .. وربما كان غير هذا أيضا ، فاننى اذا كنت قد انتحلت ذلك الاسم فى رحلتى بين نانت وباريس ، فلا حاجة بى

هنا لانكار اننى الدوق دالميدا ، سـفير صـاحب الجـلالة ملك اسبانيا .
ـ الدوق دالميدا ، السفير الاسبانى ؟ .
وضغط بكفه على جبينه وأردف :
ـ ان الافكار تتضارب فى رأسى كصفار العصافير فى أوكارها ، فأرجوك يا سيدى الدوق أن تؤكد لى ما اذا كنت ترانى متمتعا بحواسى ؟ . أم أنا فى حلم اليقظة ! . أم هو دور قد عهد الى به فى رواية أجهلها ؟ ! .
فأجاب الدوق فى وقار :
ـ سأشرح لك يا صديقى الشاب ما يجلب السرور الى نفسك .. وانما أفضل أن نتحادث ونحن نتناول الافطار ، لان لدينا أمرا هاما يجب انجازه فى هذا الصباح ايضـا ، ولا نريد أن نضيـع الوقت ..
وأشار الى ضيفه بالجلوس وأمر الخادم بتقديم الطعام .
وقال وهو ينشر منشفته :
ـ فلنتكلم بحرية ، لان تابعى هذا لا يعرف الا الاسبانية .. وهذا طبعا اذا لم يكن لديك مانع يا صديقى المحظوظ من أن نتكلم ونحن نأكل ؟ .
ـ أين أنا الان يا سيدى ؟ .
ـ أنت فى بيت صديقى المسيو بزلوريه الذى يترك لى منزله عندما تدعو الحاجة الى ذلك ، وهو بالقرب من الـكنيسة ، وفى مواجهة القصر الملكى .
ـ ولكنى كنت فى سجن الباستيل لغاية أمس فقط ؟ ! .

ـ أوه .. نعم .. لانك طعنت شخصا بالسيف كمـا يطعن المتادور « مصارع الثيران » خصما خطيرا .. أليس كذلك يا بطل بل ـ ايل ؟ . وسبب بقائك فى الباستيل لغاية أمس هو أن الملك لم يوقع قرار الافراج عنك الا أمس فقط .
فاضطرب ابن بورتوس فى مقعده وقال :
ـ جلالته وقع الامر باطلاق سراحى ؟ .
ـ نعم ..
ـ أنا الآن حر اذن
ـ نعم
ـ ولا أحاكم ؟
ـ كلا
وأمسك الدوق بكأسه ورفعه وأردف :

ـ تناول كأسك واشرب نخب هذا النبأ السعيد .

ـ من كل قلبى .. وهو نخبك أنت أيضا يا سيدى الدوق ، لان لصوتك فى أذنى حلاوة صوت حمامة الايك ، ولكن من يا ترى صاحب هذا الفضل والذى طلبه من الملك ؟

ـ ان لك أصدقاء فى البلاط أيها السيد الصغير .

ـ ليس لى فى باريس الا صديقان ، احـــدهما هو بونلارون صاحب فندق « المزمار المغربى » والثاني يدعي فريكيه ، ولا يمكننى أن أتصور واحدا منهما له حظوة عند الملك !

وتصنع دالميدا الاستنكار وقال مداعبا :

ـ أنت جحود يا ابن بريتانيا ! وقصير النظر .. لانك تنظر بعيدا ما هو قريب منك

فضرب الشاب جبهته بقبضة يده وقال :

ـ لك حق، وأنا غبى أخرق ، وشرير بلا قلب .. لانه كان يجب على أن أفهم اسرع من هذا انك أنت الذى فعلت كل هذا

ـ بل قل انها هى العناية الالهية التى تفيض برحمتـــها على مستحقيها فتهيىء لهم رجلا مثلى يجد السرور فى مساعدتهم على الخروج من المآزق الحرجة بسلام .

فنهض جويل واقفا مفعما بالاحساس بالجميل وقال :

ـ ستجدنى مستعدا دائما يا سيدى لكى أفديك بحياتى وبدمى وبساعدى

وقاطعه الدوق برفق : مهلا يا بنى .. فهل أنت متأكد من أن كل ذلك لا يزال ملـكا لك ؟ .. ألم تهبه من قبـــل للمرأة التى أحببتها ؟

فانتفض جويل حيث قد ذكرته هـــذه الكلمات بأورورا .. وفكر انه قد بات الآن حرا ليعجل بالذهاب الى البيت الرمادى ليعلم منه ماذا حدث لاورورا ويوضح لها أسباب غيابه الطويل .. وسرعان ما خطرت له هذه الفكرة حتى لم يبق فى رأسه سواها ، فقال :

ـ سيدى ، انك قد عاملتنى بعطف كأب .. ولكننى يجب أن أسألك معروفا .

ـ يسرنى أن أستطيع اجابتك الى كل ما تطلب .

ـ أريد أن أستأذنك فى الذهاب الآن لدى مهمة عاجلة أريد انجازها .

ـ تذهب قبل أن تنتهى من الافطار ؟

ـ لم أعد أحس بجوع ولا بعطش .
ـ أي مجنون انت ؟ وهل نسيت الحفلة التى ستجرى عند الظهر ؟
ـ أي حفلة ؟
ـ التى أرسلت ستيبان ليجيء بك من الباستيل الى هنا لاجلها .. وهى الحفلة التى ستجرى فى الكنيسة الملكية والتى أرسلت الدعوة الى النبلاء لحضورها ، والتى سيشرفها الملك والملكة بشهودها .
ـ ألا أزال أحلم ؟ . أم ترانى مصابا بحمى ؟ . بحق الرحمة يا سيدى ما هى هذه الحفلة ؟
فنظر اليه الدوق طويلا ثم قال :
ـ أى حفلة ترتدى من اجلها ثياب العرس ان لم تكن حفلة زواجك ؟
ولو ان صاعقة سقطت على راس جويل لما أثرت عليه أكثر من هذه العبارة . فقال بعد أن أفاق قليلا من صدمتها :
ـ ولكننى لا أريد أن أتزوج .
ـ أنت لم تزل طفلا . ان ارادة الملك يجب تنفيذها بلا جدل .
ـ وهل الملك هو الذى يريد أن يزوجنى ؟ .
ـ نعم ، هذه هى رغبته . وأنت كفرد مخلص من رعيته ..
ـ ولكن لماذا يتدخل الملك فى شئونى الخاصة ؟ انه لا يعرفنى ولم يسبق له أن رآنى من قبل .
ـ أيها الفارس .. ان الملك يعرف جميع نبلائه
ـ هب الان الامر كذلك ، فلم هذا الزواج ؟
ـ لا شيء الا ان كل سيدة فى البلاط يجب أن تكون متزوجة .
ـ أوه ! .. اذن هناك سيدة فى البلاط تريدون تزويجى منها ، ومن أجل ذلك أخرجتمونى من السجن . اذن فاعلم يا سيدى انه لو صيغ من خواتم الخطوبة فى العالم كله سلسلة من الاغلال وكبلونى بها ..
فابتسم الدوق وهو يقاطعه : دع عنك هذا يا ولدى . فالملك لا يعتدى على حقوقك الشخصية بأى حال .. ولو انك علمت ما سيجلبه عليك هذا الزواج من سعادة اذ تصبح من رجال البلاط أو تنال رتبة عالية فى الجيش ..
فقاطعه جويل بدوره قائلا :

ـ علم الله كم تمنيت لو انخرطت فى سلك الجندية وسرت فى صفوف الجيش للذود عن وطنى وبلادى .. بيـد أنه لو جاءتنى تلك العروس حتى برتبة القائد الاعلى للجيش لما حال ذلك دون رفضى البات القاطع

واستند اراميس بمرفقه على المائدة واعتمد ذقنه بيده وقال :

ـ حتى ولو كانت العروس تدعى اورورا دى ترمبلاى ؟ .

فحملق جويل فى محدثه وقد انمحت آثار الغضب عن وجهه وقال :

ـ هل العروس اذن هى ..

ـ المدموازيل دى ترمبلاى . فهل ترفضها ؟

ـ أرفضها ؟ . أواه يا الهى !

ـ هل تحبها كما هى جديرة بأن تحب ؟

فهتف جويل وقد طفت على نفسه انبل العواطف :

ـ هل أحبها ؟ . آه يا سيدى العزيز ! . انى لافضل الموت بطعنة سيف قاضية أو رصاصة تخترق رأسى على أن يكون حبى لها موضع أقل شك أو تساؤل ؟

فنهض دالميدا وقاو ابن بورتوس الى نافذة أزاح الستار عنها قليلا وقال : انظر ! !

كانت دار بزلوريه تقطع فى مواجهة السراى الملكية . وكانت الساحة الفسيحة الواقعة بينهما تمتلىء باالجماهير فى كل مناسبة تسنح فيها الفرصة للناس لاجتلاء طلعة الملك . ولكن الجمهور كان فى هذا الصباح أكثر عددا منه فى المناسبات العادية . وكانت المركبات الفخمة تتوافد بكثرة فتقف أمام الكنيسة ويهبط منها النبلاء والنبيلات وقد ارتدوا الثياب الرسمية اللامعة ، وتواترت الاشاعات بأنهم حاضررون لشـهود زواج سيشرفه الملك والملكة بحضورهما

وفى تلك اللحظة سرت بين الجماهير كما تسرى النار فى الهشيم همسات ونداءات متتابعة :

ـ العروس ، العروس ! . افسـحوا الطريق . هـذه هى العروس !

وكانت مركبة ملكيـة تشق الطريق .. وقـد جلس فيهـا مدموازيل دى ترمبلاى ، والى جانبيها كبيرة وصيفات الملكـة الى يمينها وسيدة اخرى الى اليسار ، وأمامها منظم الحفلات الملكيـة المركيز مونتليه .

وفى كل خطوة تخطوها المركبة كانت تتصاعد الهتافات ويدوى التصفيق وتقول الجماهير بصوت مسموع : « ما أجملها ! »

وترنح جويل حتى سقط فى مقعد خلفه وغمغم :

ـ ألا أزال أحلم ؟ . وهل لن أفيق من هذا الحلم أبدا ؟ أم تراني قد جننت ؟

وربت دالميدا على كتفه وقال : ألا تزال مصرا على أن تموت أعزب ؟

وسأل ابن بورتوس بدلا من أن يجيب على السؤال الموجه اليه :

ـ من هو الذى قال باننا نحب بعضنا ؟

ـ ومن كان يمكن أن يقول ذلك غير السيدة نفسها ؟

ـ وهل هى راضية عن الزواج بى الآن قبل أن يكون لى اسم ؟

ـ عفوا ، فقد كان يجب على أن ابلغك قبل الآن ان الملك قد تفضل وأنعم عليك بلقب فارس لوكماريا

ـ ولكنى لم أفعل ما استحق عليه هذا التكريم ؟

ـ يمكنك أن تفعل من الآن فصاعدا ما يبرهن على جدارتك به ، فان الحرب لم تنته بعد ، وستقع قريبا معركة حاسمة فى بلاد الرين ، والميدان فسيح لاظهار بسالتك

ـ انى أشهد الله على أن الملك لن يعثر بين الصفوف على جندى أشد ولاء للعلم منى . فاعطنى فرصة لاظهر ما أستطيع أن أعمل ، فسأقيم الدليل على اننى والخطر أسدان توأمان ولدا فى ساعة واحدة ، ولكنى أنا الاكبر والارشد

فقال اراميس بلهجة جدية خطيرة :

ـ سأذكر كلماتك هذه ولو انى متأكد باننى لن أكون بحاجة الى تذكير رجل نبيل مثلك بقدسية وعده .

ثم اردف بلهجة أخف حدة : وأذكر لك بهذه المناسبة أن جلالته أراد اصلاح أخطاء وقعت على عائلة المدموازيل دى ترمبلاى ، ومن ثم لا يدهشك ما تراه من عمله على تحقيق رغبة الفتاة فى اعطائها الزوج الذى كانت تحلم به ، ولا عجب اذا حظى هذا الزوج بالعطف الملكى وفتحت أمامه الطريق للتدرج والارتقاء

ودخل بزلوريه فى هذه اللحظة فقدمه دالميدا الى جويل وهز كلاهما يد صاحبه بحرارة

وقال القادم الجديد : اسمح لى يا سيدى الدوق بتذكيرك أن الملك منتظر
ــ حقا ؟ . لقد نسيت اذ شغلنا الحديث ! . هيا أيها الفارس ودعنا نذهب .. اسرع يا بازان وناولنا القبعات والقفازات والسيوف .
ثم اردف ممثلا الذعر : الملك ينتظر ! . ان الرب لا يرضى بذلك ! . وكم ممن ارتكبوا هفوات أقل من هذه قد ارسلوا الى الباستيل؟ . على أنه ليس الملك وحده هو الذى ينتظر ، ولكن ملكة الجما لأيضا .. فان تكليف سيدة بالانتظار لهو جريمة أشد ألف مرة من الخيانة

الفصل الخامس عشر

تمت مراسيم الزواج وسط أجلى مظاهر العظمة وعاد الزوجان السعيدان الى دار بزلوريه ، حيث وضع صديق أراميس تحت تصرفهما الطابق الاول

ووصل جويل وأورورا الى هناك منهوكين من فرط ما عنياه فى ذلك اليوم المزدحم بشتى ألوان المغامرات التى خاضا غمارها باعين معصوبة

كما يجب أن يقال .. فتصور أيها القارىء انهما كانا الى جانب هذه النهكة مضطرين الى أن يروى كل منهما للآخر على عجل ماذا فعل وماذا أحاق به منذ آخر مرة افترقا فيها ، واجتهد لتفهم الحوادث التى تحملا نتائجها دون أن يعلما أسبابها !

ولسوء الحظ رافقتهما كبيرة الوصيفات لكى تلقى تعليماتها الى الوصيفة الجديدة بشأن واجباتها الجديدة ، فقالت لها :
ــ ان عملك يبدأ من الغد ، ومن الضرورى أن تبكرى فى الذهاب الى السراى التى لا تبرحينها الا باذن كتابى
وكان جويل هو الذى أجاب متسائلا فى دهشة :
ــ ماذا تقولين ؟ .. أمحرم عليها أن تبرح القصر الملكى ؟

ــ بالتأكيد ، فان الملكة قد تفاجأ بنزلة خطيرة ويلزم المبادرة الى مساعدتها فى أى وقت
وقال البطل متذمرا : يلوح لى انه يجب أن يبقى الى جانب الملكة طبيب وممرضة بمرتب دائم .. ولكن كم ستستغرق هذه الخدمة ؟
ــ ثلاثة أشهر من الآن ، وبعد ذلك يجب أن تبقى قريبة من

القصر حيث قد تمرض احدى زميلاتها الوصيفات ، فتحل محلها اذا ظلت محتفظة بالرضاء السامى

فقال جويل كمن يناجى نفسه ولكن بصوت مسموع :

ـ يبدو لى أنك تخافين المرض كثيرا .. ولكن اسمعى يا سيدتى ما دامت ستبدأ عملها من باكورة الغد ، فاسمحى لى بأن أقول لك ان لدينا شؤونا خاصة كثيرة يجب أن نبحثها .. ولا تؤاخذينى على هذه الخشونة الظاهرة !

فتركتهما كبيرة الوصيفات وسارت بخطوات متثاقلة تتناسب مع سن الستين التى بلغتها .. على أنه مهما بلغ من شجاعة جويل فى التخلص من كبيرة وصيفات الملكة ، فانه قد جلس الى جانب أورورا حييا مضطربا لا يكاد يجرؤ على الكلام

وانشأت هى تقول : أى غبطة أشعر بها تحت ظل حمايتك !

وأجاب جويل : منذ كنت طفلا على حجر أمى ، حين كنت سعيدا دون أن أدرى . لا أذكر أنه قد مرت بى فى حياتى مثل هذه اللحظة !

وخيم الصمت فوقهما وقتا ما وهما يتناجيان بالسرائر ، ثم قال هو أخيرا : أنت جميلة كملاك يا اورورا .

فأجابت هى : وأنت تبدو لى كالملاك الحارس بسيفه اللامع حيث لا تبرح مخيلتى ذكرى منظرك فى المرتين اللتين انقذتنى فيهما بقوة ساعدك

وكانت النوافذ مفتوحة والليل هادئا والهواء عليلا والجو صافيا .. ورأت اورورا بعين خيالها انهما الان جالسين كما جلسا من قبل على المقعد الذى تحت الشجرة حين فاجأها الكولونيل كوردبف وأعوانه ، فارتعدت لهذه الذكرى وشعر جويل برعدتها فقال :

ـ ما الخبر يا عزيزتى ؟ .. لا ينبغى لنا أن نخاف من الذكريات ، ولنترك روحينا تحلقان فى سماء الامل

فأجابت اورورا : أجل ، فلننس الماضى ، ولنتمتع بهذه اللحظة السعيدة فى غير خوف ولا وجل

وأسندت رأسها برفق فوق كتفه .. وفيما هى تسبل جفونها ، وتكاد سفتاها تلتقيان بشفتيه ، سمعا طرقا شديدا متواصلا على الباب ومناديا ينادى : « فى خدمة الملك ! » وهو لا يجوز لاحد أن يبقى بابه مغلقا دونه

ففزعت أورورا وقالت متلعثمة : ماذا يمكن أن يكون هذا ؟

وحاول جويل تهدئة روعها فقال :

ـ لا ريب أنها رسالة من الملك الى مسيو بزلوريه أو دوق دالميدا

وانفصلا عن بعضهما وذهب فارس لوكماريا ليفتح الباب وهو يقول :

ـ من هناك ؟

وظهر بازان على الباب واجاب : رسالة من الملك يحملها الملازم موبرتوس من فرقة الفرسان

وبدا الضابط المذكور من خلف تابع الدوق دالميدا ، ومن خلف وجه أراميس غير المعبر ، والى جانبه بزلوريه وقد لاحت عليه امارات الدهشة والاستطلاع

وحيى الضابط السيدة بغاية الاحترام وهو واقف على عتبة الباب ، ومد يده بمظروف الى فارس لوكماريا

ولم يكد جويل يفض الرسالة ويطالع محتوياتها حتى هتف « أمر بتعيينى حامل العلم فى فرقة المدفعية الجديدة التى يجرى تأليفها فى « دواى » .. والتفت الى أورورا وقد أشرق وجهه بعلائم الفخر والفرح وقال :

ـ هل سمعت يا أورورا ؟ .. لقد أصبحت ضابطا ! .. أوه .. ما أبدع الملك وما أكثر عطفه !

وأخرج موربرتوس ورقة أخرى من جيبه ومد يده بها الى جويل مصحوبة بالعبارة التقليدية : « بأمر الملك ! »

وعجل جويل بقراءة هذه الورقة كما عجل بقراءة سابقتها .. ولكن الاثر الذى تركته هذه الورقة الثانية لم يكن السرور والبهجة مثل الاولى .. فعاود قراءتها مرة ثانية فى دهشة ، وكأنما كان يزن كل سطر وكل كلمة فيها بميزان دقيق .. وسرعان ما أصبح لونه أشد بياضا من الورقة التى كانت تهتز بها يده

وسألته زوجته : ماذا فيها ؟

وأجاب الفارس قارئا الرسالة بصوت عال:

« بمجرد وصول هذا الامر الى فارس لوكماريا يجب عليه أن يمتطى جواده ويذهب بأقصى سرعته لعرض نفسه فى باريس على وزير حربيتنا الذى سيعهد اليه برسائل ليقوم بتوصيلها الى المرشال كريكيه المعسكر الآن تجاه (فريبرج) فى (بريسجو) .. ولا يقبل الاعتذار بأى حال ولا الاحتجاج بأى ظرف عن تأخير تنفيذ هذا الامر .. وقد عهدنا الى الملازم موبرتوس من فرقة

فرساننا بالاشراف على تنفيذه ، واعداد ما يلزم لكى يبدأ فارس لوكماريا بالسفر فورا

« (الامضاء) لويس »

وحملق الزوجان الجديدان فى بعضهما ذاهلين وقال جويل :

ــ ان السماء تأبى أن يكون هذا ممكنا !

قال الملازم : ما هذا الذى لا يمكن أن يحدث ؟

ــ ما يطلبه جلالته

ــ جلالته لا يطلب . بل هو يأمر

ــ لا بد أن جلالته قد نسى .. فليأخذنى الشيطان .. انى لا أستطيع ترك المرأة التى تزوجتها هذا الصباح فقط !

وحتى الضابط فانه تأثر بهذا الموقف وقال :

ــ انى أقدر ظروفك يا سيدى ، ولكنك جندى ، ويجب عليك طاعة الاوامر

وقال جويل . ومع ذلك فخذنى الى الملك ، وما اشك الا انه سيقبل ضراعتى ويمنحنى مهلة

ــ لقد ذهب الملك الى مخدعه ، وغير مسموح لأحد أن يتشرف بمقابلته حتى يستيقظ فى الصباح ، أى فى الوقت الذى ينبغى أن تكون فى الطريق الى « فريبرج »

وأشار جويل الى ثيابه وقال : ولكن هل أرحل بهذه الثياب ؟

وهنا تقدم دالميدا خطوة وقال :

ــ يا عزيزى الفارس ، اذهب الى غرفة ثيابك تجد « طقما » كاملا من ثياب الفرسان . وهناك أيضا السيف الذى تسلمه منك رجال البوليس حيث أعادوه

وأضاف بزلوريه : ويمكنك أن تختار أحسن جيادى فى الحظيرة

واردف السفير : وا أسفاه ! . اننى متألم غاية الالم ! . فاعف عن رجل عجوز تسبب لك فى هذا كله ، لاننى أنا الذى أفضت للملك فى وصف شوقك العظيم الى القيام بخدمات جليلة لجيشه ، ولم يخطر لى مطلقا أن يؤدى ثنائى المتكرر على بسالتك الى هذه النتيجة العاجلة .. ولعلى أخطأت بالكلام عن ذلك الى الملك فى صبيحة يوم زواجك .

وقالت الزوجة الحزينة : اذن فقد قطع الفارس عهدا على نفسه

فأجاب المدير القديم : ليضحى بكل شىء فى سبيل الملك والوطن .. ولما كان الملك يريد رسولا يعتمد عليه فقد وقع اختياره

على صديقنا تشريفا له وترقية بمناسبة زواجه . ومع ذلك فلو كان فى الوقت فسحه لكنت حصلت من الملك على مهلة

– وما هى نصيحتك لى يا سيدى الدوق ؟

– ان رجلا له مثل قلبك وذكائك يا بنى ليستمد النصيحة من نفسه فى مثل هذه الظروف

وقال موبرتوس : بالاختصار ، ماذا أقول لجلالته ؟

وأخذت أورورورا على نفسها الجواب فقالت :

– تقول لجلالته أن أمره مطاع

ثم التفت الى زوجها الذى كان ينظر اليها فى دهشة واردفت :

– هل تعتقد يا جويل أن حبى لك واعجـابى بك هما من الضعف والتخاذل الى حد انى أحاول استبقاءك الى ؟ .. اذهب واستعد للرحيل ، وعزاؤنا أن كلا منا يؤدى واجبه : انت تسافر لتؤدى الرسالة ، وأنا هنا أعانى الوحدة فى انتظارك

وبعد أقل من ساعة كان هؤلاء جميعا فى فناء دار بزلورية حيث وقف السائس ممسكا بجوادين .. وكانت عيـنـا الزوجة جافتين لانها كانت تبكى من داخل نفسها حتى لا تزعزع شيئا من شجاعة زوجها الذى بدا فى لباسه الحربى أروع ما يكون الجندى وخاصة وقد عاد سيف بورتوس الى موضعه متدليا الى جنبه

وقال بزلوريه : لقد اخترت لك أيها الفارس أحسن جـواد حرب من جيادى

وأضاف دالميدا : وبما انك ستكون محتاجا الى تابـع فانى أعطيك ستيبان ، من أشد خلصائى الاسبانيين ، وهو يتكلم الفرنسية كأبناء باريس ، وشجاع وذو حيلة ، مما قد يفيدك فى الطوارىء

فانحنى جويل شاكرا وقال موبورتوس :

– سأصحبك الى حدود المدينة لاعطيك التعليمات اللازمة

وقفز جويل معتليا جواده ، وتنهدت زوجته وقالت :

– انك لست مسافرا وحدك ، لانك قد أخذت روحى معك

وضعت يدها فى يده فقال لها فى همس :

– أورورا .. انت عظيمة ولك قلب كبير

وانحنى ابن بورتوس ولف يده فوق خصرها ورفعهـا فوق فوق سنمة سرجه وقال :

– سنلتقى مرة ثانية ، فليحرسك الله يا معبودتى الى ذلك الحـين ..

والتقت شفاههما ثم انفرجت عن قبلة واحدة ..
وانطلق جويل يعدو بجواده على آخر سرعته تنفيـــذا للأمر بحذافيره وذهب رأسا الى دار وزارة الحربية فى باريس ، ولكنه أبلغ أن الوزير بقى فى حضرة الملك فى سان جرمان الى وقت متأخر من الليل ، وأنه لذلك لا يقابل أحـــدا قبل الظهر .. واذ خطرت الأرملة سكارون على باله فانه لم يعن بنصائح ســـتيبان ، وعاد فامتطى جواده وقصد رأسا الى البيت الرمادى ..

ورحبت بهالسيدة رغم دهشتها العظيمة لرؤيته فى هـــذه الثيـــاب ..
وقال لها بعد أن أوجز شرح ما وقع له منـــذ تركه منزلهـــا وأورورا طريحة الفراش فى الغرفة الزرقاء :
ـ وها أنت ترين انى اصبحت جنديا من جنود الملك ، وقـد جئت لأودعك ولأشكرك على ما أسديت الينا من أياد بيضاء ، فما أخال الا ان لك يدا فيما أصابنا من حظ عظيم على أثر التحـــاق زوجتى بحاشية الملكة

وكانت الأرملة سكارون قد غاصت فى تفكير عميق وهي تنصت لروايته وخاصة من بدء وصوله الى بيت بزلوريه لغـاية اللحظة التى تلقى فيها أمر الملك بالرحيل فى التو واللحظة ، مع انه لم يكن قد تبادل الا كلمات قلائل مع زوجته ..
وأخيرا سألته هل زوجتك تحبك ؟..
فانفجر ضاحكا ملء رئتيه وأجاب :

ـ يا له من سؤال ظريف .. ولكنها بكل تأكيد لا تحبنى أكثر مما أحبها .. و لكن حقا يا سيدتى ان الشك فى حبها اياى يعتبر طعنا فى فى أطهر قلب فى العالم ..
ثم أردف حين رأى القلق باديا على ملامحها :
ـ ولكنى لا أفهم لمـــاذا أنت ...
فقاطعته : هل لديك ما يحملك على اساءة الظن بذلك الدوق دالميدا المحرك الاعظم فى هذه الحوادث ؟..

فأجاب : ولمـــاذا أسىء الظن برجـــل عجوز طيب مثله ، وهو أحسن الرجال وأكرمهم ..
ـ الا ترتاب اذن فى أية رغبة فى خداعك ..
ـ من أى ناحية .. وبأية وسيلة .. ولأى غرض ؟..
قالت : ألم تذكر لك مدموازيل دى ترمبلاى شيئا عن الملك ؟

ـ مطلقا .. ولكن هذا سؤال عجيب .. فأرجو منك ان توضحي لى غايتك منه ومن سؤاليك الآخرين .

فراحت السيدة تتفحصه بدقة حتىاذا اقتنعت ناجت نفسها: « مثل هاتين العينين الصافيتين ، وتلك القسمات النبيلة ، وذلك الكلام الصريح والحزن الصادق ، لا يمكن ان تجتمع لرجل يتاجر بشرف زوجته » ..

ثم رفعت صوتها وقالت :

ـ لا ينبغى لك ان تشعر بشيء من القلق من جراء أسئلتى هذه التى لا أدرى كيف خطرت لى .. فانسها وسامحنى فان الشيطان يوسوس للانسان احيانا فينطقه بما لا يعنيه ..

وكان البريتونى لم يزل حدثا ، يهدأ بنفس السرعة التى يثور بها .. فقال :

ـ حسنا .. لقد كان يوسوس لى الشيطان أنا الآخر فيذهب بلبى حيث كنت على وشك الاسترابة فى اكثر المخلوقات استقامة.

ـ فلتعاقب نفسك اذن على هذا الخاطر السيء بأن تضاعف من حبك لزوجتك ، ولتكرس حياتك كلها لها ، وتحافظ عليها محافظة البخيل على كنزه الثمين .. فاذهب وكن مطمئنا ، وعجل بالرحيل لكى تعود اليها بسرعة ..

فأجاب البطل وهو ينهض لينصرف :

ـ هذا هو ما اعتزمته .. وسأذهب الآن لأنى أريد ان انتهى من مهمة اخرى تضايقنى قبل أن أبرح باريس بكل سرعة ، ولكن عدينى بشيء واحد قبل ان أودعك ، لا تحرمى أورورا رعايتك أثناء غيابى ..

ـ بل سأفعل أكثر من ذلك ، فسأبقى الى جوارها وأحدثها عنك دائما حتى تعود بالسلامة ، واذا تهددها اى خطر فسأحذرك من المؤامرة لانك انت المسؤول عن الدفاع عنها ..

فقال وهو يخرج من الباب :

ـ لابد انك تعلمين انك ملاك ..

الفصل السادس عشر

برح جويل منزل الارملة ذاهبا رأسا الى شارع « بولوا » ليشغل الساعة الباقية له على مقابلة « لوفوا » فى ابراء ذمته من المهمة التى قطع على نفسه عهدا للأب ليساج أن يقوم بها ..

ولم يجد صعوبة تذكر فى الاستدلال على المنزل الذى كانت

السيدات الثلاث قد ذهبن اليه لاستشارة العرافة .. ولم يكن شيء من الغموض البادي على المنزل من ظاهره قد تغير . ولكن محتويات الغرف كانت قد تغيرت ، ولم يبق من آثار أثاث المنجمة الا مائدة قديمة ، لأ تستحق ان تحرق ، وقد جلست اليها عجوز كريهة المنظر . ووقف رجل الى جوارها ، وأمامهما على المائدة قدر صغيرة فيها خمر ، وقدحان ينقلان تدريجيا ما فى القدر الى جوفهما ..

وكان الرجل هو والتون الذى ذكر اسمه فى قضية التسميم وكان ملىء الجسم ، وشعره أحمر كشعر الثعلب ، وأسنانه كبيرة وشاربه قصير بينما كانت عيناه الزرقاوان الباهتتان كأنهما مصنوعتان من زجاج حبث هما باردتان مجردتان من العواطف . وكانت الدنيا قد فعلت به مثلما فعل به جويل أخيرا ، أى انها طرحته فى الوحل وتركته فيه ، لأنه كان الآن مشعث الرأس ، قذرا ، مهلهل الثياب ..

ووجد جويل باب الدار مفتوحا فدخل ودوى فى الفناء صوت وقع أقدامه ، فقالت العجوز فى ذعر زادها قبحا :

ــ هذا جندى ولا شك ، لأنى أسمع خشخشة السيف وهو يحتك بالأرض ..

وقال الآخر : أمر عجيب .. كنت أظن أن البوليس قد نسى أمرنا ولا سيما بعد فرار « تريزا » .. ولكن لعلها قبض عليها فوشت بنا .. على أن البوليس لن يجد دليلا ضدنا بأية حال ، فقد أعدمت كل شيء بعد فرارها ..

واقترب صوت الخطوات ، وصاح صوت مجلجل مناديا : « يا أهل الدار ، أليس فى هذا البيت من أحد ؟ » ..

فهمس والتون مخاطبا العجوز : حذار مما تقولين له ، فأنا « لاتور » الكاتب العمومى ، وأنت المرضة « بوس » ، وقد نقلنا الى هنا أمس فقط ، ولا نعرف شيئا عن السكان السابقين أكثر مما يعرفه آدم وحواء عنهم ..

وذهبت العجوز الى الباب لتفتحه وهى تقول بصوت عال :

ــ لا تشركل هذه الضجة أيها المنادى وتعال هنا ..

ودخل جويل توا وقال :

ــ أيها الناس الطيبون ، اعذرونى عن هذه الضجة ، فليس لدى لحظة أضيعها ، ومدخل داركم مظلم بحيث لم اكن أرى موضع خطواتى ..

وحملق فيه والتون بكره وغيظ لأنه عرف فيه العملاق الذى رفض مشاركته فى سلب السيدات الثلاث بل صفعـــه بدلا من ذلك فألقاه فى الرغام .. ومن الناحية الاخرى فان جويل لم يلق على الشرير أكثر من نظرة خاطفة لان هيئته الكريهة لم تكن ممـا يرتاح اليها النظر ..
وقال الاثنان معا : نحن فى خدمتك يا كابتن ..

فأجاب : كل ما أريده هو معلومات قليلة عن فتـاة أو امرأة تدعى تريزا ليساج ..
فنظر الرجل الى المرأة . تريزا ليساج ؟.. هل تعرفين احـدا بهذا الاسم أيتها الأم بوس ؟..
فقالت العجوز الدميمة : لقـد نقلنا الى هنا أمس فقط ، ولا أعرف أحدا من جيراننا ولا ممن كانوا هنا قبل أن ننتقل ..

وسأل جويل . انى عالم بأن هنـاك أسبابا تحمل التى اريد مقابلتها على الاختفاء ، ولكنى لا أريد بها سوءا ، وانما أنا رسول أبيها الذى مات منذ زمن وجيز فى الباستيل ، وقد عهد الى ذلك الرجل التعس بشىء أشبه « بميدالية » وقال لى انه ذو قيمـة عظيمة وأوصانى بتسليمه لابنته ..
واشتعلت عينا المرأة العجوز بنيران الجشع وكانت على وشك الكلام لولا أن نظرة مرعبة من زميلها أوقفتها وأردف جويل :

ـ وهذه الميدالية تحتوى على ورقة ذات اهمية كبرى عنـد المرأة ليساج ، وهكذا تريان أنه لابد لى من أن أعثر عليها بسرعـة لتسليمها اياها ..
فأجاب الرجل بصوت مرتجف : وددت لو كان فى وسعى أن أساعدك يا كابتن ، ولـكن لا فائدة من عصر أذهاننا لاننا لانعرفها بيد انها اذا كانت تنتمى الى عصبة السحرة الذين يقال انهم كانوا يسكنون هذا المنزل ، فانى أشير عليك بأن تلجأ الى البوليس .. وعندك دار الحكمدار لارين قريبة من هنا ..

وناجى جويل نفسه : « يلوح لى أن هذا الرجل صادق فيما يقول .. فهل يحسن بى أن أسأل الجيران ؟.. كلا ، فليس لدى وقت مذ كان الظهر قد قرب ، والوزير لوفوا سينتظرنى عنـد الظهر تماما .. وبعد مقابلته يجب أن أسلك طريقى .. وحين أعود من فريبرج سأعاود البحث حتى انتهى من هذه المهمـة .. واذا لم أجد يومئذ صاحبة الميدالية فسأحطمها واعدم الورقة التى فيها

وما كان أشد فرح والتون والعجوز الدميمة حين شهداه يسير منطلقا الى الشارع .. وفيما هو يعبر الطريق كاد يصطدم بسيدة ترتدى ثوبا حريريا اسود ، وعلى كتفيها عباءة فضفاضة من اللون ذاته .. فوقف الفارس مفسحا لها الطريق لكى تمر .. وخيل اليه انه سمعها ترسل صيحة خافتة حين رآته ، ولكنه ظن أنه ربما كان الخوف من التصادم معه هو الباعث على هذه الصيحة .. وتصاعدت الروائح العطرية من خلفها حتى بعد أن ابتعدت بمسافة غير قصيرة ..

وتمتم جويل مناجيا نفسه : « أين شممت هذه الرائحة من قبل ؟.. وأين رأيت هذا القوام الطويل البديع ؟.. وأين التقت عيناى بهاتين العينين النجلاوين الجريئتين ؟ » ..

واستدار ناظرا خلفه بوحى من غريزته ، ولكن السيدة كانت قد احتواها الفناء المظلم الذى برحه جويل منذ لحظة ..

ووقفت السيدة على باب الغرفة وهى تناجى نفسها : « وهو .. فى هذه البؤرة .. ترى ماذا كان يصنع هنا ؟ » ..

وفيما هى مستغرقة فى حيرتها ، مترددة بين أن تطرق الباب أو تلاحق جويل ، كانت العجوز الدميمة تحدث رفيقها قائلة :

ــ أى خطأ هذا الذى ارتكبته ؟.. لقد كان يمكننا أن نأخذ منه الميدالية وكنا نبيع تلك الورقة السرية لمن يهمه أمرها فنحصل من وراء ذلك نفقات رحيلنا ..

وهز والتون كتفيه وأجاب : كان بوسعنا أن نفعل ذلك لولا انى خشيت أن تكون حكاية مخترعة للايقاع بنا . وانى أعرف هذا الفتى فهو الذى أخطأت فحسبته من رفاقنا فى تلك الليلة التى خرجت فيها وراء السيدات الثلاث ، فبدلا من أن يضع يده فى يدى ونقتسم الغنيمة الطيبة التى كانت تلك النسوة تحملنها ، دفعنى الى الوحل ، عليه اللعنة ، وأغلب الظن انه قادم ليتجسس علينا ..

وغمغمت العجوز : جاسوس أو غير جاسوس فقد فاتتنا هذه الفرصة ولكنه اذا عاد مرة اخرى ...

وسمعا فى تلك اللحظة ثلاث نقرات خفيفة على الباب ، فتبادلا النظرات بمثل القلق الذى استقبلا به فارس لوكماريا .. وتكرر النقر ولكن بصوت أعلا هذه المرة ، وارتفع صوت نسائى طالبا فتح الباب ..

وذهبت المرأة ففتحت الباب ودخلت السيدة التى كانت

مترددة في الدخول ، وبعد ان صعدت الاثنين بنظراتها سألت بلهجة الآمـــر :

ـ هل نحن الثلاثة وحدنا هنا ؟..

فأجاب الرجل : نعم أيتها السيدة النبيلة ..

ـ أوه .. أنت هنا يا والتون ؟.. اعطنى مقعدا ..

فحملق الرجل وقال : هل انت تعرفينني ؟..

ـ طبعا أعرفك ، ولكن بالسمع فلم أرك قبل الآن ، وقـــد عرفتك من عبارتك المصقولة التى لايتكلم بمثلها شريرغيرك ، وطبعا لم يكن لسواك أن يتخذ مأواه فى دار ابنة لافوازان ..

وجلست السيدة على المقعد الذى قدمه اليها والتون ، وراحت تروى لهما من جرائمهما العديدة ما قصدت به الى ان تقنعهمـــا بأنها تعرفهما حق المعرفة ..

وأدركت العجوز الدميمة ان الزائرة ترمى من وراء ذلك الى استخدامهما كما استخدمت لافوازان وسائر أفراد عصابة السم من قبل ، فقالت تستدرجهما :

ـ ان السيدات النبيلات يخيفهن ما يخيف العامة ، ولا يزال شبح لافوازان وغيرها يلاحقهن كما يلاحق الآخرين ..

وأجابت الزائرة ببرود : اننى لا أساهم فى ذلك الفـــزع .. بيد انى أريد منكما خدمة اذا أديتماها لى فانى مستعدة لأن أدفع ثمنها بسخاء ..

وكان والتون أكثر مرانا من العجوز فى عقد الصفقات ، فقال :

ـ تكلمى أيتها السيدة ، فنحن على استعداد لخدمتك ..

وخفضت السيدة من صوتها وقالت :

ـ لقد أفدت أكثر من مرة من ذكاء ليساج ولافوازان ، فهل أنت مثلهما فى تجهيز ذلك الدواء الذى اذا أعطيت منه جرعة معينة بعث الحياة والنشاط والقوة ، فاذا زيدت هذه الجرعة كان أثره نوما عميقا ، واذا زيدت الجرعة مرة ثالثة أو أعطيت عدة جرعات صغيرة متتالية سبب ذلك النوم الذى لا يقظة منه ؟..

ـ سيدتى ، اننى مطلع على جميع أسرار هـذا العلم ، وقـد تلقنته على أيدى أمهر الاساتذة فى صباى ..

فقالت الزائرة : حسنا ، انت الرجل الذى ابحث عنه ..

ثم وضعت كيسا متضخما بالنقود على المائدة وأردفت :

ـ سأبعث اليك بتابعى لتعطيه الدواء المطلوب ، وسأكافئـك مكافأة طيبة حـين أجربه .. ولكن لزاما عـلى أن أخبرك انك موضوع تحت رقابة شديدة .. فحذار من البوليس .

فالتفت والتون الى العجوز الدميمة وقال :

ـ ألم أقل لك ان ذلك الرجل من جواسيس لارين ؟..
ـ هل تتكلم عن الضابط الذى قابلته على الباب ؟..
ـ هو ضابط اذن ؟.. على كل حال لم يحصل منا على شيء مطلقـــا ..
ـ وماذا كان يصنع هنا .. تـكلم ، فانى أريد أن أعرف كل شيء ..

فلم يتردد والتون ، بل روى لها بايجاز ما دار بينـــه وبين فارس لوكماريا ، وكانت الزائرة ترتعـد بشدة وهى مصغيـــة للحديث وعقدت حاجبيها وأحاطت بكل من عينيها حلقة سمراء ، واذ انتهى والتون من روايته غمغمت :

ـ لقد فهمت الآن لمـاذا حين فتشوا الشقى ليساج بعد موته لم يجدوا معه ذلك الخطاب الذى يديننى ، ولابد اذن أن يكون هو الورقة التى ذكر جويل ان « الميدالية » تحتوى عليها ..

ثم خطر لها خاطر فجائى فقالت لوالتون :

ـ أيها الصديق ، هل تستطيع أن تأتينى باثنـــين من مهرة لاعبى السيف الأشداء ليقوما لى بخدمة أدفع لهما ثمنا طيبا عنها ؟
ـ متى تريدينهما ؟..
ـ فى الحال ..

وراح والتون يمســح جبينه مفكرا ثم ربت على كتف زميلته العجوز وقال :

ـ اذهبى الى حانة «البئر الجافة» فى (كروا روج) تجـدى شقيقك « محطم الاقفال » يتسكع هناك ، فاحضريه ومعه شخص آخر مثله .. فان هناك ذهبا كثيرا فى انتظارهما .

فنهضت المرأة وغادرت الغرفة بخطوات لا تتفق مع سنها .. ولم يطل غيابها اذ عادت ومعها « محطم الاقفال » الملازم الخائن فى فرقة الهجوم الملكية ورفيقه « قاطع الرقاب » الذى أحضره معه ، وهو جندى سابق فى الحرس الملكى .. وقد أديا التحية للزائرة بوضع يد على السيف والاخرى تعبث بالشارب ..

وقالت الزائرة : افهما ما أقوله لـكما بوضوح .. فالرجـل الآن فى طريقــه الى اللورين ، وستعرفانه من الاوصـــاف التى سأزودكم بها .. فانتقيا جوادين أصيلين والحقا به فى الطريق ، وجندلاه ، أو فقطعاه اربا اربا ولـكن « الميدالية » التى ستجدانها

معه هى التى اريدها ، فاذا جئتمانى بها فسيكون لكل منكما ثروة
وردد محطم الاقفال : ثروة .. وكم تعطيننا مقدما أ..
ــ هاكم خمسين جنيها ، وسأدفع لكما ثلاثة أمثال هـــذا المبلغ عندما تعودان ..

الفصل السابع عشر

تسلم فارس لوكماريا من يدى الوزير لوفوا نفسه الرسائل المعهود اليه توصيلها الى المـاريشـال كريكيه ، ثم برح باريس على جناح السرعة عن طريق ضاحية سان مارتن ، وفى رفقته ستيبان وقد استقر رأيه على ان يقطع ضعف المسافة العادية فى اليوم .. ولذلك رسم خطته على ان يعبر بلدة « شيليه » ويبيت ليلته فى « لاجنى » .. غير انه لسوء الحظ لم يكد يبلغ حافةغابة بوندى وفيما هو يمر بحانوت صغير لحداد عـــلى جانب الطريق ، اذا بصاحب الحانوت يناديه ويقول :

ــ معذرة يا سيدى ، ولكنى أرى حدوة الجواد الخلفية على وشك السقوط اذ ليس بها الا مسماران ..

وكان هـــذا صحيحا ، فاضطر جويل الى الهبوط من فوق صهوة جواده ، وأسلمه الى الحداد الذى قال له ان المسامير التى كانت عنده قد نفدت ، وانه سيبعث غـــلامه الى حداد زميل فى بلدة « بوازى » ليحضر اليه المسامير اللازمة ، وانه لابد من تأخير الفارس زهاء الساعة التى يستغرقها احضار المسامـير وتثبيتها فى الحدوة ..

وخطر لابن بورتوس ان ينتهز هـــذه الفرصة فيكتب أولى رسائله الى أوروزا ليبرهن لها على انه ما من لحظة تمر عليه دون أن يفكر فيها ..

ولمـا سأل الحداد عما اذا كانت لديه أدوات للكتابة أشار له الى درج خلف الحانوت وقال :
ــ اصعد الى غرفتى تجد مائدة صغيرة فوقها الورق والمداد والقلم ، ويمكنك ان تستريح فيها حتى نخبرك حـــين ننتهى من العمـــل ..

وفيما كان جويل صاعدا الىالدرج ، ذهب ستيبان الىالحداد وألقى بالاشارة المتفق عليها فقال الحداد :
ــ تجد صاحبك هناك ..

وأشار الى حاجز خشبى داخل الحانوت ، يتخذ الرجل من الفراغ الواقع خلفه مخزنا للفحم ..

فذهب ستيبان الى الموضع الذى أشـــار اليه الحداد واذا بالكولونيل كوردبف يتسلل خارجا من جحر ثم يقف متثائبا ممددا ذراعيه وساقيه كالهرة حين تغادر وكرها ..

وسأله ستيبان . هل قرر سيدى الدوق نهائيا ان ينتهى من مهمتنا هنا دون ان نذهب الى فريبرج ؟..

فأشار كورديف الى موضع من الغابة وأجاب :

ـ هناك عشرون غدارة خلف تلك الحشـائش ، عشر على كل جانب .. وكلها على أتم استعداد للعمل فى الوقت الملائم فينتهى كل شيء فى طرفه عين ..

ـ اننى أحب ســماع صوت البنادق على شرط الا يـكون حديثها موجها الى ..

وأردف كورديف : وانما يجب علينـــا ان ننتظر حتى يهبط المساء والا فقد يرى البريتونى اللعين رجالنا قبل أن تتهيـأ لهم الفرصة لاقتناصه ..

فأشار الاسبانى الى الجو وقال :

ـ أننتظر هبوط المساء والجو منذر بعاصفـة شـديدة ؟.. لقد بدأت حياتى بحارا ، ويمكننى أن أؤكد لك أنه لن تمضى ساعة حتى تهب الزوابع ..

ففرك كورديف يديه وقال : هــذا من حسن حظنا .. فان رجالى ولو انهم سيطلقون غداراتهم وسط تلك العاصفة شـذر مذر ، فلابد ان يصيب بعضهم الهدف ، وبعد ذلك يذهب كل منهم الى وجهته .. وحين تكتشف الجثة ستتجه الانظار الى قاطـع الطريق فيدجوس الذى يقيم فى هذه المنطقة ، ولكن دعنى أذهب الآن لاعداد الكمين ولئلا يهبط البريتونى اللعين على حين فجـأة فيعرفنى ويرتاب فى الامر ..

وبينما كان هذا الحديث يجرى كان جويل جالسا الى الطاولة الصغيرة فى غرفة الحداد العليا يكتب أول خطاب لزوجته وقـد جرى قلمه بسرعة حتى انتهى من الـكتاب فى لحظـات يسيرة ثم جلس بالقرب من النافذة الوحيدة فى تلك الغرفة ينظر الى الادغال تارة ، والى السماء تارة اخرى فمـا عتم أن غمغم : « ما لى أرى الظلمة تهبط بسرعة كأنما يوشك الليل أن يحل ؟ » .. ثم وقـع

نظره فجأة على اشباح تتحرك بين الادغال فهتف : « هذا يلوح لى كأنه كمين » ..

ولم يكد يتم عبارته حتى رأى يدا تشير الى تلك الاشباح كما يفعل الضابط حين ينظم مواقف جنوده .. واستدار صاحب اليد موليا وجهه شطر جويل وهو يواصل اشاراته لجنوده فهتف جويل : « تالله أكاد اجزم بأن هذا هو الوغد كورديف بعينه ! » ..

وبعد لحظة اخرى اختفت الاشباح فى الغابة وواصل الفارس الشاب تأملاته متسائلا عمن عساه يكون المقصود بهذا الكمين ؟..

وفيما هو كذلك سمع وقع حوافر جياد قادمة على طريق باريس .. وكانت الشمس قد اختفت وراء السحب الكثيفة ، وبدأت الريح تثير الغبار فى الجو ثم بدأ تساقط الامطار فسكن الغبار واشتد صفير الريح وهى تتخلل المطر ..

وكانت أصوات وقع حوافر الجياد تقترب بسرعة وما هى الا لحظة أخرى حتى ظهر رجلان مندفعين بجواديهما بأقصى سرعة.. والظاهر أن أحدهما كان أكثر مهارة فى ركوب الخيل من زميله ، لانه كان متقدما عليه بنحو ثلاثة أطوال أو أربعة ..

ومرا على حانوت الحداد فرآهما جويل يسلكان الطريق المؤدى الى الكمين ، فناجى نفسه قائلا : « ترى هل كان ذلك الكمين من أجل هذين الفارسين اذن ؟ » ..

فرفع صوته الى أعلاه مناديا الفارسين المجهولين ليحذرهما من الكمين .. ولكن صفير الرياح ابتلع النداء فى المرات الثلاث التى كررها جويل .. وحينئذ اندفع خارجا من الغرفة وهبط الدرج فى قفزتين وما أن رأى ستيبان حتى صاح .

ـ هات جوادينا بسرعة حتى نلحق بهذين الفارسين اللذين مرا من هنا الآن ويوشكان أن يقعا فى كمين !..

وغمغم ستيبان وقد ذهب لتنفيذ أمر سيده الجديد : « ويل لهذين الفارسين .. لقد دفعهما حظهما السىء الى المرور من هناك فى هذه اللحظة اذ سيخطئهما الرجال فيقتلونهما بدلا من هذا الفارس الجديد » ..

قفز جويل معتليا صهوة جواده وقال :

ـ هيا يا ستيبان ولنذهب بأقصى سرعتنا وأشهر سيفك فانه يجب علينا أن ننقذ هذين المسافرين أو نقدم اليهما ما نستطيعه من مساعدة على الاقل ..

ولكنهما ما كادا يقفزان بجواديهما قفزات معدوده حتى ترامى

اليهما دوى عشرات من الطلقات النارية .. وعلى الرغم من ذلك واصل الفارس الشجاع لكز جواده ممسكا باللجام بين أسنانه والسيف بيمينه واحدى الغدارتين فى يده اليسرى .. وكان ستيبان يعدو خلفه بمثل سرعته ..

ووضع التابع الخائن يده على غدارته وغمغم : « يبدو لى انى سأضطر الى افراغ رصاص هذه الغدارة فى ذلك الرأس » ..

ولكن بضع طلقات شاردة كانت تئز فى الجو حولهما ، فما لبث خادم أراميس أن صاح مذعورا حيث كانت احدى الرصاصات الطائشة قد مرت بكتفه واستقرت فى عنقه ..

ولم يلق جويل باله الى أنين تابعه لأنه كان قد شهد فى تلك اللحظة بذاتها جثتين تسيل منهما الدماء حتى تألفت منهما بركة حولهما ، فهبط ابن يورتوس من فوق صهوته وربط جواده الى شجرة وعاد فانحنى فوق الجثتين الداميتين ، وما كاد يفحصهما حتى وجد انهما قد فارقتا الحياة ..

وترك الجثتين وتحول يريد ان يسأل ستيبان عن اسباب أنينه حيث كان جواده قد وقف به على مقربة من جواد جويل المربوط الى الشجرة ..

ولما رأى التابع جثتى الفارسين تمتم دون أن يعنى بما اذا كان صوته مسموعا أو غير مسموع :

ـ آه .. لقد فهمت الآن ماذا كان مبيتا لى أنا الآخر ، فانى لو كنت وراء الفارس كما كان هذان الفارسان يسيران أحدهما خلف الآخر لكنت قد اصبت معه وقتلنى أولئك الاوغاد كما قتلوا هذين الفارسين ولكنى أحسب ان الاوامر التى أعطيت اليهم كانت تقضى عليهم بذلك للتخلص منى فيطمئن الدوق الى عدم افتضاح مؤامرته حيث ان احدا من أولئك الرجال لا يعرف من هو السيد الذى يستخدمه .. ولكنى سأعرف كيف أنتقم من ذلك العجوز الغادر ..

وتقدم جويل يريد فحص جرحه ولكنه كان واضعا يده على موضع الاصابة وتصبب جبينه بعرق غزير وانطبقت جفونه رغم جهده لابقاء عينيه مفتوحتين ..

وتناول جويل قنينة النبيذ من سرج جواده وفتح سدادتها ووضعها على فم تابعه الذى لم يستطع ان يجرع منها الا جرعة صغيرة بصعوبة ..

وانتعش ستيبان قليلا فهمس : فليباركك الرب ..

وقال جويل : تشـــجع فسأحملك الى حانوت الحداد حيث يمكننا العناية بك هناك ..

ـ لا تفعل شيئا من ذلك .. لقد انتهى كل شيء ، وما لقيت الا جزائى ..

وفتح عينيه ببطء ووقع بصره على الجثتين المضرجتين بالدماء فأهاجته رؤية الدم وأردف :

ـ انتقم لى يا سيدى .. أوه ! لو كان هنا قسيس لاعترفت له قبل ان أموت ، ولـكن ، تلق انت اعترافى أيها الفارس الشجاع فانك تستطيع ان تفيد منه بانقاذ نفسك وربما ايضا ..

فقاطعه جويل : انت تهذى بلا ريب .. وكيف وممن أنقـــذ نفسى ؟..

ـ ان هذا الكمين كان موجها ضدك وضدى ، فقد كان الوغد كورديف يريد القضاء على شريكه ..

ـ هو كورديف الذى كان على رأس تلك العصابة اذن ؟..

ـ نعم ، هو بذاته عدوك اللدود .. ولكن هناك غيره ايضا .. فان الفكرة أو المؤامرة التى دبرت بارسالك الى فريبرج لم يقصد بها الا التخلص منك ، ولكنهم عادوا فدبروا لك هذا الكمين هنـا ليقتلوك خوفا من ان تفشل مؤامرتهم بنجاتك من الموت فى فريبرج فتعود منها سالمـا ..

ـ ولكن لمـاذا ؟.. ومن هو الذى يفيد من موتى ؟..

ـ كل شيء يدور حولى .. اعطنى جرعة اخرى ..

فقدم له جويل قنينة النبيذ وسكب منها بضع نقط فى فمـه فدبت الحياة فى أوصاله وقال :

ـ اصغ الى الآن واطبع الكلمات التى سألقيها اليك فى ذاكرتك ولا تنس حرفا منها .. ان سيدى الدوق داليدا قد اشترى على حافة غابة مارلى دارا لا تبعد كثيرا عن قصر الملك .. وفى الغرفة الكبرى من تلك الدار ، والى يسار الموقد ، يوجد باب مســحور يفتح بضغط زر مستور تحت المقبض النحاسى لباب تلك الغرفة من الداخل ، وهـــذا الباب المسحور يؤدى الى نفق يمتد تحت الارض حتى يصل الى قصر الملك ، منتهيا الى احـدى الغرف فى جناح الملك نفسه ..

قال جويل : ولكن لماذا تخبرنى بهذا كله ؟ وأى علاقة لى به ؟

فالتقط الجريح المحتضر نفسه بصعوبة وأجاب :

ـ لا عجب انك لا تعرف شيئا مما يدبر ضدك ولكنك تخطىء

اذا كنت تظنني أهذي تحت تأثير ما أعانيه .. فان هـذا الطريق السرى سيستخدم ليسلكه الملك فى الوقت الملائم ليقضى لبانته ثم ..
ــ ثم ماذا ؟..
ــ اسقنى .. اننى أموت ..
ورفع جويل القنينة فوق شفتى المحتضر فرفعها بيده وقال :
ــ كلا ، لن اذهب ثملا الى خالقى ..
وتدلى رأسه فوق صدره وفارق الحياة ..

ودار جويل ببصره يلقى نظرة أخيرة على ميدان الموقعة حيث كان القتيلان المطروحان على ظهريهما لايزال يبدو على وجهيهما طابع الشر الذى لم يستطع الموت أن يمحـوه .. ولكن أنى لابن بورتوس أن يدرك أنهما لم يكونا سوى أجيرى المركيزة مونتسبان وقد بعثت بهما ليطارداه ويقتلاه ويسلباه وديعة الاب ليساج ، فيشاء القدر أن يتلقياهما الرصاص من الكمين الذى كان منصوبا لمن أرادوه وأراده الكمين له !

وعاد البطل الى حانوت الحـداد ليسـتعين به على اتخـاذ الاجراءات اللازمة حيال أولئك القتلى الثلاثة ولكنه لم يجده هناك حيث كان قد رحل عن حانوته وداره مخافة أن يتهم بالاشتراك فى تلك المؤامرة .

وعندئذ لم يجد جويل بدا من أن يذهب بنفسه الى عمـدة القرية حيث روى له تفاصيل الحادث ثم استأنف رحلته وقد شعر بشيء من الارتياح للتخلص من تابعه الخائن ، وان كان قد ساوره قلق جديد من جراء اعترافاته الاخيرة ولا سيما وهو لم يستطع اتمامها .

وراح يفكر وهو منطلق فى طريقه من عساه يكون عدوه اللدود الآخر ، غير كورديف ، الذى يرجو له الموت ؟

ولم يكن محتملا أن يكون ذلك العدو هو الدوق دالميدا . لانه لو كان هو فلماذا عمل على اخراجه من الباستيل ولو قد بقى فيه لمـا كانت هناك من حاجة بالدوق الى أن يخشى أمره ويدبر كل تلك المؤامرات لقتله !

وكذلك لايمكن أن يكون الملك هو العدو الذى أشار اليه ستيبان فى اعترافاته ، لأن الملك لايلزمه للتخلص من أى عدو له أكثر من اشارة صغيرة بأصبعه أو كلمة تخرج من فيه .. ومع ذلك فقد كانت هناك فرصة سانحة للتخلص من فارس لو كماريا لو أراد الملك ذلك ، فكان يترك العدالة تأخذ مجراها فى قضية المبارزة ؟

ولا يمنحه ذلك العفو ويغدق عليه من تعطفاته مارد عليه الحياة ورفع مكانته وفتح أمامه الطريق للتدرج الى المعالى !

ولا حاجة الى القول بأنه لم يخطر لجويل أن يبحث فيما بين يديه من أدلة وقرائن عما اذا كان ممكنا أن تكون أورورا مشتركة فى المؤامرات التى تحاك له فى الخفاء ، وخاصة والتابع المحتضر نفسه لم يذكر اسمها مطلقا فى اعترافاته .

وهكذا وصل رسول الملك الى نانسى مضطرب الذهن مشوش الفكر ، فوجد فيها خطابين فى انتظاره وأحدهما من زوجته .

وقد بدأت أورورا خطابها بالاعراب عن شوقها الملح لرؤية زوجها ثم قالت انها تقوم بخدمة الملكة فى سان جرمان فى حين أن الملك مشغول بالمحادثات الهامة التى تجرى فى نيموجين ، وقلما يزور جناح عقيلته .. وقالت أيضا انها لم تر المركيزة مونتسبان ، بينما كثيرا ماتتاقبل مع الارملة سكارون حيث لايكون لهما حديث الا حوله وفى ذكراه .. وختمت الخطاب بكلمات للتشجيع ودعوات حارة لعودته سالما .

وعاود البطل قراءة الخطاب ثم قبله ووضعه فى جيبه وفض الخطاب الثانى فاذا هو من الارملة سكارون وقد أكدت له ماجاء فى خطاب زوجته وزادت عليه قولها أن أورورا تفوز باعجاب الجميع بصراحتها وسمو أخلاقها وترفعها عن الخطأ والاسفاف ..وختمت هى أيضا خطابها بالدعوات ، وكررت له تأكيد عهدها الذى قطعته له قبل سفره من باريس بأنها ستظل الى جوار أورورا ولا تفتأ تحدثها عنه .

وكأنما كان هذا الخطابان بلسما شافيا لجويل مما كان يعانيه من قلق واضطراب .

ومن ثم استأنف الفارس سفره بنشاط على الرغم مما كان قد اعتور الطريق من تلف بسبب مرور عجلات المدفعية الثقيلة عليها .

ومع أن الجو كان صحوا حين بدأ رحلته من نانسى فانه لم يكد يبلغ الغابة السوداء حتى تلبدت السماء بالغيوم الكثيفة ، واظلم الفضاء حتى اضطر الفلاحون لاشعال المصابيح فى دورهم ..ورأى جويل نورا قويا ينبعث من داخل احدى الدور فوقف أمامها ظنا منه انها قد تكون فندقا أو حانة مما يأوى اليه المسافرون على الطريق .

ولم يخطىء ظنه حيث قد وجد لوحة كتب عليها «خان الاسماك الطازجة » .

الفصل الثامن عشر

لم يجد جويل أحدا يستقبله على باب الخان حتى لقد حسبه مهجورا لولا أن سمع أصواتا من داخله ، فربط جواده الى حلقة في الجدار ، ثم دخل الخان بخطوات جريئة .

وكان الخان مؤلفا من قاعة واحدة فى نهايتها سلم وفى وسطها مائدة كبيرة وفى ركنها موقد تتصاعد منه روائح شــواء اللحم أو السمك مختلطة ببعضها .

وجلس بجوار النافذة الوحيدة فى تلك القاعة جاسبان برون صاحب الخان وفى يده بندقية صيد ينظفها .. وهو رجل طويل القامة ، يميل لونه الى السمرة ، وكان جنديا فى الحرب الثلاثينية ، وقد ظل محــافظا على ولائه لامبراطوره حتى بعــد أن احتــل الفرنسيون تلك البقعة من وطنه .

وعندما نهض الان لاستقبال ضيفه كان يحاول جهده أن يخفى شعوره ولكنه قال فى مزيج من الفرنسية والالمانية :

ــ ماذا أستطيع أن أقدم لك من خدمة ياسيدى ؟

ولم يلق الفارس باله الى تجهم صاحب الفندق وقال فى مرح :

ــ يمكنك أن تقدم لى ماشئت أيها الرجل الطيب ، ولكنى أريد أولا حظيرة وعلفا لجوادى الذى تجده بالباب ، ثم غرفة وطعاما لى أنا . فهل هذا ممكن ؟

ــ لاشىء يستحيل وجوده الان على الحدود طالما كانت هناك نقود واذا كان لديك وقت للانتظار .

ــ لك ماشئت من وقت لاعداد ماطلبته منك . وأما النقود فما دمت قد نجوت من فرسان الطريق لم يعد يزعجنى ماأنفقه منها .

وصاح جاسبار : استيقظى وانهضى أيتها الباريسية الكسول ، واذهبى فخذى جواد السيد الى الحظيرة ، ثم عجلى بالعودة لطهى الطعام .

وكان الرجل قد ألقى هذا الكلام بالالمانية ، ولكن جويل كان قد تعلم من تلك اللغة مايكفى لأن يفهم المحادثات العادية ، وقد التقط فعلا مايعنيه صاحب الخان برطانته .

ولكن الذى أدهش جويل هو أن الفتاة التي نهضت من وراء الطاولة المنصوبة أمام الموقد ، قد انتهزت فرصة انصراف صاحب الخان لتعليق بندقيته فى مسمار بالجدار ، فوضعت أصبعها على فمها ثم أشارت به الى جاسبار ، كأنما لتحذر الزائر منه .

وكانت هذه الفتاة ضئيلة الجسم رشيقة الحركة على الرغم

مما يبدو عليها من قلق وانزعاج ، بينما قسمات وجهها ونظرات عينيها أدلة قاطعة على أنها باريسية المولد والنشأة .

وأشار صاحب الخان الى ركن آخر من القاعة وقال

ـ تجد هناك حوضا به ماء نقى قد تحتاج اليه لتزيل عنك غبار الطريق ويمكنك أن تعطينى سيفك وغدارتيك لاحفظهما لك عندى .

فأجاب جويل ولما تفارقه ابتسامته :

ـ أشكرك جدا ياصديقى ، فانى معتاد حمل سلاحى معى دائما بحيث لايعوقنى عن أداء أى عمل .

وظهرت علائم الحنق على الاخر ولكنه قال فى هدوء

كما تشاء ياسيدى .. واذن . مادمت لاتريد منى شيئا الان . فاسمح لى بالذهاب لاحضر لك بعض الشراب .

وانطلق ذاهبا الى نهاية القاعة فرفع بابا مسحورا وهبط بضع درجات الى قبو الخمور . ولم يكد يتوارى فيه حتى عادت الفتاة وظهر عليها أنها تريد لو استطاعت أن تكلم الزائر . ولكنها ذهبت الى الموقد لاحياء ناره . وانتهزت فرصة فنظرت الى جويل نظرة عجيبة كأنها تقول له « خذ حذرك دائما . فاننا مراقبون » .

وكذلك عندما أعدت المائدة ووضع عليها صاحب الخان زجاجتي النبيذ اللتين جاء بهما من القبو انتهزت الفتاة فرصة ثالثة فأشارت الى جويل بأن يشرب من النبيذ بلا خوف .

وألقى جاسبار نظرة غاضبة على الفتاة وقال :

ـ أهكذا تتركين السيد يتناول الطعام وسلاحه يتعبه ؟

واستاء جويل من هذا الالحاح فقال فى حدة :

ـ دع عنك هذا العناء ؟.. فاننى كجندى أحاول اعتياد تناول طعامى وشرابى وسلاحى معى .

ـ السيد جندى اذن ؟

ـ نعم ، وأكثر من ذلك فاننى الان رسول خاص برسالة من باريس الى المارشال كريكيه .

وكرع جويل زجاجتى النبيذ على الطعام الذى لم يكن قد انتهى منه الا وقد حل المساء ، وحينئذ قال له جاسبار :

ـ هل أعجبك النبيذ ؟ اننى أصنعه بيدى .

ـ هو جيد جدا ، وسأحب هذه البلاد من أجله .

فعرض عليه صاحب الخان أن يجيئه بزجاجة ثالثة ، ولكن عينى جويل تلاقتا فى تلك اللحظة مع عينى الخادم ، فاعتذر بأنه تعب من السفر ويريد أن ينام .. وحينئذ ذهب صاحب الخان

لاشعال شمعة من الموقد ، فانتهزت الفتاة هذه الفرصة على عادتها وأشارت الى جويل لكى يترنح ويتظاهر بالثمل . فلما عاد صاحب الخان وأعطاه الشمعة ليصعد بها الى غرفته نهض متثاقلا ثم ترنح كما لو كانت الارض قد اهتزت تحت قدميه وقال :

ـ ماهذا ؟ يخيل الى أن الريح الشديدة تهز هذه الدار حتى لكأنها سفينة تتلاعب بها الامواج .. اوه .. ولكن هذا قد يكون من تأثير هذه الخمر الجيدة . فلا بد أن أنام قبل أن أصاب بصداع شديد .

فضحك جاسبار بملء رئتيه وأجاب :

ـ حقيقة ان النوم يشفى من الصداع ، فأصعد هذا الدرج تجد الغرفة والسرير فيها تحت النافذة . فهل تريد شيئا بعد ؟

ـ كلا ، فقد سقط تابعى قتيلا فى الطريق ويجب أن أعتاد من الان فصاعدا تدبير شئونى بنفسى .

وما أن دخل الزائر غرفته حتى تأبط صاحب الخان بندقيته وقال :

ـ مدام تريزا ، أنا ذاهب الان لمقابلة والتون ، فاذا أتى الرجل الذى فى الغرفة بأى حركة فما عليك الا تنفخى فى البوق فنحضر لمساعدتك .

وكان جويل منصتا فسمع هذا الحديث وأدرك أن هناك خطرا يتهدد نقوده ، أو الرسالة التى يحملها ، أو حياته ذاتها . وكان قد أطفأ الشمعة وجلس على السرير لايبدو عليه أى أثر للتعب أو الثمل ، واستعد بسيفه وغدارتيه للطوارىء .

وفيما هو كذلك سمع صوت خطوات خفيفة على الدرج ، ففتح الباب فتحة صغيرة وكان بصره قد اعتاد الظلمة فرأى الفتاة تتلصص صاعدة اليه .

وابتدرها وهى واقفة ببابه قائلا :

ـ هأنذا مصغ لما تريدين أن تقوليه لى .

فأجابت : لقد ذهب الرجل الى موعد ، وربما أحضر معه مساعدا له ولكنه لن يعود قبل ساعة . وهذا الرجل قد أعاد استدراج الجنود والمسافرين الى هنا فيقدم لهم خمرا حتى يثملوا ثم يقتلهم وهم نائمون ، وهو بذلك يفيد من ناحيتين : أولا بالاستيلاء على مايحمله ضحاياه من نقود ، وثانيا ببيع ماقد يحصل عليه من أسرار حربية بهذه الوسيلة الى الذين يستخدمونه . ولذلك لم يكد يسمع انك تحمل رسالة خاصة الى المارشال كريكيه حتى سال لعابه فذهب الان ليستشير زميلا له خبيرا بقيمة الاسرار وليساعده

فى التخلص منك . و لابأس ان أخبرك انه هو وزميله حاولا اغرائى لاستدراج الضباط والجنود الى هنا حتى يحصلا منهم على الاسرار ليبيعوها الى أعدائنا .

ـ وماذا كان ردك على ذلك ؟

ـ لم تسنح فرصة بعد ، و ..

ـ وحبك لوطنك يحول دون ذلك ؟

ـ لا أدرى .. فلقد ذهب جاسبار الان لمقابلة ذلك الرجل الظالم بل الشيطان الذى لابد انك قد سمعت عنه اذ هو زعيم عصابة التسميم وزميل لافوازان وليساج ، وهو الذى يدعونه بالانجليزية تارة ، وبالمؤلف تارة أخرى .. فهل تعرفه ؟

ـ ان معرفتى بباريس محدودة . ولكنى سمعت بعض الشىء عن العصابة التى ذكرتها .

ـ سأخبرك فى فرصة أخرى بكل ماهنالك ، وانما يكفى أن تعلم الان انه شرير بلا قلب . وقد أخبرنى اذ هو قادم من باريس ليضمنى ثانية اليه ، ان هناك معلومات هامة سيسعى للحصول عليها ليبيعها الى الامير شارل ، قائد جيوش الاعداء ..

ـ ذلك الشقى هو عشيقك اذن ؟

ـ بل معذبى ، والحلقة الباقية من سلسلة الاثام التى يقشعر بدنى لذكراها ، وقد ربطنى القدر معه بأغلال كالتى توضع فى أيدى المسوقين الى المشنقة ، وربما أكون قد أحببته فيما مضى ، ولكنى الان أخضع له فقط ، وأنا مضطرة لخدمته ، ولكنى أمقته .. غير ان المهم الذى أريد أن أقوله لك الان هو ان جاسبار يرجح أن يعود ومعه والتون ، كما يحتمل أن يستعينا بغيرهما من الاشرار المنبثين فى هذه الجهة ، ويكفى أن ينال الفرد منهم قطعة ذهبية ليتحول قاتلا سفاكا للدماء .

فابتسم جويل فى اعتزاز المطمئن الى شجاعته وقال :

ـ فليحضروا !.. ولو كانوا مائة لقاتلتهم ..

ـ انى أراك شجاعا تستطيع أن تدافع عن نفسك ، ولكنهم قد يتكاثرون عليك ، فماذا يكون من شأنها ؟

ـ من هى هذه التى تتحدثين عنها ؟

ـ هى السيدة التى تحبها وتحبك والتى تركتها هناك .

ـ أورورا !

ـ آه ، هل هذا هو اسمها ؟.. انى لاأعرف شيئا مطلقا عنها ، ولكن الذى أعرفه هو أن الرجل الذى يحب وهو محبوب ليس من حقه أن يدفع بنفسه الى الخطر اذا استطاع تجنبه .

وهز رأسه وهو يردد : أورورا !

وأردفت الخادم : هب أنك قتلت غيلة فماذا يكون من أمرها وهى قد تكون محتاجة الى ساعدك حتى فى هذه اللحظة ؟.. ففكر فيها .. وفكر فى أنا أيضا فان ذلك الشرير يقتلنى اذا علم اننى أفشيت سره وسر زميله ، وأنا لاأريد أن أموت حتى أكفر عن ذنوبى وأتوب توبة صادقة .

وشعر ابن بورتوس بأنه غلب على أمره بهذه التوسلات فقال:

ـ حسنا وماذا تريدين ؟

ـ اننى لم أترك السرج على جوادك فحسب ، بل قد وضعت سرجا على جواد والتون حتى نتمكن من الفرار معا .. وكل ماأرجوه منك هو أن تودعنى مكانا لايعثر على فيه ، وليكن ديرا أو مايشبهه. فهيا الان واتبعنى .

وثارت نفس جويل فهتف : أفرارا من وغد ؟

فوضعت المرأة يدها على ذراعه وقالت :

ـ هيا بنا الان وسأهيىء لك فرصة أخرى تقابله فيها .

فهبطا الدرج بحذر قدر المستطاع وسارا نحو البـاب حيث استوقفته وراحت تتلصص ثم عادت تقول :

ـ خير لنا أن نأخذ طريقنا من الباب الخلفى .

وعادا أدراجهما فخرجا من باب اضطر جويل الى ضغط نفسه حتى يسلكه ، غير أنهما ماكادا يعبران الى الحديقة الخلفية حتى أمسكت الفتاة بساعده وجذبته تحت كرم ظليل من كروم العنب.

ذلك أن ثلاثة أشباع سوداء عبرت من الحظيرة الى الحديقة ، وقد عرف جويل أطول الثلاثة وهو صاحب الفندق ، وكان الاخران يرتدى كل منهما عباءة وقد تدلى سيف الى جانبه ، غير أن أحدهما كان يبدو فى مظهر حربى ، وكان صاحب الفندق والشخص الاخر يعاملانه باحترام ظاهر .

وقال هذا الرجل بصوت من اعتاد اصدار الاوامر :

ـ مامعنى اطفاء النور فى الوقت الذى وصلنا فيه الى هنا ؟

فأجاب جاسبار : أحسب ياسيدى الامير أن زوجة هذا الرجل قد ذهبت لتنام .. وسأذهب على كل حال لاتأكد .

ثم انثنى يحادث الرجل الاخر فى همس :

ـ عجل بالاتفاق مع الامير ياوالتون حتى نتفرغ لهذا الضابط الفرنسى .. ولكنى أخشى أن تكون زوجتك قد أفشت له سرنا .

فأجاب والتون بذات الهمس : لا تخف ، فانها أداة طيعة فى يدى كقطعة العجين .

وكأن صاحب الخان لم يطمئن الى هذا التأكد من والتون فخاطب الشخص المنادى بالامير قائلا :

ـ هل تتفضل سموك بتشريف خادمك بالدخول وتتنازلون بقبول ما يحتويه دولابى وقبوى ؟ .
فربت الاخر على كتفه وقال :
ـ مهلا يا جاسبار فسأدخل هذه الدار وأجلس الى مائدتك ولكن ليس قبل تنظيف هذه البقعة من الاجانب الملاعين الذين احتلوا أرضنا بغير حق .. ولكن اذهب الان وراقب ما حول سور الحديقة فان المتطفلين يفرخون فى الظلام .

الفصل التاسع عشر

قال جويل يسأل رفيقته فى همس :
ـ هل يمكن أن يكون هذا الرجل هو الدوق شارل ؟ .

ولكن رفيقته كان الخوف قد جعل منها تمثالا ، فجلست فوق مقعد تحت الكرم فى صمت بليغ .

وبينما ذهب جاسبار ليقوم بوظيفة الديدبان على سور الحديقة ، سار الاثنان الاخران الى خميلة مجاورة للكرم ، فجلس الامير واتكأ بيديه على ركبتيه ، وظل الانجليزى المزعوم واقفا وقبعته فى يده .. وحين وقع ضوء النجوم على وجهه دهش جويل لانه رأى أمامه الرجل الذى قابله فى دار العرافة فى شارع بولوا بباريس .
ولم يطل جويل التأمل أكثر من ذلك لان الحديث الهام كان قد بدأ .. وقد استعمل فيه المتحادثان لغة الحدود التى تخاطب بها جاسبار مع جويل ، أى خليطا من الفرنسية والالمانية ، وقال والتون :
ـ نعم يا مولاى الامير .. لقد جئت من باريس على جناح السرعة حاملا أنباء لسموكم .
ـ أهى أنباء سارة أم سيئة ؟ .
ـ كلاهما يا صاحب السمو ..
ـ اسمعنى الانباء السيئة أولا يا سيدى .
ـ لقد ارتكب الدوق ساكس ازناك خطأ فى تراجعه أمام القائد الفرنسى مونكلار حيث تقهر الى جزيرة فى نهر الرين بالقرب من ستراسبرج مما جعله يسلم بسهولة .

فقفر لون الامير وقال :
ــ حقا هذا نبأ سيء .. بل أسوأ .. بل كارثة ! . وماذا أيضا يا سيدى ؟ . اسرع ! .

ــ كذلك يا مولاى الامير لم يعد يمكنك أن تعتمد على الستين الف جندى الذين وعدك بهم صاحب الجلالة الامبراطور لتستخلص فريبرج ، لان جلالته بعث بهؤلاء الجنود لاخماد فتنة شبت فى بلاد المجر ..
ــ آه ! . وماذا أيضا ؟ .
ــ وأخيرا فان وزارة جلالة الامبراطور يرون أن فرنسا فى مركز قوى .. وقد استقر رأيهم على قبول الشروط التى فرضتها فى مؤتمر نيموجين .

ولم يطق الامير صبرا أكثر من ذلك .. فاندفع قائلا :
ــ لقد تحطمت آمالى اذن بانهيار كل تلك الاركان . الا سحقا لك يا ساكس ازناك ، وكذلك أنت يا ليوبولد .

ونهض واقفا يرتجف من فرط الغضب .. ثم قال :
ــ هل هناك بقية فى كأس المرارة تريد أن تجرعنى اياها ؟ .
ــ سيدى الامير .. لقد انتهيت من الاخبار السيئة .
ــ آه .. حقا ! . لقد قلت لى ان لديك أنباء سارة أيضا .
ــ ستحكم سموك بعد سماعها .. فأولا تعلم سموك أن الفرنسيين قد جاءوا ببطارية جديدة من المدفعية الحديثة عساهم يقضون بها على مقاومة فريبرج .

نعم .. عندى نبأ ذلك ..
ــ فالآن أقول لسموك أن هذه المدفعية ستبقى زمنا طويلا بلا عمل ، لان المركبات التى تحمل لها الذخيرة ، ويقوم على حراستها خلال الطريق ثلاثون جنديا ، قد وقف لهم بالمرصاد فى كولمار خمسون من قطاع الطريق ، يقودهم صديق لى من الضباط الاحرار ..
ــ هذا صنيع حسن منك ..
ــ ستسمع نبأ آخر أحسن منه يا صاحب السمو .. فان النبأ القائل بأن الصلح سيتم التوقيع عليه فى نيموجين ما كاد يذاع حتى هاجر نفر من الشبان الشجعان الى « أوبنو » التى يوجد فيها الان من الفتية الطامحين الى الكسب أكثر من ثمانية آلاف رجل ..

فتجهم الامير وقال :

ـ أنا قائد جيوش ولا شأن لى بقطاع الطرق ! .

فرد عليه والتون بشجاعة !

ـ ولكن قائدا بلا جيوش لا فائدة منه .

ـ أيها الرجل ! .

ـ أوه .. انى أنزه حكمة سموك عن أن ترى فى كلامى هذا أى اهانة فتعال معى الى التاريخ وقل لى من كانوا رفاق روميلوس ؟ . ألم يكونوا بضعة من الحرس الاسود ، الذين كانوا قطاع طرق من قبل .. وعلى من أعتمـد دوجوسكلين فى محاربة ملك النافار ؟ . ومن الذين ساعدوا وليم القاهر فى غزو انجلترا ؟ .. ألم يكونوا قرصان البحر ؟ . هل تريد يا سيدى الامير أن تمثل الدور الذى لعبه عمك شارل الرابع فتصبح شريدا طريدا بلا مأوى ولا طعام ؟ هل ترضى أن يمنحك لويس الرابع عشر ضيعة تعيش على فتاتها كما تلقى العظمة للكلب ؟ . حقا لو كنت أنت من هذا النوع من الامراء والقواد ، فأرجو أن تأذن لى بالذهـاب للبحث عن مولى غيرك . والا فهل كنت تحسبنى سموك أتظاهر بالاتجار فى العقاقير ـ على ما فى ذلك من تعرض لعقوبة الحـرق ـ لمجـرد كيس من النقود يصل الى يدى بين آن وآن ؟ .

وكان « للمؤلف » سامع معجب ، وان لم يكن الـكلام موجها اليه ، فقد كان جويل منصتا بكليته فلم يفته حرف واحد من هذه المحاضرة البليغة .

وبعد أن فكر أمير اللورين برهة تمتم بعبارة باللاتينية معناها أن الواقف على الارض لا يستطيع أن يهبط دون ذلك .. وأخيرا قال بصوت مسموع :

ـ انى أوافق على استخدام الرجـال الذين ستقدمهم الى ؟ ولكن هل تحسبهم يستطيعون مواجهة جيش منظم ؟ .

ـ أجل .. اذا كانت حامية فريبرج ، وهى مؤلفة من جنود نظاميين تخرج من حصونها وتقوم بهجوم عام فى ذات الوقت الذى يقوم فيه غير النظاميين بالهجوم على الفرنسيين من المؤخرة .

ـ يمكن تدبير هذا الامر ..

ـ ليس هذا فقط .. وانما افضل أن يقع ذلك فى ذات اليوم

الذى يحاول الفرنسيون فيه الاستيلاء عنوة على قلعة فريبرج ، فانى أعلم أن لغما سريا قد اعد لمثل هذه المحاولة .. فسأستدرج العدو الى الجدار الملغم ، ثم أشعله قبيل قيامنا بحركة تقهقر صورية ، فينفجر كالبركان تحت أقدامهم .. وبعد أن تتطاير فى الهواء أشلاء أشدهم جرأة وبسالة تبدأ الفرق غير النظامية بهجومها على المؤخرة وينقض النظاميون من جنود الحامية على العدو الذى يكون قد اضمحلت روحه المعنوية .

ـ هل تعنى بهذا انك ستكون من داخل القلعة ؟ .

ـ أجل .. لكى أعطى لسموك الاشارة بالوقت الذى تبدأ فيه الهجوم بالقوات المتحدة ..

ـ وكيف يمكنك أن تذهب الى هناك دون ان تخترق الخطوط الفرنسية ؟ ..

ـ أنا فرنسي ولو انى مولود فى لندن ، ولن يعجزنى هذا الامر بأية حال .. وقد أتنكر أو أجد أى وسيلة أخرى .. فانى حين أقرر أمرا يبادر الشيطان .. الذى أعتقد أن بينى وبينه صلة قرابة ، الى نجدتى ..

ـ اذا كلل النجاح جهودك يا سيدى ، فاننى سأكون مدينا لك دينا كبيرا ..

ـ هل تسمح سموك بأن تخبرنى عن اليوم الذى تختاره لهذه المعركة ؟ .

ففكر الدوق قليلا ثم قال :

ـ نحن الان فى يوم الاثنين ، وسأذهب غدا الى « اوبنو » لاتولى تدريب رجالى ، ثم يكون الهجوم فى مساء الجمعة . فعسى أن يعوضنا هذا اليوم عن الهزيمة التى نزلت بنا فى (كونساربروك)

ـ اعطنى الاشارة اذن فى الليلة المحددة لكى أفهم منها انك مستعد للهجوم .

ـ ستكون الاشارة صاروخا يطلق من هذا المنزل .

ـ حسنا .. اعتمد على يا سيدى فان أغراضنا متماثلة .

وأتى الدوق بحركة تدل على أن المحادثة قد انتهت ، ولكن والتون استوقفه وقال :

ـ هناك مسألة صغيرة نسيناها يا مولاى .. فهل لا يحسن أن تكون معى اوراق رسمية أقدمها الى محافظ المدينة حتى ينزل على التعليمات التى تلقيتها من سموكم ، ويرينى اللغم الذى أريد أن أشعله بيدى .. والا فان ذلك الضابط القـدير قد يرتاب فى أنى جاسوس ، ويطبق على القوانين الحربية ، مما يعرقل خطـة سموكم ..

وفكر الدوق قليلا ثم قال :

ـ نعم .. واخرج من جيبه دفتر مذكراته وقلما وجعل يكتب وهو يقرأ بصوت عال :

« الى الكولونيل شولتز محافظ فريبرج . يجب أن تستقبلوا حامل هذه الورقة بالتكريم اللائق برسول من قبلنا ، وان تقدموا اليه كل مساعدة فيما يرغب فيه من خدمة صالحة لنا وللدفاع عن المدينة » .

قال والتون :

ـ هذا يكفى ..

وقال الدوق .

ـ انتظر .. وعاود الكتابة والقراءة :

« واذا حـدث بأى حال من الاحوال أن عرض عليـكم هـذا الرسول تسليم المدينة ، أو بدا عليـه أنه يريد ارتكاب أى عمـل يتعارض مع الدفاع ، أو ظهر أنه على اتصال بالعدو ، فعليكم أن تعاقبوه فى التو واللحظـة بالعقوبات المنصوص عليهـا فى القوانين بشأن الجواسيس والخونة ، ولتراقبوه مراقبة دقيقة ، وتشنقوه لدى أى اشتباه .. وهذه هى أوامرنا الصريحة » .

وحدق الخائن وقال :

ـ أفاهم أنت هذا ؟ .

فأجاب والتون :

ـ أجل يا مولاى الامير ..

ثم وقـع الدوق على الورقة ، وقطعهـا من الدفتر ، وناولها لوالتون وقال :

ـ انى أحذرك من الكولونيل .. فهو رجل صارم ، واحـذر كذلك أن يعثر على الورقة معك أحد من رجال الماريشال كريكيه .

ـ اطمئن يا مولاى .. فانى سأعتمد على مساعدة المارشال نفسه فى الوصول الى فريبرج .

ـ كيف ذلك ؟ .

ـ سأذهب اليه بصفتى حاملا رسائل من وزير الحربية لوفوا .. فقد بارحت باريس معتزما الحصول على تلك الرسائل .. وقد سبقت الرسول الذى يحملها فى الطريق ، وأنا أعرف أين يمكننى وضع يدى عليه الآن ..

وارتعد جويل فى كمينه .. اذ خطر له ان يدرى شـيئا من الخطر الداهم الذى يوشك أن ينقض عليه .

وأردف والتون :

ـ وسأنقل الى سموك صورة من تلك الرسائل ، وسأحتفظ بها فى مكان أتحدى أشد الناس مكرا ودهاء فى أن يعرفه .

ثم أمسك بعصاه من مقبضها ونزع الحلقة التى تزينها فيما بين المقبض وجسم العصا ، فاذا هى تبدو صلبة فى الظاهر ، ولكن تبين أن « عقلة » من زينتها حول وسطها كانت زائفة ، اذ انحسرت عن ثقب طويل وضع فيه والتون الورقة التى كتبهـا الدوق الى الكولونيل ، ثم أعاد « العقلة » الى موضعها ولوح بالعصا فى الهواء وقـال :

ـ هذا هو السر يا مولاى ، وبذلك لن يعثـر الفرنسيون على خطاب سموك ..

ولم يغب عن جويل أدنى شىء من تفاصيل هذه المناورة .. وسار الدوق شارل الخامس وحليفه صوب باب الحظيرة وتبادلا بضع كلمات مع جاسبار الذى كان واقفا كالتمثال يراقب الطريق

وبعد ذهاب الدوق استل والتون سـيفه وتسـلح جاسبار بسكين ودخلا الى المنزل .

وهمست المرأة فى اذن جويل :

ـ الان حان وقت ذهابنا .

وذهبا الى الحظيرة ، فامتطيا الجوادين وغادرا المكان فى مثل

لمح البصر .. ولم يسلكا طريق فريبرج خوفا من المطاردة واستقر رأيهما على الذهاب من طريق اخر عبر النهر .

الفصل العشرون

أوشك الفجر على البزوغ حين كان جويل وتريزا يخترقان الغابة بجواديهما المنهوكين من أثر السير على أرض رخوة لينة .. واسترسلت المرأة فى الحديث فتنهدت وقالت :

ـ من أسف انه ليس للمرء أن يختار والديه .. فقد كانت أمى غفر الله لها . يبعث اسمها الرعب فى القلوب .. وكانت قابلة قبل أن تتزوج أبى ، فلما اقترن بها زعم أنه يريد أن يعلمها السحر الاسود « السفلى » ولكنه علمها صناعة العقاقير السامة التى كانت سوقها رائجة بين مختلف الطبقات وكان والتون بما وهبه من ذكاء وما ناله من تعليم ، حلقة الاتصال بينهما وبين ذوى المقامات الرفيعة ، ومن ذلك انه تولى المفاوضات مع المركيزة مونتسبان عن طريق وصيفاتها حين كانت تدبر طريقة للتخلص من الملك ..

فهتف جويل :

ـ تدبر طريقة للتخلص من الملك ؟ .

ـ نعم .. ففى ذاك الوقت كانت الحسناء فونتاتيه مفضلة عليها عند لويس ، وقد برح الألم بالمركيزة الى حد انها لم تتردد فى السعى لتضحية عشيقها ! . والدليل على ذلك موجود فى خطاب صريح كتبته الى أبى تتعجله فيه ارسال السم .

ولم يسمع جويل العبارة الاخيرة ، لانه سمع وقع حوافر خيل كثيرة .. غير أن الجياد لم تلبث أن ابتعدت .. وكانا هما قد أشرفا على شاطىء النهر ، ورأى جويل أكواخ صيادى السمك منثورة وأحدها قريب منه ، فهبط عن جواده وسار الى باب الكوخ فطرقه ، واستيقظ صاحبه العجوز مذعورا فهدأ جويل من روعه ثم قال :

ـ بأمر الملك أطلب منك أن تنقلنا على قاربك الى الشاطىء الاخر ، وسنجزل لك العطاء اذا أوصلتنا سالمين ، ولا نكلفك شيئا اذا أغرقتنا ! .

فأجاب الرجل :

ـ انى مستعد يا سيدى الفارس ، ولكن بعض الواح قاربى تحتاج الى اصلاح يستفرق نحو عشرين دقيقة .

فقال جويل : حسنا .. سننتظرك حتى تنتهى من اصلاحه على شرط أن نكون فى عرض النهر بعد نصف ساعة على الاكثر .

وشد الفارس الجوادين الى حلقة فى جدار الكوخ ، ثم دلف هو ورفيقته الى داخله حيث جلسا .. ثم سألها

ـ كيف حضرت من باريس الى هذه البقعة السحيقة ؟ .

فأجابت ابنة لافوازان :

ـ ذات صباح ألقى البوليس القبض علينا جميعا ، ثم قدمنا للمحاكمة فحكم على أمى التعيسة بالاعدام ، ونفذ فيها هذا الحكم هى وأكثر من ثلاثين من شركائها ، وحكم على ابى بالسجن ، وبرئت أنا بسبب حداثة سنى ، وبرىء والتون لانه انقلب شاهد ملك .. ثم صدر أمر بنفينا ، ولكننا بعد جولة فى انجلترا تسللنا عائدين الى باريس حيث بدأت اشتغل بحرفة أمى فى شارع بولوا تحت ستار الاشتغال بالتنجيم وسرعان ما اشتهرت وأخذت تتوافد علينا سيدات البلاط وغيرهن ممن كان والتون يعرفهن حق المعرفة ، ولكنى لم ألبث حتى أحسست بالخوف من وقوعنا فى أيدى البوليس ، وكذلك كنت قد أصبحت أمقت هذه الحرفة كما أمقت والتون على السواء . فانتهزت فرصة وهربت الى مقاطعة اللورين ، ظنا منى أن وجودى على مقربة من ميدان القتال ينجينى من سيف العدالة ، كما أملت ألا يعثر على عشيقى .. بيد انه ما عتم أن وجدنى فى بريساك ، فاستعاد سطوته على مستغلا ضعفى .. وأخيرا رأيتك فـ ..

فقطع حديثهما صوت داو

ـ انهم هنا ! . فأنا أعرف جوادى .

وقفز جويل الى خارج الكوخ وهتف :

ـ القارب ..

فأجابه صاحبه :

ـ لقد انتهيت من اصلاحه ، فهيا عجلا لنقلع فى الحال .

وحمل جويل المرأة بين ساعديه وأودعها القارب ، ولكن الرجل

العجوز تعثر فى أذياله من فرط ما ناله من خوف حين رأى الاعداء يترجلون ويقودون جيادهم متوعدين منذرين .

وكان القارب قد غاص فى الطين ، وفيما كان جويل يدفعه فينتزعه كما ينتزع البستانى النبت الغريب من الارض . صاحت المرأة :

ـ احذر أيها الفارس .. خذ حذرك ! .

فقد تقدم نحوه ثلاثة من الاشرار الذين جاء بهم والتون من عرض الطريق ، وأشهر اثنان منهم سيفيهما ورفع الثالث غدارته ، ولكن جويل كان أسرع منهم حيث قد أدار المجداف فى يده فقذف بالسيفين الى النهر ، وسقط حامل الغدارة على ظهره والغدارة فى يده ..

وحين وصل باقى أفراد العصابة الى حافة النهر كان القارب قد أصبح بعيدا عن متناول أيديهم ، فخرج الزبد من شدقى والتون وجاسبار ودفعأولهما بجواده الى الماء كأنما يريد أن يسبح لمطاردة الهاربين ، ولوح بعصاه فى وجه ابن بورتوس وقال :

ـ آه يا كلب ! .

فثارت ثائرة جويل لهذه الاهانة ، وتناول غدارته من حزامه وأطلق النار على والتون الذى كان جواده قد غاصت حوافره فى الطمى فى تلك اللحظة ، فمرت الرصاصة من بين شعره واستقرت فى قلب جاسبار الذى كان ممتطيا جواده خلف زميله ، فترنح قليلا ثم سقط ببطء فوق الارض .

ودوى صوت والتون وهو يلتفت نحو رجاله :

ـ فليطلق النار أصحاب الغدارات منكم أيها الرفاق .

واطلقت ست أو سبع طلقات متتالية ، فأصابت احداها رأس البحار التعس ففقد توازنه وسقط فى قاع القارب ، وعندئذ أرسل الاشرار هتافات الفرح والسرور ، واستعد من لم يطلق النار منهم بتصويب غدارته الى القارب .

ودوت عدة طلقات اخرى فأصابت احداها تريزا ، فتدحرجت الى قاع القارب وهى تغمغم : « اشمل برحمتك يا الهى ابنة ليساج ولافوازان ! » ..

غير ان مازاد فى ألمها هو أنها ما لبثت ان رأت الفارس العملاق يسقط كشجرة اجتثت بضربة فأس فى جذعها ، وحينئذ ضحك والتون وصاح فى رفاقه يأمرهم بوقف اطلاق نيرانهم .

ولكن موجة عظيمة قذفت بالقارب فى تلك اللحظة فاندفع مسافة كبيرة صوب الشاطىء الاخر حتى أصبح بعيدا عن مرمى القذائف .

ودفع والتون بجواده سابحا فى الماء وراء القارب حتى لحق به ، فرفع العصا فى يده اليسرى وتعلق بيمناه بحافة القارب .. ولكن حدث فى تلك اللحظة أن هب جويل من رقدته ومد كلتا يديه فطوق بهما عنق غريمه وخاطبه قائلا :

ـ الفظ صلاتك الاخيرة .. فان للكلب الفرنسى عضة قاتلة .

ثم نهض حاملا بين يديه جثة المغامر المشنوق ملوحا بها لرفاقه على الضفة الاخرى من النهر .. ثم القاها فى اليم الى ناحيتهم .

وبعد لحظات وصل القارب الى الشاطىء ، فحمل جويل رفيقته بين ساعديه وهى بلا حراك ، وصعد الى البر حيث كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها ، فرأى رهطا من الفرسان يعدون نحوه وقد أمره أحدهم بالوقوف ، ثم تقدموا قليلا .. فما كادوا يحققون النظر فيه حتى تصايحوا فى دهشة :

ـ يا لها من صدفة ! . هذا هو البريتونى مبارز ضابطنا الملازم بريجى ! .

وقال جويل :

ـ يا للعناية الالهية ! . أهلا بكم أيها الاصدقاء الفرسان .. جاس وسكريفو وهاريكور وشامبناك .

واستفاضت الاسئلة على جويل :

ـ من أين أنت قادم بهذه الثياب ، وما هذه الجثة التى تحملها غارقة فى دمائها ؟ .

فأجاب ابن بورتوس :

ـ سأشرح لكم كل شىء ايها السادة بعد تقديم المساعدة اللازمة لهذه الفتاة من مأوى وفراش وعلاج .

وما هى الا لحظة أخرى حتى كانت ابنة ليساج محمولة على محفة ذراعاها مجدافا القارب وعباءة أحد الفرسان ، وقد ساروا بها حتى بلغوا أول منزل فأدخلوها اليـه ، وسارعت ربة الـدار فنضت عنها ثيابها ومددتها فوق سرير وقامت لهـا بالاسعافات الاولية من غسل الجرح ولفه بالرباط ، ثم انشقتها خلا ومسحت به فوديها حتى عادت اليها علائم الحياة ، وعاد شيء من اللون الى خديها وتحركت شفتاها ثم فتحت عينيها .

وانحنى نحوها جويل الذى لم يفارقها وسألها :

ـ هل تعرفيننى ؟ .

فأومأت له بعينيها بالايجاب .

وعندئذ أشار الى الواقفين بالخروج فأطاعوا .. وعاد يحدثها قائلا :

ـ هل أنت ابنة الاب ليساج ولافوازان ؟ .

فأجابت متثاقلة : نعم ..

ـ اذن فاعلمى اننى كنت أبحث عنك أيتها المسـكينة لـكى أسلمك هذا ..

وما أن رأت « الميدالية » حتى عرفتها وقالت :

ـ نعم .. هذه « الميدالية » لابى . فكيف وصلت الى يدك ؟ .

فروى لها بايجاز قصة « الميدالية » منـذ مقابلته لابيهـا فى سجن الباستيل ، ثم كيف مات أبوها وهو يحاول الهرب .. وكان مادا لها يده بالميدالية .. فردتها اليه قائلة :

ـ احفظها معك .. فهى طلسم يجلب الى حامله الذى يعرف كيف يستخدمه كل ما يطمح اليه من ثروة وجاه وسلطان .. لان فيها ذلك الخطاب الذى حدثتك عنه ولم تصدق انه يقيم الدليل ضد المركيزة بشأن محاولتها القضاء على الملك .. فاحفظها معك ايها الفارس ، فهى هدية منى اليك

ـ وماذا أصنع بها ولست عدوا ولا صديقا للمركيزة ، فضلا عن انها قد غادرت البلاط موصومة بالعار ؟ .

فرفعت اليه بصرها وقالت :

ـ ان الحجاب المضروب على المستقبل يكشف أمام الموشكين

على الموت .. فأنا أرى الان انك لابد مشتبك قريبا فى نضال مع تلك المرأة من أجل من تحبها أنت .

فأجفل جويل لان صورة اورورا طافت مسرعة بمخيلته فشعر بقلبه يكاد يقفز من صدره .

وعلى حين فجأة رفعت الفتاة يديها الى وجهها ، واذا بساعديها يعودان فى بطء الى جانبيها .

وأغمضت عينيها حين فتح الطبيب الباب ، فما أن ألقى عليها نظرة من بعيد حتى رفع قبعته وانحنى .. وقال :

ـ هذه المرأة قد ماتت .

الفصل الحادى والعشرون

عندما وصل جويل الى « والداو » وجد المارشال كريكيه عد بارحها ليفتش قواته ، فسار الى الخنادق التى حفرت حديثا ، حتى اذا بلغها رأى الجنود فى هرج ومرج والفرسان يترجلون ويعقلون جيادهم ويدورون حول فريق من الضباط ويهددونهم بأصوات مجلجلة وقبضات ملوحة فى الهواء .

وحين سأل جويل عن أسباب هذا الهياج قيل له أن المارشال كريكيه قد أصدر أمره بأن يساهم الفرسان فى حفر الخنادق .. ولكنهم يأبون مترفعين عن العمل بالفأس والجاروف وهم حملة السيوف ..

وارتفع صوت الكابتن بيرانجيه قائد الفرسان من وسط تلك الحلقة مؤيدا فرسانه فى رفضهم العمل فى حفر الخنادق ، بينما يرد عليه صوت لم يتمكن جويل من رؤية صاحبه محتجا بأن القائد العام للمدفعية هو الذى أمره بأخذ خمسين جنديا من فرقة الفرسان للمساعدة فى انجاز هذه الخنادق لاهميتها .

واشتد الجدل بين المتناظرين حتى انقلب الى شتائم وتنابذ ، فقال صاحب الصوت الذى لم يستطع جويل رؤيته بعد :

ـ اصمت ايها الشرير ! .

فقال أحد جنود الفرسان ساخرا :

ـ مهلا ، مهلا .. يا أبا المدافع والقنابل .. لا تضرب الارض بقدمك هكذا لئلا تدخل فى حذائك فيصبح لك قبرا لا يستطيع الشيطان اخراجك منه ! .

وارتفعت صيحات الضحك اعجابا بهذه السخرية .. فصاح الاخر مناديا :

ـ الجاويش بونلارون .. الق القبض على جندى الفرسان ، وقدمه الى المحكمة العسكرية لمحاكمته على بذاءته ..

وقال قائد الفرسان :

ـ أحذرك أيها الجاويش ، فان رجالى لا يسمحون بالقبض على رفيقهم ..

وقال جندى اخر من الفرسان :

ـ وقزم هو الذى يأمر باعتقاله .

وكادت تنشب فتنة دامية بين جنود المدفعية والفرسان لولا ان تقدم جويل فوقف بين أسنة السيوف اللامعة وأسلحة الفؤوس المرهفة .. وقال :

ـ عار أيها السادة أن تتقاتلوا وأنتم جبهة واحدة والعدو واقف لكم بالمرصاد .. احفظوا أسلحتكم وتعالوا الى كلمة سواء فكلاكما مخطىء أيها الضابطان العظيمان .

والتفت الى فريكيه اذ هو صاحب الصوت الداوى الذى لم يره جويل الا حين توسط الحلقة .. وقال له :

ـ فأنت أيها الرفيق لا ينبغى لك أن تبلغ بك الحدة مبلغا ينفر منك اخوانك ..

ثم التفت الى قائد الفرسان وأردف :

ـ وأنت يا كابتن .. كان أجمل بك لو لم تدفع رجالك الى التكبر على اخوانهم ، فاننا جميعا قد جئنا الى هنا ولا غاية لنا الا الاستيلاء على فريبرج ، وفى سبيل تحقيق هذه الغاية تتعادل ضربة الفأس مع طعنة السيف ، والشرف والتكريم جديران بمن يستشهد فى الخندق ومن يلاقى حتفه فوق صهوة جواده على السواء ..

وعلى حين فجأة سقطت قنبلة بالقرب من هذا الزحام فأثارت الغبار من أكياس الرمل مختلطا بدخانها .

وتلاها صوت قذيفة أخرى من مدفع ، ولكن تبعتها فى هذه المرة صيحة عالية حيث قد أصابت قائد الفرسان فى صدره فالقته صريعا .. وتقدم شامبناك فألقى عباءة فوق الجثة ، بينما وقف سائر الجنود زائغى الابصار وفر لونهم ، وقد ملئوا رعبا .

وقال بطلنا ببرود :

ـ لو أن هذا الخندق الامامى قد حفر لكان هذا الرجل الشجاع لم يزل حيا ! .

ثم تقدم فى صمت ، فتناول فأسا وأكب على العمل ، وحذا الاخرون حذوه ، فذهبوا ضباطا وجنودا مسرعين يلتقطون الفؤوس والمعاول ويحفرون الارض غير مبالين بسيل القذائف التى كان العدو يرسلها عليهم .. فما جاء الليل الا وقد اعد مأوى ملائم احتلته الجنود بقوة ونشاط .

وفى المساء جلس الاصدقاء الثلاثة : جويل وبونلارون وفريكيه . يجددون عهد الصداقة ويتبادلون أنباء ما وقع لهم منذ آخر مقابلة مع بعضهم .

وكان بونلارون قد باع فندقه حيث كان البوليس لايفتأيضايقه منذ حادث استبدال جويل بفريكيه ، ثم التحق بفرقة المدفعية الجديدة التى أسندت قيادتها الى فريكيه .

وفى صبيحة اليوم التالى قدم جويل الى المارشال كريكيه رسائل وزير الحربية ، فأثنى القائد العام على شجاعة الرسول الذى اخترق بوديعته طريقا شديد الخطر .

وكانت قد أرفقت بالرسائل ورقة ملحقة بها جعل المارشال يقرأها ويعيد تلاوتها كأنما هى لغز يريد ألا يفوته شىء من معانيه الخفية .. وأخيرا تكلم المارشال قائلا :

ـ أيها الفارس ، ان الملك قد طلب منى أن أستبقيك الىجانبى الى نهاية الحملة وأن أهيىء لك فرصة لكى تظهر فيها كفاءتك ومواهبك .

فوجم جويل وقال : والام تنتهى هذه الحملة ؟

ـ الى أن نستولى على فريبرج .

ـ ولماذا لانستولى عليها فى الحال ؟

لان مدفعيتنا لم تتمكن حتى الان من فتح الثغرة التى ننفذ منها الى القلعة .

ـ سأذهب اذن الى فريكيه ليعجل بفتحها والا ..

ـ والا ماذا ؟

ـ والا اضطررت للاستيلاء على القلعة بنفسى .

فضحك المارشال وقال : اذهب من فورك اذن يابنى ولا تنتظرنى واذا كانت لديك فكرة فانى أضع تحت تصرفك كل الوسائل لتنفيذها .

ولما خرج من عند المارشال بادي السرور قال له فريكيه :

ـ هل وقعت على كنز ؟

فأجاب ابن بورتوس وهو يرقص طربا :

ـ نعم ، فلن ألبث حتى أعود الى زوجتى .

الفصل الثاني والعشرون

كان الكولونيل شولتز محافظ فريبرج جالسا يتناول افطاره حين دخل عليه أحد الضباط يعلن اليه قدوم رسول من قبل الامير شارل .

وقال الضابط : لقد رأيناه يعدو نحونا ورصاص الفرنسيين يلاحقه ، وكذلك أطلق عليه حراسنا النار فصمد لهذه النيران المزدوجة بشجاعة فائقة ، ثم قفز الى خندق تحت جدار وهو يصيح « صديق » فأدليت اليه حبلا فتسلقه مسرعا ، وهو الان موجود فى غرفة فى انتظار أوامرك .

فأمر المحافظ باحضاره اليه فسرعان ماجيء به فى حراسة أربعة من فرسان الحرس الامبراطورى الطوال القامة الذين كان الشخص الواقف بينهم يعلوهم بنصف رأس .. وكان له شاربان أسودان قد وخطهما المشيب ، وتجعدات عميقة فى وجهه ، ولكن عينيه كانتا عينى شاب فى عنفوان الشباب ، بحيث أن أورورا اذا رأت هاتين العينين وحدهما لعرفت منهما حبيبها الذى كان تنكره هذا من

صنع فنان هو حلاق الدوق دى فيلار . ولا حاجة بنا الى القول بأن عصا والتون قد التقطها بعض رجال « الدوريات » فجيء بها الى جويل ، وكانت هى التى أوحت اليه بفكرته وزودته بالوسيلة التى يسرت له تنفيذ الفكرة بنجاح .

وسأله الكولونل هل أنت تنتمى الى ألمانيا ؟

ـ كلا أيها الكولونل ، وانما أنا من أهالى اللورين .

ـ هل أنت موفد من قبل الامير شارل ؟

فأخرج من بطانة سترته التى استعان بسكين على شقهامذكرة الدوق التى كان قد أعطاها لوالتون ، وقد قرأ المحافظ المذكرة مرتين وهو يفحصها بدقة فى كل مرة .. ولم يساوره أى شك فى صحة الورقة ، ولكنه لم يشعر بالاطمئنان فعاد يسأل :

ـ كيف تمكنت من اختراق صفوف الاعداء ؟

ـ ذهبت الى معسكر المارشال متعللا ببيع شراب من صنعى وضعته فى برميل فوق عربة أجرها بيدى ، وترقبت حتى سنحت فرصة فتسللت الى الخنادق ، ولكن طولي فضحني لسوء حظى بين أولئك الاقزام الفرنسيين فهبـوا لمطـاردتى وخرجت أنا من الخندق فعدوت صوب خطوطكم ، والباقى حدث تحت أعين رجالك ويمكنك أن تسألهم فيجيبوك عنه .

وعقد شولتز جبهته وقال : وماذا تحمل الى ؟ .. أخبارا ؟

ـ بل تعليمات خاصة ودقيقة وسرية لسيدى الكولونل .

ـ أمكتوبة هى أم ستلقيها الى شفهيا ؟

ـ لقد كانت الورقة التى أحملها فى بطانة ثيابى كافية لاعدامى رغم ضآلة حجمها .. وفضلا عن ذلك فان سمو الدوق لم يكن ليسمح لرسوله بأن يحمل الا فى رأسه الخطة التى تتخلص بهـا فريبرج فى خلال ثلاثة أيام من الحصار .

وصرف شولتز الجنود باشارة من يده ثم قال :

ـ هيا أخبرنى بما عنـدك ، فسـأصغى اليك وأنا أتنـاول افطارى . وهو أحب وجبة الى نفسى .

وأعاد اللورينى المزعوم على مسامع الكولونيل ما تم الاتفاق عليه بين والتون والدوق حرفا بحرف .. فوافق الكولونل على الخطـة

بحذافيرها ، وعلى اشارة الصاروخ ، والهجوم المزدوج على الجيش الفرنسى : الدوق ورجاله من خلفه ، والكولونل والحامية وأهل المدينة كلهم من أمامه ، ثم قال :

ـ قل لى أيها الرفيق .. هل تعلم ماتضمنته هذه الرسالة بشأنك ؟

فأجاب جويل فى هدوء الفلاح وسذاجته :

ـ أظن ذلك . فقد أشار عليك سمو الدوق بأن تخرق رأسى برصاصة أو تشنقنى بحبل جديد اذا بدا لك من سلوكى مايريب

ثم ضحك مرة ثانية كما لو كان فوق كل شك .

وضرب الكولونل بقبضته على المائدة وقال :

ـ مادمت قد عرفت محتويات الورقة كلها فلا تنس اذن أن الكولونل شولتز ليس ممن يترددون ولا هو ممن يعرف هوادة فى تأدية واجبه .. فسأنفذ أوامر الدوق بنصها وأتولى تنفيذ العقوبة عليك بيدى .

قال جويل : لديك طريقة سهلة تطمئن بواسطتها الى استقامتى فى تأدية واجبى حيال أميرى وبلادى .. فاجعلنى دائما بالقرب منك فتستطيع بذلك قراءة أفكارى نفسها .

وأعجب الكولونل بهذه الفكرة فقال :

ـ هذا هو ما استقر رأيى عليه . وستبدأ مراقبتى الدائمة لك من هذه اللحظة ، وستبقى ملازما لى كظلى أينما سرت وأنى حللت .

ـ انه لما يسرنى أن أصبح ولو وقتا ما ظلا للمحارب القدير الكولونل شولتز الذى ملأت شهرته العسكرية الاسماع بحيث لايجهلها جندى فى أوربا بأسرها .

ولقد كان لهذا الثناء المستطاب أثر فى تغيير اتجاه معاملة الكولونل له ، فانبسطت أسارير وجهه وقال :

ـ اننى معجب بك ، ولعل هذا هو شعور رجال الحرب حيال بعضهم ، ولا سيما اذا كانت أعمارهم متقاربة .. فماذا كانت رتبتك العسكرية وما اسمك ؟

ـ خادمك نيكولاس هامر ، متقاعد من زمن طويل ومتخصص

فى تجارة الاخشاب التى أجمعها من الغابات .. وكنت برتبة الجاويش فى فرقة فودمونت التى اشتركت فى موقعة (روكروى) دفاعا عن الوطن .

فمد شولتز يده اليه قائلا : حسنا ياميجر هامر ، فانك لن ترافقنى حين أذهب للتفتيش على مواقعنا فقط . بل ستقاسمنى مسكنى فتنام فى الغرفة الداخلية من مخدعى الخاص .. والان هل أنت ممن يجيدون تناول الطعام .. والشراب ؟

فأجاب جويل وقد انبسطت أساريره : أجل .

وفغر فاه كاشفا عن أسنانه التى كان يبدو عليها رغم سنه المزعومة انها تستطيع طحن حمل فى ثلاث جلسات .

ولاح على المحافظ أنه قد بات مسحورا بضيفه الذى سيخفف عنه أعباء الوحدة فى تأدية واجباته بملازمته ملازمة الظل وفى طعامه وشرابه حيث قد تبين انهما من مشرب واحد فى هذه الناحية .

وكان الجناح الذى يقيم فيه المحافظ فى الطابق الارضى .. وهو عبارة عن غرفة الحرس القديمة ذات السقف المنخفض والجدران الداكنة الحافلة بالاسلحة والاعلام .. ولكن جويل والكولونل حولاها الى قاعة تشع بهجة وحبورا .. حين بدآ يعبان من « دستة » قنينات النبيذ الثانية .

ودقت ساعة الكنيسة التاسعة حين دخل عليهما ضابط ليتلقى كلمة السر .. فرفع الهر شولتز رأسه الثمل ليضع شفتيه على أذن الضابط . ويهمس له بالكلمة المطلوبة .. ولكنه سرعان مانسى .. وقال بصوت الثمل المدوى : « فاترلند » أى أرض الجدود .

ثم سأله : هل سمعت ؟
فأجاب الضابط وهو يغادر الغرفة :
ـ نعم ياسيدى المحافظ .

وجاء بعده ضابط آخر .. حاملا حزمة المفاتيح كما هى العادة فى كل مساء .. على أثر ضرب نوبة المساء بالبوق .. فسأله شولتز وهو يتناول المفاتيح من يده ويضعها فى جيبه عما اذا كانت هناك أنباء جديدة .

فأجاب : كلا ياسيدى الكولونل فالليل أسود بهيم والمطر يتساقط غزيرا .

فضحك الضابط العظيم بصوت عال . وقال :

ـ اذهب اذن .. ونم فى سريرك . فلم يجرؤ احد من مخلوقات كريكيه . على الاقتراب خوف المطر .

ثم التفت الى تابعه الخاص . واستطرد :

ـ لانريد نزع قبعات هاته السيدات الان . « مشيرا الى زجاجات الخمر المغلقة » فانى عندما أشرب لاأريد أن يراقبنى أحد ويعد على الكؤوس ..

فانصرف الضابط والجندى .. وقال الكولونيل :

ـ الان وقد أصبحنا وحدنا ياعزيزى الميجرهامر فانى اصارحك بأنى أكره الفرنسيين بقدر حبى خمورهم . ها هم واقفون هناك . يا لهم من فتية ظرفاء . فلتسقط الخمر الفرنسية !

ثم تناول زجاجة فانتزع سدادتها وراح يملأ الكأسين .

فقال جويل وقد أطاح بعنقى زجاجتين وأمسك بكل واحدة منهما فى يد : دعنا نشرب .

وواصلا الشراب . وجاء بعد النبيذ الهادىء . نبيذ شديد ثم جاءت المشروبات الاخرى . .وراحا يغنيان .. واختلط فى أذنى المحافظ صوت الاغانى البريتونية بأصوات أغانى اللورين وسرعان ما اندثرت الاصوات الموسيقية وحل محلها غطيط النوم .. ولاح على الزميلين انهما قد استغرقا فى سبات عميق .. ولكن أحد النائمين تحرك بعد مضي عشرين دقيقة على صوت جرس الكنيسة الذى دق الحادية عشرة . وكان ذلك المستيقظ هو الميجرنيكولاس هامر . وقد رفع رأسه بحذر ونظر الى الكولونيل شولتز الذى كان مسندا ظهره الى مقعده وهو يغط غطيطا مزعجا .

وناجى الرجل الفرنسى نفسه : « لا تزال أمامى ساعة بأكملها وهى أكثر مما يلزمنى من الوقت . وكل ماأريده الان هو حزمة المفاتيح » ولم يكن من السهل اخراج المفاتيح من جيب المحافظ النائم لولا أن الوقت كان فسيحا أمام جويل .. وبعد أن استولى على المفاتيح استعار أيضا قبعة المحافظ . وعباءته . كما تناول سيفا من الجدار . وغادر الغرفة .

وعندما وصل الى أول السلم الذى اعتزم أن يرتقيه وجد « حارسا » يروح ويغدو .. وما لبث أن صاح :

– من هناك ؟
–فأجاب جويل بصوت عميق يتناسب مع ضخامته :
– ضابط فى المرور ..
ثم قال وهو يمر به : فاتر ..
وأجاب الجندى : لند .

وخفض غدارته .. وكان المطر ينهمر بشدة والجو باردا .. والريح ترسل صفيرا متواصلا . وكان ضابط وجنوده العشرون .. نائمين تحت سقف خشبى هو بمثابة غرفة الحرس للجنود المنوط بهم المراقبة من أعلا البرج . وكان الجندى المنوب يغفووهو واقف فى كشك الحراسة .. فألقى اليه جويل بالنصف الاول من كلمة السر .. « فاتر » وقبل أن يجيب الجندى الالمانى كان جويل قد وضع احدى يديه حول عنقه .. والاخرى حول خصره وألقاه من أعلا البرج وهو يقول .

– « بناقص واحد » .. وانما أرجو الا يسقط على احد من رجالنا .

وكان يشير بذلك الى أصدقائه الذين اتفق معهم على اللقاء عبر البرج الرئيسى فى منتصف الليل ..

ثم ناجى نفسه : « لم يكن هناك مفر من هذا .. وفضلا عن ذلك فانهم سيفهمون من سقوطه بينهم أن العمل سائر بنجاح » .

وسار . فاختفى خلف « الكشك » فأدلى حبلا من خلال بكرة فوق الجدار ، وعقد على طرف الحبل حجرا صغيرا ليساعد الحبل على الهبوط فى خط مستقيم . ولكنه شعر بعد برهة قصيرة أن الحبل قد خف الثقل عنه ، ثم اهتز فى يده ، وما أن سحبه الى أعلا حتى وجد أن حملا آخر أثقل من الاول قد حل محله .

وواصل السحب حتى انتهى الطرف الادنى من الحبل الى يديه فوجد فيه قطعة من الحديد الغليظ على شكل صليب . ففهم أن المقصود من هذه القطعة هو ربط الطرف الاعلى من الحبل اليها ، وتثبيتها فى الجدار ، حتى اذا تدلى الحبل اصبح بمثابة سلم يتسلق عليه رفاقه برج القلعة .

وأدلى جويل الحبل ثم نظر من مكانه الى أسفل البرج فرأى الاشباح تتوالى صاعدة وراء بعضها ولم تمض خمس عشرة دقيقة

حتى كان زهاء الثلاثين رجلا بقيادة فريكيه وبونلارون قد التفوا حوله .

وأشار جويل الى غرفة الحراس العليا وقال :

ـ نريد أن نطمئن الان أولا من ناحية هؤلاء الرفاق الراقدين تحت ذلك السقف . فهم نائمون بحيث لاحاجة بكم الى استحداث أى ضجة ، وانما عليكم أن تقيدوهم بأحزمتهم وتضعوا الكمامات فى أفواههم .. ولا تطلقوا النار بأى حال ومهما اضطرتكم الظروف .

وسار الرفاق القليلو العدد ، الكبيرو القلوب وقد لفوا أقدامهم بقطع من « البطاطين » متجهين صوب الجنود النائمين .. واستيقظ الضابط فجأة فقفز اليه جويل من بين مركب أشباحه الصامت ، وأمسكه بيسراه وسدد السيف الى عينيه وقال :

ـ لاتنطق بكلمة والا قتلتك !

وأطاع الضابط صوت الحكمة وامتثل للقيد والكمامة والتصق بالجدار .

ثم قال جويل : لم يبق الا الحارس الواقف على الدرج ، فسأذهب للنظر فى أمره .

وهبط الدرج .. ثم عاد بعد بضع دقائق حاملا تحت ابطه الجندى الذى لم يمهله حتى يضع أصبعه على زناد غدارته .

وفى الوقت نفسه كان فريكيه وبونلارون قد أشرفا على تحويل أفواه المدافع الستة المتحركة فى أبراج القلعة العليا صوب المدينة .

ونظر جويل حوله مسرورا ثم قال :

ـ هيا ارفعوا علمنا ..

وكانت طائفة منهم قد سلطوا المياه من خزان معد لاطفاء الحرائق على الموضع المحفوظ فيه اللغم ، حتى امتلأ قبل بزوغ الفجر بزمن وجيز .

وفى الصباح حين شوهد العلم الفرنسى مرفرفا على القلعة تحت أشعة الشمس الذهبية . عم الفرح العظيم المعسكر الفرنسى . وساد شعور عظيم من نوع آخر بين أهل المدينة .

وأراد الابطال أن يرسلوا اشارة الى أصدقائهم فأطلقوا قذيفة من أحد المدافع المصوبة الى المدينة ! وسقطت القذيفة أمام كنيستها الكبرى فقوضت تمثالا منصوبا هناك .

وتعالت الصيحات من أهل المدينة المذعورين : « ها هم الفرنسيون يتقدمون !. حيث كانوا قد رأوا جيش المارشال يبرح خطوطه متقدما فى ثلاثة صفوفهم صوب مدينتهم .

ولم يبق هناك من خوف من الاعداء أن يوقعوا الجيش المظفر فى كمين تحت الجدار الملغم حيث قد اكتشفت الطلائع أن موضعه بات مغرقا بالماء .

وسقطت فى المدينة ثلاث قذائف أخرى على فترات فراح أهلها يبحثون لهم عن ملاذ يهربون اليه من النيران التى تمطرها عليهم السماء .

وفيما كان الذعر فى المدينة على أشده أرسل كريكى أمرا بوقف اطلاق المدافع .

وفى الساعة التاسعة من الصباح دخل القائد الفرنسى المدينة فطوق بساعديه ابن بورتوس حين قدم له المفاتيح وقال :

ـ ان جيش الملك مدين لك بهذا الانتصار يابنى .

واستدعى فريكيه فأطراه هو وبونلارون .

وقدموا اليه مختلف الاعلام لسائر فرق العدو .. فالتفت الى جويل وقال :

ـ أيها الفارس الهمام .. انى أعهد اليك بنقل هذه الاعلام الى سان جرمان لتوضع تحت قدمى الملك . وسأبلغ جلالته ماقمت به من عمل هام فى الاستيلاء على هذه المدينة . وليرافقك الكابتن فريكيه والجاويش بونلارون . ولا حاجة بى الى القول بأنى فخور بوجودكم تحت قيادتى ، وسأبقى صديقا لكم ماحييت .

وفى ذلك المساء ذاته بدأ الاصدقاء الثلاثة رحلتهم . وساروا على الطريق فرحين متهللين . وكانت الانباء قد سبقتهم فراح الناس يستقبلونهم هاتفين بحياة أبطال فريبرج . ورحب بهم أهل سان ديزييه التى ألقوا رحالهم فيها فى خان (صليب اللورين) وما كاد يستقر بهم المقام حتى برز شخص من بين الجماهير وراح يعدو صوب جويل وهو يناديه :

ـ سيدى الفارس .

وهتف الفارس متعجبا حين رأى تابع الارملة سكارون :

ـ أونورين !

ـ قد كنت أبحث عنك ياسيدى . وهذه رسالة لك من سيدتى فتناول البطل الورقة التى لم يكن بها الا هذان السطران :

« عد حالا بلا ابطاء .. حياة أورورا وشرفها فى خطر »

« صديقتك »

فصاح : على بجوادى . أين جوادى ؟. سأذهب الى باريس رأسا ولو اضطررت للذهاب اليها سيرا على الاقدام .لا بل انى لاجر نفسى اليها على ركبتى .. ويمكنكما ياصديقى أن تلحقا بى هناك اذا بقيت حيا .

وقال بونلارون : ولكن الاعلام .

وأضاف الباريسى : والملك .

وزأر ابن بورتوس وهو يلوح بيده فى الهواء :

ـ وماذا يهمنى الملك أو الاعلام حين تكون زوجتى فى الكفة الاخرى من الميزان ؟ .. أقول زوجتى .. فهلا تسمعون ؟ ! .

وامتطى صهوة جواده وهتف :

ـ وداعا !.. اذا كنتم تحبوننى ففكروا فى أحيانا .. لأنى لاأعرف لون الشيطان الذى سأتصادم معه .

الفصل الثالث والعشرون

تجمعت الجماهير بعجيجها وتدافعها وأنظارها المتطاولة حول قصر سان جرمان لمشاهدة موكب الصيد الملكى الحافل بالشخصيات اللامعة حيث كان ينتظر أن يخرج من القصر فى تلك اللحظة .

وعلى الرغم من العلامات الصادقة عن قرب هبوب زوبعة عاتية فان الاوامر جميعها كانت قد صدرت بشأن هذه الرحلة ،ولم يخطر للملك أن يؤجلها حيث كانت تنطوى على تدبير سرى تم الاتفاق عليه بينه وبين الدوق داليدا .

وما كاد الموكب يختفى وراء الغبار المتصاعد خلف المركبات حتى تفرقت الجماهير وهدأت المدينة .. وسادها صمت وجمود .. واقفرت منها الحياة .. بمجرد غياب عظمائها من السادة والسيدات .. وأصبحت مهجورة .. مغمورة كما هى اليوم .

وقبل الغروب حيث كانت السحب تتضخم وتستعير ألوانا حمراء وبنفسجية من الشمس الغاربة ــ دخل جواد ينبعث الشرر من تحت حوافره فناء القصر . وعلى ظهره ابن بورتوس . بثياب مغبرة ووجه ملتهب .. وشعر يسيل منه العرق .. فتصدى له الحارس على البوابة . ليمنعه من الدخول .

وحينئذ قال جويل : أنا رسول المارشال كريكيه .

فسأله الحارس بلهفة : هل أنت قادم من فريبرج ياسيدى؟

ــ نعم ومستعجل جدا كما ترى .

ــ ولكن جلالته خرج للصيد فى مارلى .. ويحتمل أن يقضى الليلة هناك كما هى عادته ..

فتجهم وجه جويل وقال : وكيف حال مدام لوكماريا .. أعنى زوجتى ــ وهى احدى وصيفات الملكة .. أرجو ألا تكون قد أصيبت بسوء .

ــ لم أتشرف بمعرفة مدام لوكماريا شخصيا . ولكنى لم أسمع بأى حادث وقع لأى سيدة فى البلاط .. وقد ذهبت الملكة مع رهط الصيد واصطحبت معها كل وصيفاتها .

فهتف جويل : ارشدنى الى طريق مارلى .

ولم يكد يعرفها حتى انطلق فى الاتجاه الذى أشار له عليه ، ولم يفكر البطل الا فى أورورا وحدها التى قد تكون فى تلك اللحظة ذاتها فى حاجة الى ساعده وسيفه .

وكان الجواد قد برح به التعب وكاد يسقط براكبه وهو يخترق غابة كثيفة لم تحمه من العواصف والأمطار المنهمرة . واذا به يقف مبهوتا مذهولا . حين رأى رجلين أو ثلاثة يحملون شيئا يلوح انه جثة ميت وكان الثالث يقود رفيقه . ويبدو من بعيد مشابها لمسيو بزلوريه . ولمع فى الافق شهاب عرف الفارس على ضوئه أن الجثة المحمولة انما هى جثة امرأة . وقد تكون فى حالة اغماء . أو لعلها ميتة .

وفجأة انتفض .. وأسرع تنفسه ، وزأر كأسد جريح .. ثم تملكه غضب جائح . فقد رأى أن هذه الجثة . لم تكن الا جثة زوجته أورورا . ولكن هذا كله كان مجرد حلم . فان جويل لم يكد يمد يده حتى اختفى كل أثر لذلك المنظر . ومن أسف انه حين مد يده أفلت عنان الجواد . فانطلق يعدو كالمجنون مذعورا من

الرعد والبرق فما هو الا ان القى براكبه . فاصطدم رأسه بجذع شجرة ضخمة .. وغاب عن الصواب .

ولم يطل به الاغماء . فقد أعاده البرق والمطر الى صوابه بعد وقت قصير .. فنهض متألما .. ولكن الحلم كان لايزال يدور في مخيلته لقد حسبه حقيقة وود لو استطاع أن يطارد أولئك الاشرار الذين كانوا يحملونها . وينتزعها من بين أيديهم حية أو ميتة ثم يقتلهم من بعد ذلك عن بكرة أبيهم .

وانطلق على غير هدى .. مترنحا كالثمل .. لايكاد يشعر بالالم ولا بضربات قلبه ..

وعلى حين فجأة رأى نورا .. فاتجه اليه .. وكان ينبعث من دار قديمة بابها معلق بخيط .. ولها نافذة كطاقة كوخ .. فتقدم نحوها ونظر من خلالها قبل أن يطرق الباب .. فسمع همهمة كما لو كانت ترتيل قسيس ..

وكانت الغرفة عارية الجدران ..وفيها مائدة مغطاة بقماش إسودوفي ظل ركن منها شمعة مضاءة وعلى المائدة طائفة من الكتب المقدسة موضوعة في غير ترتيب ولا نظام .. والى جانبها صليب مقلوب .. وسكين طويلة .. وحوض من النحاس ..

وأمام هذا المذبح العجيب .. وقفت امرأة في ثياب كثياب قسيس لم يلبث جويل ان عرف فيها العجوز الدميمة التى التقى بها في باريس مع والتون حيث كان يبحث عن تريزا ليساج .. وكانت هناك امرأتان راكعتان ترددان الفاظ تلك المرأة بأصوات حزينة ..بينما وقفت امرأة اخرى ملتفة في عباءة من الحرير ، ويبدو على قسماتها قلق الانتظار ..

وكانت هذه المرأة الاخيرة هى المركيزة مونتسبان ، والمرأتان الراكعتان وصيفتيها .

وبعد طائفة من الحركات السحرية التى قامت بها الام بوس ، قالت مدام مونتسبان :

ـ انى بهذا أطلب ان يعود حب الملك الى ويبقى أبد الدهر لي وحدى وان يجيبنى الى كل ما اطلب خاصا بى او بعشيرتى .. واطلب ان ينبذ لويس تلك المرأة الحقيرة اوورا كما نبذ من قبلها لافالير .. واخيرا اطلب ان يتزوجنى لويس عندما ينفصل عن الملكة او حينما تموت .

ثم ادارت المركيزة ظهرها الى المائدة وجعلت تهتز في حركات عنيفةوهىتردد : شيطان ! شيطان !

ولكنها لم تكد تنطق بآخر كلمة من العبارة الاخـــيرة حتى ارسلت هى ووصيفتاها صيحات ذعر رهيبة

وذلك‌ان الباب كان قد دفع بقوة ورأت خيال جويل وقـــد اضافت الاضواء الخافتة الى حجمه الهائل فخيل للمركيـــزة ان عفريتا قد لبى نداءها .

وتقدم الشبح ثم أشار بيده الى الوصيفتين والســـاحرة الدميمة ودعاهن لمغادرة المكان .. وقد اطعنه فى غير جدل . وما أن اصبح وحده مع المركيزة حتى عقد ساعديه فوق صـــدره وقال :

ــ ايتها المرأة..ماذا فعلت مع زوجتى اورورا ؟

فحملقت المركيزة فيه ثم خفضت من بصرها اذ لم تســتطع مقاومة قوة عينيه وهتفت :

ــ هل هذه روح ؟ . هل يعود الموتى الى الحياة ؟ . أم هل هو الشيطان يبدو فى هذه‌الصورة؟

ــ ايتها السيدة .. لا خيال ولا حيلة !.. وانما انا هنــا . فاجيبى على سؤالى .. ماذا فعلت مع‌زوجتى ؟

وتحققت المركيزة من قبضة يده انها ليست تجاه شـــبح او عفريت من الجن .. فعاودتها شجاعتها وحبها للنضال وقالت :

ــ لست افهم شيئا مما تتحدث عنه .

ــ انت تكذبين . فقد ذكرت اسم زوجتى الان فقط فيمـــا تمارسينه من شعوذة حقيرة . فبحق كل ما هو مقـــــدس ستخبرينني الان بما اريد معرفته او ..

ــ أو مـــاذا ؟ .

ــ أو اسلمك للجلاد بما تتضمنه الورقة المودعة فى هـــذه « الميدالية » ..

ولم تكد المركيزة تراها حتى انكمشت واســــتطرد جويل ببرود :

ــ هيا واخبرينى اين زوجتى الآن وانا اعيد اليك الخطاب . واقسم ان لم تحلى عقدة لسانك لاطلعن الملك غدا على الخطـاب ، بعد ان اذيع امره فى سائر انحاء باريس .

ــ ولكنى لم اشترك فى المؤامرة التى دبرت للايقاع بمـــدام لوكماريا . ويمكنك ان تذهب وتسأل السفير الاسبانى عنها ، فهو فى هذه المسألة يعمل لحساب ملكنا ، ويريد ان يجعل منها عشيقة للملك .

ـ ولى نعمتى !.. الملك !.. اين هو الملك ؟ واين دالميدا ؟.. وأين اورورا ؟ .
ـ ربما كانوا فى المقصورة الملكية فى مارلو . فقد شـــعرت السيدة بمرض اثناء الصيد ، وأمر الدوق بحملها الى دار صيفية يملكها بالقرب من المقصورة الملكية .

فقاطعها جويل : كفى ! . فانى اعلم كل ما يمكنك ان تقوليه لى
وتذكر كلمات ستيبان وهو يجود بروحه ، واستعاد تفاصيلها فتمالك نفسه وسأل المركيزة :

ـ اين الطريق الى الدار الصيفية ؟.
ـ عن طريق هذه الصخور . فى عشرين دقيقة .
ـ اشكرك
وخلع « الميدالية » من حول عنقه وقدمها اليها قائلاً :
ـ ها أنت ترين انى أحافظ على وعدى يا سيدتى ! .

وسحب سيفه من غمده وانطلق دون ان يلقى نظرة اخرى على المركيزة . ولو سمعه احد لوجده يقول :
ـ نحن الثلاثة لا مفر لنا من التصادم انا والملك والدوق

الفصل الرابع والعشرون

سنترك الملك الان حيث جلس بين بضعة من حاشيته يتناولون العشاء على مائدة صغيرة فى مقصورة مارلو . ولندخل مخـــدع الملك الخاص حيث لا يباح دخول احد ممن يغشون المقصـــورة اليه ، فهنا سنجد اورورا وقد كان الحادث الذى سنرويه فيمايلى هو سبب وجودها هناك .

فى خلال حفلة الصيد تقدم الدوق دالميدا الى مدام لوكماريا وقال :

ـ ماذا بك يا ابنتى العزيزة ؟ هل تشعرين بألم ؟
ـ كلا ، ما بى من الم ، وكل ما هناك انى لا اشعر بارتياح

ـ اذن يجب ان تتناولى شيئا منعشا حتى لا تسببى انزعاجا لاصدقائك الكثيرين .
واعطى اشارة الى احد المكلفين بالشراب ثم قال لها :

ـ سنشرب نخب صحة صديقنا جويل الذى نرجو ان يعود قريبا .

ـ من كل قلبى يا سيدى الدوق

وهكذا شربت الكأس الممزوجة بالعقاقير التى قدمها اليها ... وبعد ساعات قلائل هبت العاصفة فعجلت الملكة بالعودة الى سان جرمان مستصحبة وصيفاتها .

وحاولت اورورا ان تسير بجوادها حذاء زميلاتها ، ولكن ضعفا طارئا غلبها على أمرها ، واختنقت بصيحة الاستغاثة التى كانت تريد ان ترسلها ، وكادت تسقط من فوق صهوة جوادها لولا ان بادر اليها بزلوريه ، وحملها هو واثنان من الاتباع ، وبذلك تخلفت عن ركب الملكة .

وكانت الان نائمة فى سرير هائل الحجم فخم الرياش ، وجلس الدوق داالميدا بالقرب من مصباح فضى مضاء موضوع فوق طاولة

واخيرا تناول المصباح فى يده وذهب فالقى عليها نظرة ثم تمتم: « يالها من تمثال بديع من المرمر الوردى !.. بعد ساعة ستفيق من أثر المخدر ، فما للملك قد تأخر هكذا ؟ انى لاخشى ان تفلت هذه الفرصة ثم يحضر جويل فلا تعود تسنح فرصة اخرى مثلها .. وهى فتاة عنيدة ولكنها لن تلبث حتى تخضع لرغباتى عندما اهددها بفضح عارها لزوجها .»

وصمت هنيهة ثم قال كأنه يرد على اعتراض معترض :

ـ ولنفرض ان فى هذا العمل رذيلة لا تتفق مع نبل اتوس ونزاهة بورتوس وبراءته وطهره وشجاعة دارتانيان واستقامته وصراحته .. ولكن اليست الغاية تبرر الواسطة ؟. وأية قيمة لفضيلة امرأة وسعادة رجل بجانب انتصار الدين ؟.ولكن .. لماذا اخدع نفسى؟.ان هذه المؤامرات لا علاقة لها بالدين . وانما انا اعمل لارضاء مطامعى .

ثم ضحك كالممثل فى مسرحية فكاهية وقال:

« ولكن اية اهمية لهذا كله ؟. اليس البابا هو الذى يغفر الخطايا ويمحو الذنوب ؟. حسنا . عندما أصبح انا البابا سأطهر نفسى!»

ولم يكد ينتهى من هذه السخرية حتى بدت على قسماته آثار دهشة عنيفة ..وتمتم « ما هذا ؟ » .. ونهض نصف نهوض وهو ينظر الى الباب

وعاد يغمغم : (لا يمكن ان اكون مخطئا .. فهناك شخص في الممر الارضى) .. ونهض فى وقفة كاملة .. ثم اردف : (ها . ها . لاشك انه بزلوريه .. ومن يمكن أن يكون غيره ؟ . ولكن ماذا عساه يريد ؟ وأى شيء هام يجعله يحضر الى هنا الآن ؟)

وذهب الى الباب الذى لم يكن احد يستطيع ان يراه اويتكهن بوجوده هناك . ورفع اكرة نحاسية وضغط على زر تحتها ففتح الباب .. وعلى الرغم مما اشتهر به اراميس من قدرة على ضبط نفسه فى أحرج المواقف ، فانه قد ارسل صيحة ممتلئة دهشة وذعرا فى هذه اللحظة .

فقد ظهر امامه فى الفتحة التى انفرجت ابن بورتوس باهت الوجه ، حزينا ، متوعدا ، وفى يده سيفه ملطخ باثار دم حديث

وتراجع اراميس بظهره الى الطاولة . ولكنه سرعان ما تمالك نفسه كما يقع للملاكم الذى يتلقى لطمة قوية يترنح لها ثم لا يلبث حتى يفيق ويعاود اللعب . فاستجمع اراميس قواه وقال :
ـ أيها الفارس .. كيف جئت الى هنا وتركت مكانك فى الجيش ؟ ان الهرب جريمة خطيرة !

فاجاب البريتونى فى هدوء مرعب:

ـ سيدى .. لم يبق لى ما أعمله فى الجيش ، فقد تم الاستيلاء على فريبرج . بيدى. ومعى فى جيبى تقرير المارشال كريكى مثبتا هذه الحقيقة . ولكن هذا ليس ما جئت من اجله الان . فهل تريد ان تعرف كيف وصلت اليك عن طريق السلم السرى ؟ حسنا ، ليس عندى وقت للدخول فى التفاصيل .. وكفاك ان بزلوريه قد مات .. وكذلك زعيم عصابتك من الاشرار « كوند وركور ديف » .. وهما حادثان سأجيب عنهما أمام من له حق سؤالى .. فالآن وقد حان وقت تصفية حسابنا .

وحافظ السفير على بروده .. كالدب الوحشى فى وكره وهو يراقب حركات الصياد فى غير اهتمام ظاهر
وتكلم متعاظما فقال : ها !. هل لدينا حساب نسويه ؟ انى اترك امثال هذه المسائل لخدمى .. وليس هذا بالمكان ولا بالزمان الذى تعالج فيه مثل هذه الامور . انت هنا فى مقصورة الملك . فهلا تعلم هذا ؟
ـ اؤكد لك انى أعرف هذا حق المعرفة .. وأنا قادم الى هنا لاسترداد زوجتى

ـ زوجتك ؟

فمد جويل يده غير المسلحة وقال :

ـ زوجتى الراقدة هناك على السرير الذى لم تعن حتى بسحب الكلة فوقه .. وقد فاجأتك بزيارتى قبل ان تأخذ حذرك . وانت الذى اعطيتها المخدر حتى لا تعلم هى شيئا عن جريمتك

واحس اراميس بالضعف يسرى فى عروقه فتناول القنينة الصغيرة من مخبئها وابتلع منها حبه وقال :

ـ ان مدام لوكماريا قد ماتت .

فضحك جويل وقال :

ـ لو انى كنت اعتقد ذلك لما كان لك فى الحياة وجود الآن .. ولكن طمعك هو خير تأمين لى .. فان الملك لا يدفع لك ثمن جثة ميتة !

ـ انت لا تعرف شيئا !..

ـ بل أعرف انك لم يقع اختيارك على زوجتى الا لتجعل منها عشيقة للملك !.. وأعرف انك اوفدتنى الى فريبرج على أمل الا أعود كما أعرف ان رصاص عصابتك الذى كنت انا مقصود به هو الذى قضى على تابعك الخائن وعلى اجيرى المركيزة مونتسبان أيضا !!

ـ ايها الشاب .. اذا كنت تعرف هذا كله فقد كان ينبغى عليك ان تعرف ان الحكمة انما هى فى الصمت .. فهل تحسبنى اسلم لك بسهولة فيما أؤمله من ربح لمجرد انك تسميه عارا ؟.. اذا شئت فاننا نقتسم أو أضع يدى على كل شىء .. ان لدى اسبابا فى غاية الخطورة تضطرنى للقيام بدورى هذا ... والتضحية التى اطلبها انما هى لاحلال السلام والوئام فى هذا العالم محل الخصام والانقسام .. انت شاب ذكى ويكفيك التلميح دون التصريح . فضع حسامك فى غمده ، ولا ترسل على من عينيك شواظ غضبك ، واذهب الان .

ـ سأذهب ومعى زوجتى

واضطر الدوق للالتجاء الى قنينة الحبوب مرة ثانية ثم هتف :

ـ أوه .. انك تستغل صبرى .. ومع ذلك فلست اريد بك شرا . فاذهب والا فانى سأقتلك .

ـ من لديك ليساعدك ايها الرجل العجوز ؟.. هل نسيت انى ارحت العالم من اشرارك ؟.. الا انك لادنى الى القبر منى

وأتت اوروا بحركة .. فتقدم جويل خطوة نحوها .. ولكن اراميس جرد سيفه ووقف بينهما وهو يحسب ان الدواء قد رد اليه شبابه ، وقال :

ـ فلتدافع عنها .. وعن نفسك ايضا.

وخيل الى جويل انه يستطيع التخلص بسهولة من غريم في هذه السن .. وأراد الا يضيع الوقت في استعراض مهارته في لعب السيف ، فانقض عليه بسرعة البرق موجها طعنة مستقيمة اليه .. غير ان ذلك العجوز لم يلبث ان علم انه ليس واقفا حيال مبارز عادى .. وظل السيفان يدوران فى الهواء تارة ويلتقيان تارة اخرى فلا يفعلان اكثر من ان يرسلا فى الجو صوتا كفحيح الافعى .. وشعر جويل بعد هجماته المتتالية بتعب فى ساعده فاتخذ لنفسه موقف المدافع .. وحينئذ ابتسم الدوق العجوز ابتسامة شريرة وقال :

ـ لقد وقعت ايها الديك الصغير !.. وسأجهز عليك سريعا بطعنة صديقى بورتوس ..

وما كاد أراميس ينطق باسم بورتوس حتى توقفا عن القتال بمصادفة عجيبة ، وتصافح سيفاهما وكان كل منهما يستطيع قتل الآخر فى سهولة تامة لو اراد .. ولم يحفل جويل بالبحث عن سبب توقف غريمه الفجائى بل ابتدره قائلا :

ـ بورتوس كان ابى !

ـ ابوك؟. انا صديقه اراميس

وانكمش الرجل العجوز وقلب سيفه .. وخيل اليه ، وقد انتهى مفعول الدواء فغامت الدنيا امام عينيه . انه يرى امامه شبح صديقه فى شبابه .. وتتابعت فى مخيلته المواقف التى شهد فيها ذلك الصديق الوفى ، ولاسيما مواقفه منذ اشراكه معه في مؤامرته لاستبدال الملك باخيه مما انتهى به الى الموت وهو مايزال جاهلا انه انما قد اشترك فى مؤامرة ، وكفه قلبه الطيب عن سؤال صديقه الذى قاده الى الهاوية.

واخيرا رأى اراميس فى حلم يقظته شبحى صديقيه الراحلين دارتانيان وأتوس وكأنهما قد وقفا عن جانبى ابن بورتوس ليدفعا عنه اعتداء المعتدين .

عند ذلك سرت قشعريرة باردة في عروق اراميس ، فسار مترنحا الى اقرب مقعد وقد اخلى الطريق بين جويل وبين زوجته، وجلس على المقعد وهو يقول :

ـ لقد خدعت .. وقضى على الدواء الذى كنت احسبنى قد ضمنت به حياتي .. أوه .. كم وددت ان اعيش .. واحكم .. واجعل .. هذا العالم .. يفنى فى .. واحد .. وذلك .. الواحد .. هو ..أنا..

وفيما كان جويل حاملا زوجته بين ساعديه وقد عاد قلبها يدق دقات منتظمة مع دقات قلبه ، مر على الرجل العجوز فى مقعده فرأى رأسه قد تدلى فوق صدره ، واصبح جثة هامدة ..

وهكذا مات اراميس ، ولم يدر انه ، وهو رجل البلاط العارف بالتقاليد ، قد ارتكب جرما لا يغتفر بتركه جثة ميت تطالع عينى الملك ..

« * »

وبعد اسبوعين من الحادث الاخير فى مغامرات ابن بروتوس ! شوهد ومعه زوجته وصديقاه فريكيه وبونلارون وهم يهبطون ارض لوكماريا ، والجمهور يهتف بحياة «الكونت لوكماريا» محافظ الجزيرة الجديد .

((تمت))

هيئة قناة السويس

جنسيات السفن التى عبرت القناة خلال شهر اكتوبر عام ١٩٦٢

السفن التى عبرت القناة خلال اكتوبر ١٩٦٢ ترفع أعلام ٣٩ جنسية مختلفة مقابل ٣٤ جنسية فى اكتوبر سنة ١٩٦١ .

وكان ترتيب الجنسيات العشر الاولى خلال شهر اكتوبر سنة ١٩٦٢ كالاتى :

انجلترا — ليبريا — النرويج — فرنسا — ايطاليا — اليونان — هولندا — السويد — المانيا — بنما .

بينما كان هذا الترتيب فى اكتوبر ١٩٦١ كالاتى :

انجلترا — النرويج — ليبريا — فرنسا — ايطاليا — اليونان — هولندا — بنما — المانيا — السويد .

وقد زادت الحمولة الصافية لجميع الدول العشر الاولى التى عبرت سفنها القناة خلال شهر اكتوبر سنة ١٩٦٢ مقارنة بمثيلاتها فى اكتوبر سنة ١٩٦١ بالنسب الاتية

انجلترا ١ر٧٪ ، ليبريا ٣ر٢٨٪ النرويج ٦ر١٤٪ ، فرنسا ٧ر١١٪ ، ايطاليا ٣ر١٧٪ ، اليونان ٨ر١٥ ٪ ، هولندا ٤ر١٨٪ ، السويد ٣ر٥٠٪ ، المانيا ١ر٢٨٪ ، بنما ٥ر٩٪ .

المسافرون على البواخر :

بلغ عدد ركاب البواخر التى عبرت القناة خلال اكتوبر سنة ١٩٦٢ — ١٩١٩٨ مسافرا مقابل ٢٨١٨٣ مسافرا فى اكتوبر سنة ١٩٦١ .



الدار القومية للطباعة والنشر
١١ شارع الصحافة ـ القاهرة



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر مايو 2018 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي





الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ٢١٢ الثمن ٤ قروش

Exclusive
For
www.ibtesama.com